سيرل بيرت، إرنست جونز وآخرون

كيف يعمل العقل

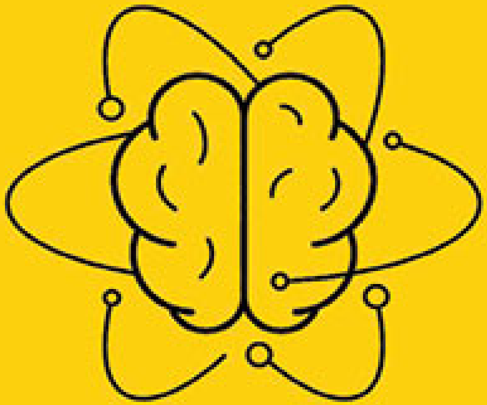

كيف يتمكن الإنسان من دراسة عقله
تعرف إلى التحليل النفسي ببساطة
كيفية عمل عقل الراشد وعقل الطفل
قوة اللاشعور وأهمية الأحلام

آفاق

ترجمة: رياض عسكر، محمد خلف الله

مكتبة الرافدين للكتب
الالكترونية
https://t.me/ahn1972

كيف يعمل العقل؟!

سيرل بيرت
إرنست جونز
وآخرون

◆ المؤلف: سيرل بيرت، إرنست جونز وآخرون

◆ العنوان: كيف يعمل العقل؟!

◆ ترجمة: د. رياض عسكر - محمد خلف

◆ طبعة آفاق الأولى 2020

◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

◆ مستشار النشر: سوسن بشير

◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
١٦٢٥٩ / ٢٠١٩
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977-765 - 241 - 4

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة– من شارع محمود بسيوني – ميدان طلعت حرب– القاهرة – جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ – ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ – موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

كيف يعمل العقل؟!

تأليف

سيرل بيرت، إرنست جونز

وآخرون

ترجمة

د. رياض عسكر - محمد خلف

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

بيرت، سيرل – جونز، إرنست وآخرون

كيف يعمل العقل؟ – سيرل بيرت، إرنست جونز وآخرون

ترجمة: دكتور/ رياض عسكر – محمد خلف

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2020

320 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 16259 / 2019

الترقيم الدولي 4 – 241 – 765 – 977 – 978

1 – العنوان

2 – بيرت، سيرل – جونز، إرنست وآخرون

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعرب

نقدم إلى القراء في هذا الكتاب سفرًا نفيسًا أخرجه إلى جمهور القراء نخبة من أكبر علماء النفس البريطانيين، وتقاسموا موضوعاته تبعًا لاختصاص كل منهم، فجاء بذلك عمدة ثقة. ومما يحبب ذلك الكتاب إلى عامّة القراء أنه لم يكتب للمتخصصين، بل ألقيت موضوعاته في الأصل في صيغة محاضرات بالإذاعة البريطانية لعامة المستمعين، فخلا بذلك من المشاكل العويصة والاصطلاحات المعقدة، وصار أسلوبه سهلًا لا يحتاج إلى عناء مع مساسه بأهم المسائل التي تجول في خاطر كل إنسان، وتمس تفكيره ومشاعره وعواطفه، وبالاختصار حالته النفسية.

ولما كانت السلسلة التي صدر فيها هذا الكتاب من حجم معين لم نرد أن نتعداه، فقد قسمناه قسمين وقمنا بتعريب قسم منه، وقام الأستاذ محمد خلف الله بتعريب القسم الآخر، وراجع كل منا ما كتبه الآخر رغبة في توخي الدقة التامة مع سلاسة الأسلوب، فجاء بذلك جديرًا

بالقيمة العلمية والأدبية لهذا المؤلَّف.

ويجد القارئ في هذا الكتاب الأول عشرة فصول قمنا نحن بتعريب ثمانية منها، أما الجزء الذي عربه الأستاذ محمد خلف الله فيبدأ من الفصل التاسع ويستمر حتى نهاية الكتاب الثاني.

وإنا لنرجو أن يسدّ هذا الكتاب بعض الفراغ الكبير في ميدان علم النفس في مصر والشرق العربي.

رياض محمد عسكر

كيف يعمل عقل الراشد؟

الشعور

بقلم الأستاذ سيرل بيرت

M, A و .D. Sc

أستاذ علم النفس بجامعة لندن

الفصل الأول

هل منا من لم تتُق نفسه، وقتًا ما، لاستطلاع ما يدور بعقل زميل له ولو كلفه ذلك ثمنًا باهظًا، يدفعه عن طيب خاطر؟ خذ مثلًا لاعب البوكر، المجازف بماله، وصاحب الدكان الذي يحاول إغراء الشاري بشراء بضاعته، والموظف الذي يراود نفسه بمفاتحة رئيسه في شأن زيادة مرتبه، والمحلفين بالمحكمة حين ينظرون نظرة المستطلع النهم إلى المتهم بالقفص، ألا تراهم كلهم يودون مثلنا أن يستطلعوا خفايا عقول رفاقهم من بني البشر، ودوافعهم النفسية؟ والحقيقة أنه لا يوجد مَن يستطيع البقاء في مجتمع ما، من غير أن يهتم بتفهم عقول أفراده.

فماذا تفعل إذَنْ، حين تحاول أن تقدِّر شخصًا قابلته لأول مرة؟ وما الوسائل التي تستخدمها في ذلك؟ لا شك أنك ستحدق النظر فيه، أولًا لتدرس مظهره الخارجي، ولتلاحظ سلوكه، وهذا ما يسميه العلماء طريقة الملاحظة. وهي طريقة صحيحة على شريطة أن تكون منتظمة، وأن تطبق بجد واهتمام. ما هي إذن العلامات والمظاهر التي تعتمد عليها أكثر من غيرها؟ ستختلس طبعًا، كما يفعل شرلوك هولمز، نظرة سريعة

إلى وجهه، من عين نصف مغمضة. ثم تمعن النظر في ملابسه وحذائه، وتجيل بصرك في بزّته، من غير أن تفوتك ملاحظة خاتم الزواج بأصبعه، أو ابتسامته، التي تنم عن اضطرابه، أو أصابعه المصفرة من أثر التدخين، إلى غير ذلك مما لا تفوتك ملاحظته. حتى إذا ارتاح واطمأن إليك، صوبت إليه بضعة أسئلة، بسيطة المظهر، عميقة المخبر، ثم أنصت إلى إجابته، منتبهًا لما يرمي إلى إقناعك به، من صراحته وحكمته، ولا تفوتك طريقة اختياره لألفاظه، واللهجة التي يعبر بها عن نفسه، ونبرات صوته التي تنم عن تلطفه. وبناء على كل تلك التفاصيل الكاشفة، التي سرعان ما يصنفها عقلك، ويوازن بينها، تصدر حكمك النهائي عليه، وتقرر رأيك فيه.

تلك إذَنْ هي المظاهر الخارجية، التي تعتمد عليها، بوجه عام. ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام رئيسة: المظهر الجثماني، وتعبير الوجه، والصوت والسلوك العام.

دعنا الآن ندرسها واحدًا واحدًا، لتعرف إلى أي حد يمكن الاعتماد على كل منها، ومقدار الثقة التي يصح وضعها في مثل تلك الأحكام العاجلة، ولنبدأ بالمظهر الجثماني، فنسأل أنفسنا السؤال الآتي وهو:

أنستطيع إصدار أي حكم أكيد، على خلق شخص، من النظر إلى بنيته أو شكل جسمه؟

هناك قول قديم في هذا الموضوع، ومع أنه أُهمل منذ زمن بعيد، فإن التجارب الحديثة قد أثبتت أنه كان حدسًا ماهرًا. لقد سمعنا كلنا عن النظرية العجيبة، نظرية الأمزجة، فكانت كلمة مزاج تعني عند

القدماء سائلًا أو عصارة، وكان يُظن أن للسوائل التي بالجسم وظيفة مزدوجة، فهي من ناحية، تؤثر في نمو الجسم ولون البشرة، ولون الشعر، ومن ناحية أخرى، تؤثر في طبيعة الخلق، بتنشيط أنواع معينة من الميول، والحالات النفسية الوقتية. وهكذا نشأت الفكرة القائلة بأنَّ الأمزجة النفسية، نتيجة للسوائل التي بالجسم، واستخلص من كل هذا أربعة أمزجة. فالبلغم يؤدي إلى مزاج بلغمي، ويتميّز صاحبه، بجسمه القصير الممتلئ، وبشرته الباهتة السميكة. والدم، يؤدي إلى مزاج وشكل دمويين، ويتميز صاحبه برفع القوام، والشعر الأحمر، والبشرة المحمرة، ومن طبعه التفاؤل والسرور. والصفراء تنتج مزاجًا صفراويًّا، وصاحبه مصفر البشرة، وشكله كهيكل الميت والسوداء تنتج مزاجًا سوداويًّا حزينًا، وصاحبه قاتم اللون، مكتئب، ينظر إلى العالم بمنظار قاتم كذلك.

ذلك ملخص النظرية المذكورة، ولكن ما مصدر تلك السوائل؟ نعلم اليوم أن عصارات الجسم تأتي من أعضاء معينة، تُسمَّى بالغدد، بعضها تبعث إفرازاتها إلى سطح الجسم، كالغدد الدمعية، وغدد العرق مثلًا. ولكن هناك غدد أخرى، ترسل عصاراتها في مجرى الدم ذاته، فتسير معه في دورته. ولقد أُجريت سلسلة من البحوث القيّمة، فدلت على أن تلك السوائل وما تحويه من مواد كيمياوية، تُحدث تأثيرًا يشبه تأثير المخدرات أو المسكرات، ولها تأثير بعيد المدى على الانفعالات والنمو الجثماني. وهكذا ثبتت لحد ما صحة نظرية الأمزجة القديمة من حيث الأساس.

ولأضرب الآن بضعة أمثلة. كلنا يعرف أن نضوج الغدد الجنسية عند البلوغ يؤثر تأثيرًا كبيرًا في النمو الجثماني، كما يؤثر في قوة بعض الغرائز والانفعالات. وإذا خُصي المرء وهو صغير، امتنع نموّ الشعر عنده وبقي صوته رقيقًا، كصوت الأطفال، ونزع إلى السمنة وبدت فيه مميزات الأنوثة بوجه عام. وأوضح مثل لذلك فعل الغدة الدرقية، الكائنة في الرقبة، تحت النتوء الغضروفي المعروف بالحنجرة، وهي تشبه قطعة لحميّة ليّنة الملمس. وقد تراها كبيرة متضخمة بشكل ظاهر، عند بعض الناس، فيقال عندئذٍ إنهم مصابون بالتضخم الدرقي. فإذا كانت تلك الغدة شديدة النشاط كما هي الحال عند كثير من البنات الصحيحات في دور البلوغ، فإن الفرد يميل إلى التهيّج الوجداني، ويصبح كثير الحركة والقلق. حتى لتمكن ملاحظة تلك الأعراض في بعض الأحيان عند أول نظرة سطحية. فبالإضافة إلى التضخم البسيط في أسفل الغدة، قد تبدو العينان كأنهما جاحظتان من شدة التأثر. ويلاحظ أن البنت التي هذا شأنها، تكون سريعة الحركة، تندفع فجأة من عمل إلى عمل آخر، وتبكي أو تضحك لأقل شيء، وهي كثيرة الثرثرة، كما تبدو عليها غالبًا آثار الهم الطويل الدائم، من جراء مخاوف بالغة.

وعكس هذه الأعراض تُلاحظ على مَن تكون غدتهم الدرقية خاملة أو غير كاملة النموّ. فتجدهم قصار القامة، مكبوتي النموّ، وجوههم وجسومهم، كوجوه الأطفال، ولهم بطون بارزة وشعر نامٍ في غير مواضعه الطبيعية، طبعهم فاتر، وشكلهم يدل على الغباوة، ووجداناتهم فاترة، وذكاءهم دون المتوسط بكثير. وإذا اشتدت الحالة،

أصبح الشخص معتوهًا. وهذا هو النوع الوحيد من أنواع النقص العقلي الذي يُرجى علاجه. فإذا أُطعم طفل هذا شأنه في سنواته الأولى خلاصة مستخرجة من الغدد الدرقية، فقد تتحسن حالته تحسنًا ظاهرًا، فينمو جسمه نموًّا طبيعيًّا، ويزدهر ذكاؤه، وتنشط حركته، ويستيقظ انتباهه. وهناك غدد أخرى عديدة ذات إفرازات داخلية تؤثر كالسابقة في شكل الجسم كما تؤثر في الحالة العقلية الداخلية. ولذا فإنا نستطيع أن نتمشى مع الرأي القائل بإمكان معرفة ذكاء شخص أو خلقه من النظر إلى بنية جسمه العامة.

وتلك هي الطريقة الطبيعية التي يلجأ إليها الطبيب، إذ يبحث عن الأعراض الجسمية، لا في أمراض الجسم فقط، بل في الأمراض العقلية أيضًا. ولو أنه في تلك الحالة سيبحث عن أشياء أخرى كثيرة غير الأعراض الجسمية المحضة.

ولقد ذهب بعض علماء النفس في الماضي إلى أنه من الممكن استنتاج خواص مزاج الأصحاء، على أساس الفكرة السالفة الذكر. فاستنتجوا على الخصوص وجود صنفين من الناس، نسميهما على سبيل التبسيط النحيف والسمين، على أن كلتا الحالتين ليست ناجمة عن قلة التغذية، في الحالة الأولى، وقلة الرياضة في الحالة الثانية، وإنما المفروض أن كلًّا منهما تنجم عن التركيب الكيميائي للجسم، أي طريقة اختزان الجسم للطاقة أو النشاط. أما من حيث المظهر الخارجي، فالأول نحيف القوام، متخاذل الحركة، عظامه طويلة وليست بالغليظة، ولحمه لا يكسوه إلا القليل من الشحم، ونسبة رأسه إلى جسمه أكبر من المعتاد،

ولا يتناسب حجم الجبهة مع الفكين، بل يفوقهما. بينما الصنف الثاني ممتلئ، سمين، بدين، هائل المنظر، ذو وجه مستدير عريض.

ويقابل هذين الصنفين نوعان من الأمزجة، قد تعددت أسماؤهما، ويصح أن نسميهما المتحفظ والمتفتح. وهناك أسماء أخرى يطلقها بعضهم كالمنطوي والمنبسط، والرزين والخيالي، والذاتي والموضوعي، والمكبوت وغير المكبوت. فالشخص الذي من الصنف الأول، حاذق حساس محب للوحدة، ميال للسكون، ولكن عقله مليء بالهواجس. أبرز صفة فيه أنه قلّما يكون بينه وبين غيره اتصال وجداني أو روحي. والشخص الذي من الصنف الثاني أبطأ في التفكير والعمل. ولكنه سريع في إظهار مشاعره، وسريع التحول فيها أيضًا، كما أنه عرضة لنوبات يفيض فيها شعوره، ويتجلى فيها تعبيره عما يتملكه من سرور أو حزن. وقد يظهر كأن له شخصيتين متعاقبتين. وفيما عدا ذلك فهو سهل الجانب، محبوب ميّال للاجتماع، حليم، طيّب، سمح الطبيعة، حسن المعاشرة.

وكثيرًا ما نصادف في كتب الأدب تلك المقابلة بين النحيف المتحفظ والسمين المنطلق، أو الصريح. فيقول شكسبير(١): «هؤلاء النحفاء ذوو النظرة الجائعة، كثيرو التفكير، وهم في الغالب مصدر أذى وخطر، على حين أن السمناء، الممتلئي الجسوم، ميالون إلى النوم ليلًا، بشوشون كثيرو الكلام نهارًا».

ولقد أصبح من الحقائق الثابتة اليوم أن الكثير من أنواع الجنون عبارة

---

(١) في رواية يوليوس قيصر، الفصل الأول المنظر، الثاني ص ١٩٢.

عن تطور شديد في المزاج الطبيعي العادي الموروث عند المريض. وهكذا نجد في مستشفى المجاذيب صنفين متباينين، ينتابهما نوعان من الأمراض العقلية، كثيرا الحدوث، أولهما يُسمَّى عادة «جنون التهيّج والانقباض»، والمريض به شديد التأثر، فإما أن يهيج وينزع إلى العدوان، وإما أن يستسلم لحزن عميق، فلا يقبل تعزية أو تنفيسًا. وقد تتناوبه الحالتان، والصنف الثاني يُسمَّى «ديمنشيا بريكسكس»[1]، وأعراضه، استسلام المريض في الظاهر، وعدم اكتراث لشيء مهما حاولت حمله عليه، بينما هو في داخلية نفسه مفعم بالهواجس والأشجان الغريبة. وهذان الصنفان ظاهران بين الأطفال. والمعلمون يُسمُّون النوع الأول هستيريين والثاني عصبيين. ويلاحظون على المصابين بالمرض الأول رغبتهم الدائمة في الظهور أمام الملأ، واجتذب الأنظار بسوء السلوك إن لم يستطيعوا بحسن السلوك. بينما المصابون بالمرض الثاني يقبعون في زاوية منفردة، بعيدين عن الأنظار، وتجدهم واجمين، منفردين، فريسة للحياء، ينفرون إذا ما حاول أحد الاقتراب منهم، كالمحارة المطبقة على نفسها. وهكذا يلوح أن المزاجين المتناقضين السالفين، المتفتح والمتحفظ، إذا ما تطوَّرا تطورًا بالغًا، وصلا بصاحبيهما إلى حالتين مرضيتين. ولكن إلى أي حد يصح أن نعتمد على المظاهر الخارجية أو الأعراض الجسمية في تشخيص كل منهما؟

للإجابة عن ذلك السؤال، أخذ بعض الباحثين في الأيام الحديثة، في زيارة المدارس والمستشفيات العقلية، وجعلوا يقيسون أجسام

(١) آثرنا أن نحتفظ باللفظة الأجنبية لأنها أصبحت اصطلاحًا ثابتًا.

الأطفال والمرضى وأعضاءهم من حيث الطول والحجم، كما قاسوا قدرتهم العقلية العامة، ليروا إن كانت هناك أي علاقة وطيدة بين الجسم والمزاج في كل صنف. فنتج من البحث وجود علاقة حقيقية، غير أن الأبحاث التي أُجريت حتى الآن، تقول بضآلة تلك العلاقة، حتى إنا لا نستطيع الاعتماد عليها وتطبيقها عمليًّا.

فمظهر الإنسان إِذَنْ يعطينا فكرة بسيطة، ولكنه لا يعطينا أكثر من ذلك. ولكن ما مبلغ دلالة الوجه؟ نعم إن المشتغلين بدراسة الوجوه يستنتجون الشيء الكثير من شكل تقاطيع الوجه، كالحاجب الغزير، والأنف الروماني، والذقن المربعة الغليظة. ولكن إلى أي حد يستطيع علماء النفس الاعتماد على هذا النوع من الملاحظة؟ من المحتمل أنهم يتأثرون به أثناء الفحص والتطبيق أكثر مما تبرره نظرياتهم. غير أن هنا نقطة يودون أن ينبهوا إليها، ذلك أنهم يعتبرون شكل الوجه جزءًا من التكوين الجسمي العام للشخص، وهو يتوقف لحد كبير على النمو الطبيعي للغضاريف والعظام، وهذا يتوقف لحد كبير بلا شك على الوراثة والجنس، ويتأثر لحد بسيط، بصحة الفرد الخاصة، وإفرازات الغدد. فإذا كانت هذه العوامل تؤثر في المزاج، كما هو المعتقد، فمن المحتمل إِذَنْ وجود علاقة بين المزاج وشكل الوجه وتقاطيعه. إلا أن تلك العلاقة غامضة وغير مباشرة، وفي أغلب الأحيان ضئيلة جدًّا، على حين نجد من ناحية أخرى أن أسارير الوجه أو تعبيره الذي هو نتيجة تقلّص العضلات قد يدلنا على الشيء الكثير. فإن تقاطيع وجهنا ثابتة لحد ما، بينما تعبيره يتغير من لحظة إلى لحظة، تبعًا لحالات الانتباه، أو

القوة، أو التعب، وتبعًا للمشاعر التي تستولي علينا في كل لحظة. وأهم من ذلك كله يجب أن نذكر أن كل انفعال بشري له مظهره الغريزي على الوجه، وهو الذي نستجيب له بشكل يكاد يكون غريزيًّا أيضًا. فالرضيع في مهده، يبتسم ويكشّر، وممثلة السينما تتصنع بوجهها مظاهر أعقد المشاعر، فتفهم أنت توًّا، وأنت جالس تراقب أسارير وجهها على الشاشة البيضاء، أي الآلام النفسية أو أي أنواع السرور يهيمن عليها. ثم إن الحالات الوجدانية الطارئة التي تغلب عند شخص ما، يحتمل تبعًا لقانون العادات أن تترك أثرها في تعبير أسارير وجهه، وذلك بتقلص العضلات الداخلية دائمًا، وبتعميق الخطوط والتجاعيد التي بالجلد. وهكذا نجد أن الشخص الشرس، السيئ الطبع، يبدو منظره في الغالب فظًّا عابسًا، كأن عينيه تتقدان غضبًا، بينما القَلِق الحزين ترتسم على محيّاه نظرة الهم.

غير أن الاختبارات الدقيقة تدل على أن تلك الأعراض أقل صدقًا في الحياة العلمية منها في التمثيل البارع الذي نشاهده في أفلام السينما. حقيقة أن تعبير الوجه أصدق في دلالته من بنية الوجه أو الجسم بوجه عام. إلا أن هناك كثيرين لا ينم وجههم عن شيء ما. وإني أستطيع أن أعرض عليك أيضًا لصًّا في ريعان الشباب، يخيّل إليك من نظراته أنه أطهر القديسين. وأستطيع كذلك أن أريك محسنًا، بلغ من شدة أمانته، ودقة ضميره أن يخيل للرائي الذي لا يعرفه أن نظرات ذلك الرجل العميقة، تنمّ عن خبث شديد، وأنه لم يترك جرمًا لم يقترفه.

ولقد أبان لنا المذياع علامة جديدة، ألا وهي اختلاف الصوت.

فالصوت كالوجه، يتأثر حين يعبّر عن الانفعالات، فقد يكون المتكلم محتجبًا عنك تمامًا، ولكنك تعرف من صوته أنه يعبّر عن غضب أو ذعر، ملل أو حيرة، انتصار أو يأس. ومن كثرة التكرار تتكون لهجة الشخص التي يعتادها، والتي تنطبع بطابع شخصيته وطبقته في المجتمع، فنستطيع أن نميز الصوت العسكري، وصوت المحامي، والكاتب والموظف وخريج جامعة أُكسفورد أو كلية أيتون. وإن التفرقة بين صوت الشخص الكسول، الذي يتميَّز بالبطء، والتهادي ومطّ العبارات، وصوت الشخص النشيط الوثّاب، لا يحتاج إلى مران خاص. وإن الإخصّائي في علم الأصوات ومخارج الحروف، ليستطيع أن يسجل بالرموز خصائص اللهجات المختلفة وصفاتها. وقد يخترع علماء النفس يومًا من الأيام وسيلة يستطيعون بها أن يسجّلوا ما بالكلام من وزن أو موسيقى.

ولقد أُجريت عدة أبحاث قيّمة، منذ بضع سنوات، في قاعة الإذاعة، فاختير أشخاص من مهن وحرف مختلفة، وطُلب إليهم أن يقرأوا صفحة أمام آلة المذياع (الميكروفون)، وطُلب من المستمعين أن يذكروا ما يستنتجونه من أصواتهم، وإلى أي حد أمكنهم أن يستنتجوا شيئًا عن عمر المتكلم، وخلقه وصناعته، وهل هو ذكر أم أنثى. فكانت النتيجة أن ٦٠٪ ممن أجابوا عن الأسئلة التي وجهت إليهم، أمكنهم أن يستنتجوا تمامًا مهنة جورج جروسميث، بينما مهنة ضابط الجيش لم يعرفها سوى ٢ ٪ فقط. ولكن إذا استثنينا هذه وما يماثلها من البحوث القليلة، نجد أن سيكولوجية الصوت لم تزل أمرًا غير مبحوث.

نرى إذَنْ أن علماء النفس قد بدأوا يبحثون تقريبًا كل العلامات أو الضوابط التي قد نميل للاعتماد عليها في حكمنا. وكانت نتيجة أبحاثهم وإحصاءاتهم أن قلّت ثقتهم في طريقة المحادثة الشخصية عما يظنه أغلب مَن يعتمدون على تلك الطريقة. فرجال الأعمال وأعضاء اللجان، والنساء اللاتي يفخرن بما لديهن من بصيرة ثاقبة، كل أولئك كثيرًا ما يعلنون الثقة في مقدرتهم على قراءة عقول الآخرين، وهي ثقة لا يشاطرهم فيها كثير من العلماء. نعم إن طريقة المحادثة الشخصية يمكن ضبطها وتحسينها عما هي عليه الآن، باتباع بعض القواعد السيكولوجية. ومع ذلك فلن نستطيع أن نأمن لها تمامًا، فالنتيجة التي نصل إليها إذَنْ هي أن شكل الجسم وتقاطيع الوجه، وتغيرات الصوت، وكل العلامات التي ذكرناها، قد تفيد في إرشادنا، ولكننا لا نستطيع الاعتماد عليها بصفة قاطعة. فأسلم طريقة لتقدير خلق شخص هي أن نتلمس عقليته الداخلية المستترة، بدلًا من العلامات الخارجية الظاهرة، وأن نستنتج الصفات العقلية من العلامات العقلية لا من العلامات الجسمية، وذلك هو الشعار الأساسي لعلماء النفس.

كيف السبيل إذَنْ إلى ذلك؟ يلجأ علماء النفس إلى طريقة علمية أحدث من السابقة، فبدلًا من الاعتماد على الملاحظة يقومون بتجربة، أو يجرون اختبارًا سيكولوجيًّا. هب مثلًا أنك توجهت إلى معمل من معامل علم النفس التطبيقي، وطلبت أن تعرف أي الحرف أوفق لعقليتك، أتنجح مثلًا في المحاماة أم تستطيع أن تصبح موسيقيًّا ماهرًا، أم الأفضل أن تمتهن الصحافة أو الهندسة أو التمثيل. لن تجد علماء

النفس إذ ذاك يضيعون وقتًا ما في دراسة تقاطيع وجهك أو بدنك، بل يعمدون إلى مجموعة من الاختبارات.

وليس الغرض من تلك الاختبارات أن تكون مجرد امتحان، ولكنها في الواقع تقيس مواهب الشخص وقدرته. وأشهر تلك الاختبارات مقاييس الذكاء، فبالإضافة إلى أنها أفيد الاختبارات من حيث القيمة العملية، نجدها أجدر بالثقة من كل ما عداها. والذكاء يعني به علماء النفس قوة فطرية عقلية عامة. فهي موروثة أو على الأقل فطرية لا تكتسب بالتعلّم أو المران، وهي عقلية لا وجدانية ولا خلقية، ولا يؤثر فيها الاجتهاد أو الحماس، وهي عامة لا خاصة أي أنها ليست محدودة بأي عمل من نوع معين بل تدخل في كل أعمالنا وأقوالنا وتفكيرنا. وهي أهم قوانا العقلية، ونستطيع لحسن الحظ أن نقيسها بدقة وبلا عناء.

والفكرة الأساسية فيها هي استعمال مجموعة من المسائل المتدرجة في الصعوبة تبعًا لأعمار مَن يستطيعون حلها، وبذلك يمكن قياس ذكاء الشخص المختبر وتقديره بالعمر العقلي. فمثلًا يستطيع الطفل الذي في الثالثة من عمره أن يكرر رقمين، والذي في الرابعة من عمره ثلاثة أرقام وهكذا حتى ستة أرقام، وهي مسألة أصعب مما تظن ولا يستطيع أن يعيدها إلا من بلغ الثامنة أو التاسعة. ولا يستطيع الطفل إعادة سبعة أرقام قبل الحادية عشرة. أما ثمانية أرقام فتذكّرها يُجهد الراشد الذكي.

وهناك اختبار آخر يتطلب من الطفل أن يذكر الأرقام عكسًا، وهو أصعب من السابق. ثم هناك اختبارات أخرى تتطلب من الطفل سرعة التفكير النقدي، كأن تقرأ عبارة غير مفهومة أو غير منطقية وتطلب من

المختبِر بيان موضع التناقض فيها، مثل «شكا شيخ هرم من أنه صار لا يقوى على متابعة نزهته بالمشي حول الحديقة كلها، ولا يستطيع إلا أن يقطع نصف المسافة حولها ثم يعود ثانية». وأيضًا «رأى شخص إعلانًا على حانوت يقول: اشتروا واحدًا من مدافئنا المسجلة، توفروا بذلك نصف ما تستعملونه من الفحم. فاشتر مدفأتين ليوفر كل ما يستهلكه من الفحم». ومثل تلك الأسئلة يستطيع الإجابة عنها المتوسطون من الأطفال الذين في سن الحادية عشرة.

وخير الاختبارات هي اختبارات التعليل التركيبي. وهي لا تُقرأ على الطفل، بل يُعطى بطاقة، بها مسألة مطبوعة يترك ليدرسها بنفسه. وأبسط هذه المسائل يحلها طفل في السادسة أو السابعة، ومن أمثلتها: «محمد أسرع من علي في الجري، وأحمد أبطأ من علي، فأي الثلاثة أسرع جريًا، محمد أم أحمد أم علي؟ وهذه يستطيع حلها متوسطو سن السابعة. وهناك مثال آخر «إذا تأخر القطار فلن يصل هذا الشخص في ميعاده، وإذا لم يتأخر القطار فلن يستطيع اللحاق به ولكننا لا نعرف إن كان القطار قد تأخر أم لا، فهل نستطيع أن نعرف إن كان قد حافظ على ميعاده أم لا؟». ومعظم الأطفال الذين في الثانية عشرة يستطيعون بعد تفكير قليل أن يصلوا إلى حل تلك المسألة. والمثال الآتي يناسب الأفراد الذين يسميهم الأمريكيون «الراشدين المتفوقين»، وهو: «محمد أرسلته أمه في طلب سبعة لترات من الماء، وأعطته إبريقًا يسع ثلاثة لترات، وآخر يسع خمسة لترات، فكيف يستطيع محمد أن يكيل سبعة لترات بالضبط من غير أن يستعمل شيئًا آخر غير هذين الإبريقين؟».

قد تقول في نفسك ما أشبه ذلك بالامتحان المدرسي، ولكنْ هناك فرقٌ بينهما، فإن علماء النفس قد أخذوا طريقة المعلم الاعتباطية، وحاولوا أن يجعلوها أقرب إلى الدقة العلمية، وذلك من ناحيتين، الأولى تقنين الطريقة، والثانية تقنين النتائج.

فالطريقة التي تتبع في إعطاء الاختبار توضع خطتها بغاية الإحكام قبل البدء، فلا يترك لكل مختبر حرية وضع الأسئلة في غير ما تؤدة، أو حسبما يمليه عليه مزاجه الخاص، بل يبدأ علماء النفس بجمع عدد كبير من المسائل، وقبل استعمالها للامتحان يجربونها على مجموعة من الأطفال لاستبعاد المسائل غير الصالحة ولتحسين ما يتبقى من حيث الموضوع والعبارة. ثم تقارن نتائج كل اختبار قصير بتقدير من يصح الاعتماد عليه في الحكم من المعلمين والذين يعرفون كل طفل معرفة تامة، ولا تُستبقى إلا الاختبارات التي تتفق وتلك التقديرات. وبهذه الطريقة يجرب علماء النفس اختباراتهم أولًا، ثم يأخذونها بعد انتقائها وتحسينها ويطبقونها على عدد أكبر من البنين والبنات في كل سنة من سني المدرسة، ومن ذلك يستنتجون الإجابات المناسبة لكل سن، ويعرفون حدود من هم «دون المتوسط» ومن هم «فوق المتوسط» كلا على حدة، ثم يتبينون أيضًا الفروق بين الجنسين إذا كان ثمة فروق.

وقد استُعملت أمثال تلك الاختبارات بكثرة في الولايات المتحدة أثناء الحرب الماضية. فلم يكد يحشد الجيش الأمريكي حتى رأت وزارة الحربية أن تنتقي في أقصر وقت ممكن مَن يصلحون للتدريب ليصيروا ضباطًا، وأرادت من جهة أخرى أن تعرف مَن لا يؤتمنون

على السلاح لغباوتهم، فطُلب إلى علماء النفس اختبار كل مجند، حتى لم تكد الحرب تضع أوزارها حتى كان مجموع مَن اختبروا يزيد على المليونين. أما في انجلترا فإن لجنة موظفي الحكومة وغيرها من الهيئات كثيرًا ما استخدمت مقاييس الذكاء. كما يستعملها الآن كل طبيب في المدارس لتمييز ضعاف العقول. وكثيرًا ما استخدمها ولاة الأمر في التعليم لانتقاء الأكفاء للمجانية بالمدارس الثانوية.

وإذا جُلْتَ جولة في معمل علم النفس، وجدت أجهزة عجيبة، لقياس القدرات العقلية الخاصة، كالإبصار، والسمع، والمهارة اليدوية، والانتباه، والذاكرة، والخيال وما شابه ذلك. بل هناك من الاختبارات التي تقيس التقلبات الوجدانية ما يحوز إعجابك. تعال معي إلى تلك الغرفة المظلمة، واجلس في ذلك الكرسي الواسع المريح، وضع يديك على هاتين الشريحتين المرطبتين. إنهما طرفا دائرة كهربائية تصلان بينك وبين بطارية وجلفانومتر، ولو أن المفروض أنك لا تعلم عنهما شيئًا. لن أُشعرك بهزة عنيفة، وإنما سأبعث في جسمك تيارًا بسيطًا لا تشعر به أنت حين يقيس الجلفانومتر وقته وكيفية تغيره. أما تلك النقطة من الضوء التي تروح وتغدو على ذلك المقياس المدرج فتدلنا على مقدار التيار المنبعث. والآن نحن على أهبة البدء بالتجربة. انظر، أرأيت نقطة الضوء تجمح حتى جاوزت المقياس، وما دفعها إلا اضطرابك، فعندما قلت لك: «نحن على أهبة البدء»، أحدث ذلك عندك شيئًا من التوتر والقلق، والآن وقد أخذت تهدأ تعود النقطة ثانية.

فذاك إذن استكشاف عجيب! إذ يظهر أن كل موجة وجدانية

تسمح لكمية أكثر من التيار بالمرور في الجسم، وكلما زاد الوجدان ابتعد الجلفانومتر. فالآن وأنت جالس في كرسيك قد أُحدثك عن أمور كثيرة مثيرة متنوعة، لأعلم مقدار تأثير كل منها فيك، ولكن اختصارًا للوقت، قد أذكر بضع كلمات كهذه: طفل، زواج، وفاة، معيار الذهب، فتاة جميلة، البطالة، ضريبة الدخل، إميلي جونز (أو اسم خطيبتك) وهكذا نعم من المحتمل ألا يبدي وجهك أثرًا ما، ولكن كلما صادفت موضوعًا يثير انفعالاتك أخذت نقطة الضوء ترقص هنا وهناك ثانية دالة على زيادة في التيار الكهربائي الذي يمر بك.

ولا يكاد يصدق تلك التجربة من لم يرَها، ولكنَّ إجراءها سهل، فيستطيع تجربتها كل مَن يتوفر لديه جلفانومتر، وما عليه إلا أن يهيئ الجهاز ويرى عمله بنفسه. ولقد أخذ البعض يعقدون الأمل على ذلك الجهاز لكشف المجرمين الذين ارتكبوا آثامًا، أو لسبر غور الآلام التي تنتاب المرضى بأمراض عصبية. إلا أن هناك عائقًا جوهريًّا يمنع استعماله في الأحوال العملية، إذ لم يهتدِ أحد بعد، بصفة يقينية، إلى السبب المباشر في ذلك التغير الكهربائي. فيظن البعض أنه راجع إلى ابتلال اليدين بعرق لا يُلحظ، ويذهب آخرون مذاهب أخرى لم تمحَّصْ بعد.

تلك إذَنْ هي الطرق التي يلجأ إليها علماء النفس لدراسة عقول الآخرين، فهم يلاحظونهم، لا بل يجرون عليهم التجارب فعلًا، وذلك أهم. وإن هذا الاتجاه التجريبي لصاحب الفضل، قبل كل ما عداه، في جعل علم النفس علمًا من العلوم المعتمدة، فلقد كان استخدام

الاختبارات النفسية مقصورًا منذ عشرين سنة على فئة من المبتكرين المتحمسين العاكفين في معاملهم، المهتمين بالتربية أو الطب أو الإدارة الصناعية أو ميادين الخدمة الاجتماعية المختلفة. نعم لا يدّعي أحد أن تلك الاختبارات قد بلغت غاية الكمال، غير أننا نرى كل عام باحثًا جديدًا يُحسِّن من أساليبها ويزيدنا فهمًا لها، أما ما لم يزل منها مشكوكًا فيه، أو مجهولًا، فهو على كثرته لا علاج له سوى الاستمرار في الأبحاث.

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني

دراسة الشخص لعقله

إلى هنا كنا ندرس العقل من الخارج، بأن نحكم على ما في عقول الناس بالنظر إلى جسومهم وبمراقبة وجوههم وإعطائهم الاختبارات في المعمل. ولكن كيف نتوصل إلى المعنى الخفي لكل تلك المظاهر الخارجية؟ ليس من المستطاع أن أتسلل خلسة إلى داخل جمجمة رجل آخر لأراقب خفيّ مشاعره مباشرة ومن غير واسطة، فلا يستطيع ذلك سوى الشخص نفسه، وأول قاعدة نقولها للمبتدئ هي: «أيها الباحث في علم النفس، اعرف نفسك». فعليه أن يبدأ بدراسة داخلية نفسه كمثال، وأن يحكم على الآخرين منها.

فبدلًا من تحليل أخلاق غيرنا هنا، سنعمد إِذَنْ إلى تحليل أنفسنا. وإن هذا النوع من الملاحظة مقصور على علم النفس دون غيره، وله اسم اصطلاحي هو «التأمل الباطني»، ومعناه توجيه ملاحظة الإنسان إلى داخلية نفسه. وهذه الطريقة من طرق البحث لا يمكن أن تُستخدم

في أي علم آخر. فالكيميائي عندما يصب حامض الزاج[1] على برادة الزنك، ويسخن القنينة على مصباح بنزن، لا يخطر بباله أن يسأل كلًّا من الحامض والفلز عن مقدار سرورهما بالتجربة، أو عن شعورهما حين يتحولان إلى فقاعات من غاز متصاعد. أما الشعور لا تمكن دراسته بغير تلك الطريقة. ولا يمكن للإنسان أن يكوّن بنفسه فكرة عن كيفية عمل العقل ما يتدرب على تحليل نفسه.

حقيقة أن الإفراط في تحليل الإنسان لنفسه قد يودي بصحته، ويجعله شاحب الوجه من كثرة التأمل، غير أن القليل من نقد الإنسان لنفسه، كما عرف كتاب المسيحية القدماء حق المعرفة، قد يفيد الإنسان ويرقي خلقه بدلًا من أن يعوقه. وليس من شك في ضرورة اهتمامك وفهمك لدوافعك وأفكارك الخاصة إذا ما أردت أن تفهم ما لدى غيرك منها. فلا غنى لكل مشتغل بعلم النفس عن أن يضع نفسه موضع الغير كأنه يفكر بعقولهم، ولذا كان لزامًا عليه أن يعرف عقله هو قبل كل شيء.

ولم لا تجرب ذلك الآن؟ اترك هذا الكتاب جانبًا مدة خمس دقائق وسل نفسك عما في شعورك في هذه اللحظة الحالية، ودعني أدخل معك إلى أعمق خفايا مخك، فلن يصعب علينا بعد تجوال بسيط أن نضع قائمة بأهم ما به من أثاث وأدوات، وأن نقسمها إلى بضعة أقسام بسيطة وهي:

الإحساسات -قد تكون الألوان والأشكال أظهر ما في عقلنا وشعورنا، كالصفحة الناصعة البياض التي بيدك، والأسطر المكونة من

(١) أملاح الكبريتيك، وهو فارسي معرب، صاغ هذا الاسم جابر بن حيان في القرن الثامن. (المحرر).

الحروف الصغيرة السوداء المطبوعة، والسجادة التي تحت قدميك، والورق المزخرف الذي على الجدران. كل هذه أشياء أنت تدركها من طريق عينيك، على حين تحمل إليك أذناك في نفس الوقت أصواتًا وضجيجًا، كالغناء الذي ينبعث من مكبر الصوت أو ضوضاء المارة في الطريق، وكذلك قد يؤدي إليك لسانك وأنفك رائحة سيجارتك التي قاربت النصف وطعمها، على حين تتراءى خلف كل هذا كما يتراءى المنظر الخلفي لصورة ما، كتلة من المشاعر الغامضة الصادرة من البشرة والأعضاء الداخلية، كحرارة النار وضغط الكرسي، والشعور بالامتلاء بعد أكلة حديثة العهد، فالمرئيات والمسموعات والروائح والمذوقات والملموسات، كلها يطلق عليها اسم الإحساسات، وكل إحساس يمكن أن يعرف ويُسمَّى تبعًا للحاسة التي يصدر عنها.

ولقد أجرى علماء النفس عددًا كبيرًا من التجارب الطريفة على الإحساسات، ووفقوا إلى بعض كشوف لم تكن على بال، فعلموا مثلًا أن كلًّا منا لديه حاسة سادسة غير الحواس الخمس التي نذكرها عادة، وهي حاسة الموضع والحركة، إذ وُجدت فعلًا بواسطة الميكروسكوب أعضاء حس دقيقة مطمورة في العضلات والمفاصل، وهذا هو السبب في أنك تعرف موضع رجليك وذراعيك عندما تستيقظ في الصباح.

وهناك حاسة سابعة، في داخل الجمجمة على مقربة من كلتا الأذنين، وظيفتها الحس بالاتزان أو الدوخان. خذ حاسة البصر مثلًا، فقد دلت التجارب على أن العين البشرية تستطيع أن تميز حوالي خمسة وثلاثين لونًا، ومع ذلك فكل تلك الألوان تحدث بمزج ثلاثة ألوان أصلية

بنسب مختلفة. ألا وهي الأحمر والأخضر والأزرق. وهنا سر التصوير الفوتوغرافي الملون وفن الأقلام الملونة. وقد يفقد واحد أو أكثر من تلك الألوان الأصلية عند بعض الأشخاص. فجون دولتون الكيميائي المعروف، والذي توصل إلى قانون الذرة، كان يومًا يسير في فناء الدار حاملًا على ذراعه عباءته القرمزية اللون، فسقطت على الحشيش، وما كان أشد دهشته عندما وجد أنه لا يستطيع رؤيتها ثم ظهر بعدئذ أن جون دولتون كان مصابًا بالعمى اللوني، أي أنه لا يستطيع تمييز اللونين المتقابلين الأحمر والأخضر، ومنذ ذلك الوقت اتضح لعلماء النفس أن في كل ثلاثين رجلًا تقريبًا واحدًا مصابًا بالعمى اللوني الجزئي. غير أن ذلك العمى اللوني يندر أن يُوجد لدى النساء. ولقد وضعت في المعمل اختبارات يستعملها الآن المجلس التجاري (البريطاني)، فما من سائق قطار، أو ضابط في البحرية، إلا وأُعطى تلك الاختبارات، إذ إن خطأ أحدهما في تمييز الإشارات الخضراء من الحمراء يؤدي بلا جدال إلى الهلاك.

وينظر الشخص العادي إلى إحساساته كأنها جزء من العالم الخارجي، فعندما يرى كتلة بيضاء من الثلج، أو عندما يرفعها بيده، يخيل إليه أن برودتها وثقلها كائنان في داخلها وأن البياض موجود على سطحها، ولا يقول لنفسه: «إني أرى إحساسًا أبيض» أو «أشعر بإحساسات برودة وثقل»، ولكنه طبعًا حين يشعر بالألم من تجمد الجليد على أصابعه يميل طبعًا إلى اعتبار الشعور بالبرودة من إحساساته الذاتية الخاصة به، فلا يعتبر الألم كائنًا في كتلة الثلج، بل في داخلية نفسه. وسوف تدل التجارب على أن كل إحساساتنا الأخرى (كالألم مثلًا)

تتوقف في الحقيقة على أعضاء حِسِّنا وعلى مخنا، أكثر من توقفها على الأشياء التي نرجعها إليها.

وهناك بعض تجارب بسيطة لإيضاح تلك النقطة، يستطيع إجراءها أي شخص بنفسه:

١- ضع يدك هنيهة في ماء حار جدًّا. بأيهما تحس أولًا، بالدفء أم بالألم؟ أتشعر بأن الدفء في الماء أم في يدك؟ وأين موضع شعورك بالألم؟

٢- والآن ضع يدك اليمنى في ماء حار نوعًا ما واليسرى في ماء بارد. وبعد دقيقة تقريبًا ضع كلتا اليدين في إناء ثالث به ماء فاتر في درجة حرارة اليد، تجد أن إحدى اليدين تحس الماء دافئًا وفي الوقت ذاته تصر الأخرى على أن هذا الماء نفسه بارد. ومن هذا ترى أن شعورك يتوقف على حالة أعضاء الحس عندك أكثر مما يتوقف على الأشياء التي تحسها فعلًا.

٣- أغمضْ عينيك واثنِ أصبعك الثانية على أصبعك الأولى، وضع حافة قرش أو طرف قلم رصاص بينهما بحيث تلمس كلًّا منهما في نفس الوقت. فبكم نقطة تشعر؟

٤- ضع أصبعك الأولى قائمة أمام أنفك وانظر إلى أكرة الباب البعيدة، فكم أصبعًا ترى؟ ولماذا؟

٥- أغمضْ عينيك ودرْ على قدميك ثلاث مرات ثم قف ساكنًا مع فتح عينيك بسرعة. أفلا تشعر أن الدنيا أخذت تدور أيضًا، وإذا كان

كذلك ففي أي اتجاه؟ أعد التجربة مع انحناء الرأس حتى تستند على الصدر هذه المرة، ولف ثلاث مرات، ثم قف ساكنًا مع رفع رأسك وفتح عينيك، تلاحظ أن الغرفة تبدو كأنها تدور في اتجاه مخالف، رأسية فوق رأسك لا أفقية أمام وجهك. جرب مرة ثالثة مع انحناء رأسك هذه المرة على زاوية قائمة، حتى يلمس كتفك رأسك خلف الأذن، فتلاحظ في كل مرة أن صوت الدوي الذي تسمعه بعد إيقاف التجربة يتوقف على وضع الرأس، وبعبارة أخرى على وضع أعضاء الحس بالتوازن الدقيقة الموجودة في داخل الأذن.

٦- اطلب من صديق لك أن يجلس منخفض العينين، واقرع قرشًا بآخر حول رأسه، واطلب منه أن يشير بأصبعه بالضبط إلى المكان الذي حدث فيه الصوت، تجد أنه حين يكون الصوت في أحد الجانبين من الرأس تمامًا يستطيع الإشارة إلى موقعه بدقة كبيرة، ولكن عندما يكون الصوت في النصف، وعلى الأخص إذا ما كان دون الذقن أو خلف الرأس قرب القفا لا يستطيع تبيان موضعه بدقة ما. فواضح أن سمعنا يحكم على الاتجاه بحسب الارتفاع النسبي للأصوات حين تطرق الأذنين.

ثانيًا -صور عقلية- عندما نشرع في تحليل شعورنا نجد أن أهم ما به، أو يخيل إلينا أن أهم ما به، مجموعات أو كتل من الإحساسات، فهل هناك غيرها؟ عما قريب ستأوي إلى فراشك، وستنقطع انقطاعًا يكاد يكون تامًّا، تلك المثيرات الخارجية التي جعلت حواسك متيقظة، وسوف تطفئ النور، وتغلق النافذة، لتمنع الضوضاء، وتستلقي على

فراش وثير مريح، فلا مرئيات ولا أصوات ولا روائح ولا مذوقات ولا ملموسات، إلا ما ندر منها، فكل إحساساتك تقريبًا قد هدأت. فهل يتلاشى عقلك كذلك إلى فضاء لا حس فيه؟ كلا، فإنك إن لم تحتفظ بأي شعور على الإطلاق، استلقيت في غيبوبة أو سنة من النوم، ولكنك أثناء نصف الساعة الأولى حين تستلقي بين اليقظة والنوم، تتمثل في مخك رواية واضحة كل الوضوح. فعيناك قد تغمضان ولكنك، مثل هاملت، ترى أشباحًا بعين عقلك، فطرقة على الباب تستحضر إلى ذهنك صورة ساعي البريد، والخطاب الذي كنت تقرؤه منذ قليل، قد يؤدي إلى استحضار صوت صديقك، وإذا تتحسس طريقك في الغرفة المظلمة، ترى صورة فوتوغرافية عقلية غير واضحة لما يعترضك من الأشياء الصلبة، كالمنضدة وعاء الفحم وعلبة الثقاب على رف الموقد. وإنك لتستطيع في الواقع بجهد بسيط أن تستعيد إلى الذاكرة صورة ضئيلة ذابلة غير واضحة لأي إحساس تريده تقريبًا.

تلك الصورة الداخلية، التي تشبه الصدى العقلي، ليست بعيدة الشبه بالإحساسات، ولكنها مع ذلك أقل وضوحًا وأبعد منها عن الحقيقة، فهي مقصورة على صاحبها إلى حد عجيب، وأقل كمالًا من الإحساسات الأصلية ذاتها، فهي إلى الأشباح التي تلوح وتضوي أقرب منها إلى الأشياء الواقعية، التي تمر أمام عيني عقلك، وهذه الأشباح التي تنبعث من الإحساسات الماضية تعرف باسم الصور العقلية، وهي تُستثار داخل المخ، على حين تُستثار الإحساسات الحقيقية من الخارج. ويمكننا أن نستحضر صورًا عقلية مقابلة لكل عضو من أعضاء الحس،

كالصور العقلية والأصوات العقلية والهواجس وذكريات اللمس والذوق والشم، وهكذا حتى في غياب المؤثرات الخارجية، قد تأخذ أفكارنا شكلًا ماديًّا مشابهًا للإحساسات.

والآن أي زي تلبسه أفكارك؟ دعنا نُجْرِ تجربة أخرى لنتبين ذلك. استدع أمام عقلك حادثة خيالية أو حادثة مضت كموقعة السوم مثلًا. أيبدو لك المنظر كشريط متحرك أي سلسلة من المناظر المتتابعة؟ أتستطيع أن تسمع بأذن عقلك طلقات المدافع والصيحات؟ أتحس كأن رصاصة خيالية تنفذ في جسمك، وكأن الدم يقطر منك دافئًا؟ أم أنك تستعرض القصة ممثلة في ألفاظك؟ وإذا كان كذلك، فهل تسمع الكلمات بعقلك أم تتمتمها لنفسك من غير صوت، أم تراها كالعناوين المطبوعة بالأسود والأبيض؟

«لقد أظهرت أمثال تلك البحوث، لعلماء النفس، حقيقة لم تكن لتخطر بالبال، فإن الناس يختلفون اختلافًا شديدًا، من حيث سهولة استدعائهم لمثل تلك الصور العقلية، حتى لقد اخترعت اختبارات لقياس تلك القدرات الخاصة. ورأى بعضهم في وقت ما أنه يمكن تقسيم الناس إلى أنواع معينة كما يأتي:

١ - الأشخاص المفكرون بالأشياء (النوع الحسي) وهم إما:

(أ) بصريون وإما (ب) سمعيون وإما (جـ) حركيون.

٢ - المفكرون بالألفاظ وهم إما:

(أ) بصريون وإما (ب) سمعيون وإما (جـ) حركيون.

ومن هؤلاء (١) الكلاميون، (٢) والصوريون.

ويفكر أغلب الناس في الحقيقة بالمحسات، فتخيل الأشياء أسهل من وضعها في ألفاظ. ومن هؤلاء أربعة من كل خمسة أشخاص يرون بعقولهم ويُسمون «بصريين» وتغلب الصبغة الواقعية على تفكير الأطفال غير المتعلمين، فأفكارهم صور متخيلة وذكرياتهم وأوهامهم وخططهم للمستقبل تأتي إليهم على شكل مرئيات. وهناك فريق آخر يسمعون بعقولهم ويُسمون «سمعيين» في الاصطلاح. فهم عند تذكرهم لرواية موسيقية هزلية، يسمعون صدى الأصوات يتردد في عقولهم، ولكنهم لا يرون شيئًا من المناظر. وإن عقلك قد يكون كالسينما الصامتة، ولكن عقلي أشبه بمناظرة في المذياع، يتناقش فيها ضميري وأصدقائي ونفسي معًا في ضوء الشفق. وآخرون لا يسمعون ولا يرون تلك الإحساسات الخيالية، ولكنهم أسرع منا في إحساسهم بلمسات خيالية على بشرتهم، وهؤلاء هم «اللمسيون» فلا تكاد تبدأ حديثًا مع أحدهم عن البراغيث أو العناكب حتى يبدأ المسكين في هرش رقبته. وهناك غير هؤلاء، من يُسمون «الحركيين» وأغلب تفكيرهم يصطبغ بصبغة الجهد والحركة، فلا يستطيع الواحد منهم أن يطل من فوق قنطرة على ترعة دون أن يحس بجسمه يهوي في الفضاء، وبأصابعه تتعلق بالهواء.

غير أن الكثيرين لا توجد لديهم تلك الصور العقلية الحسية، سواء أكانت بصرية أم صوتية أم حركية، فتفكيرهم بالألفاظ أكثر من الأشياء. وعندما يريدون استذكار واقعة مضت أو وضع خطة لشؤون يومهم، يستعرضون التفاصيل لفظيًّا في شبه كلام داخلي، ويشبه تفكيرهم

المناجاة الصامتة. ومن هذا النوع الأشخاص الذين أمضوا حياتهم بين الكتب كالمعلمين والفلاسفة المغرمين بكثرة القراءة والذين تأصلت فيهم عادة المطالعة، فهم قد فقدوا القدرة على تأمل الأشياء بصورة حسية واضحة مفصلة، وأصبحوا لا يستطيعون التفكير فيها إلا بأسمائها، وتشبه حياتهم الداخلية حديثًا جاريًا لا تخفف من جريانه أي صورة حية، وهؤلاء أيضًا كالقسم السابق، فيهم البصريون، والسمعيون، والحركيون، حسبما تأتي إليهم الكلمات، سواء أكانت عن طريق البصر أم السمع أم الشعور بها تتردد في حناجرهم.

حاول أن تتبين إلى أي هذه الفئات أنت تنتمي. وإن من السهل أن تتبين الصور العقلية، وكذا الكلام الباطني، ولكن ليس من السهل أن تعرف إن كان كلامك يأخذ شكل كلمات تتلفظها في عقلك أم كلمات تسمعها بأذنك العقلية، أم غير هذا وذاك، وإنما كلمات تراها مكتوبة أو مطبوعة.

دعنا نُجْرِ اختبارًا مرة ثانية. فكر في بضع كلمات مثل بابل وتودل وبوتي، ثم افتح فمك وفكر فيها ثانية. قد يتبين لك أن أغلب الناس في مثل هذه الحالة يعجزون عن استبقاء السواكن، فهؤلاء هم الحركيون في أغلب الظن، ولكنَّ آخرين لا يتأثرون مطلقًا بفتح شفاههم، بل يظلون يسمعون الكلمات بنفس الوضوح، يتردد صداها في آذان عقولهم. وأنا نفسي سمعي عقلي من غير ما شك، فأستطيع أن أنعم بحفلة موسيقية (خيالية) وأنا جالس تجاه الموقد في منزلي ولا يكلفني هذا سوى النظر إلى كراسة الموسيقى، وإذا حاولت قراءة كتاب أستاذي السابق الذي

كان عسر النطق أخذت عشر دقائق في قراءة كل صفحة إذ أسمع صوته يتهته عند كل تاء وباء. وبعض الناس بدلًا من أن يلفظوا الكلمات بشفاههم، يجدون أنفسهم يكتبونها بقلم على الورق، أو بطباشير على سبورة. ويقال إن هؤلاء ينتمون إلى نوع الصوريين أكثر من الكلاميين. وكثيرون ينزعون إلى رؤية الكلمات بدلًا من سماعها أو التلفظ بها. وإني أعرف أستاذًا يكتب مذكرات محاضراته على ظهر ظرف طويل، يضيع منه في العادة، ولكنه لا يلبث أن ينظر إلى سقف المكان حتى يرى كل النقط الرئيسة منقوشة بالترتيب على الدهان الأبيض.

وإنك لتستطيع في كثير من الأحيان أن تتبين أي نوع ينتمي إليه الشخص من كلامه. فهل لاحظت مثلًا أن بعض المتكلمين يكون حديثهم كله معنويًّا محضًا، على حين يستعمل آخرون الاستعارات والتشبيهات، ويصورون منظرًا واضحًا بكل عبارة ويتفوهون بها. هاك جملة من مقال كتبه طالب:

«إن جرثومة أدب جديد قد لاح فجرها في هذا العرق الجديد من الشعر». ولكنك إذا حاولت أن تتصور ميكروبًا يلوح كضوء في أحد الأوعية الدموية، اتضح لك أن من المحال أن يكون ذلك الكاتب قد تصور المنظر الذي تفيده تلك الكلمات التي نظمتها أذنه من غير تمعن.

وأحيانًا تأتي صورنا العقلية بحيل غريبة، فهي في العادة تساعد تفكيرنا، ولكنها في بعض الأحايين تضله. فمن خصائصها العجيبة أن يرى بعض الأشخاص ألوانًا في أشياء لا يرى فيها أغلبنا ألوانًا ما. كصوت بعض الآلات المختلفة مثلًا، أو حروف الهجاء أو أيام الأسبوع

أو أشهر السنة. ولقد وجدت من الإجابات التي تلقيتها من بحوثي في الإذاعة أن تلك الصفة توجد في شخص واحد في كل خمسة عشر شخصًا، وهي أكثر في النساء منها في الرجال. وتدل الإجابات على وجود أوجه تشابه لم تكن متوقعة. فالنصف يصفون حرف (A) كأنه أحمر وحرف (O) كأنه أبيض، ويومي الخميس والجمعة كأن لونهما أسمر، على حين يوصف الأحد بأنه أبيض أو فضي أو ذهبي.

وتقول إحدى المستمعات للإذاعة إن ولدًا يصف أصوات الحيوانات كأنها ملونة، فيقول:

«ذلك الكلب ذو نباح أصفر، أما كلبنا فنباحه أسمر، أليس كذلك؟». والتفسير الذي يعطى في كثير من الأحيان ذو دلالة واضحة. فيوم الاثنين[١] يوم كد أسود، والعلة في هذا كما يقول أحدهم: إن العودة إلى عمل الأسبوع تظلم المستقبل. ويقول آخر إنه أزرق لأنه يوم الغسيل[٢]، ويوم الغسيل يجعل النفس زرقاء كئيبة. ويوم الجمعة أخضر لأنه يوم مشؤوم واللون الأخضر شؤم[٣]، والسبت يوم أحمر وهو من أهم الأيام لأنه ولد وتزوج في يومي سبت.

ويتصور كثيرون أيام الأسبوع أو الأرقام من صفر إلى ١٠٠٠ مرتبة بنظام يتخيلونه، فيرون بعين عقولهم أيام الأسبوع مرصوصة في صفوف بيضاء أو سوداء كأصابع البيانو. أو يتصورون مرأى الأرقام في هيئة

(١) أول الأسبوع عند الإفرنج.

(٢) يوم الاثنين هو يوم غسيل الملابس في معظم أنحاء إنجلترا.

(٣) في عرف الإنجليز.

دائرة أو خط متعرج أو حلزون طويلة لا تنتهي. بل إن بعضهم يصرحون أن تلك الأشكال العقلية تساعدهم في حسابهم أو في توقيت الحوادث التاريخية.

ولكن دعنا نعود إلى مسألة إحصاء ما في عقلك. هناك حقيقة غريبة لا بد من أن تسترعي انتباهك أثناء ملاحظتك لحركاته. ففي وسط كل تلك الفوضى من الإحساسات والصور العقلية واحد فقط أو مجموعة صغيرة واحدة فقط تستطيع أن تشغل المركز، وما عداها يبقى في مكان ثانوي غامضًا غير ملحوظ. فشعورك يشبه مصباح اللص الذي يرقص نوره هنا وهناك في غرفة النوم المظلمة، ويتركز على الأشياء المختلفة واحدًا بعد الآخر، كالوسادة، ثم مقبض الباب وثقب المفتاح، ثم صندوق الحلي بجانب المرآة، فهو يضيء نقطة معينة ويجعلها تسطع، على حين يظل ما حولها في الظلام لا يكاد يرى. فالعقل في الحقيقة لا ينتبه إلا لشيء واحد فقط في وقت واحد. ولذا تضطر أفكارنا وصورنا العقلية أن تتبع بعضها بعضًا متسلسلة شيئًا بعد شيء في صف واحد. ولذا تأتينا الأفكار في تتابع مستمر أو على شكل سلاسل متصلة، وفي العادة تبدأ كل سلسلة بإحساس واحد فعلي، ثم بعد فترة من الصور العقلية المستذكرة والتي تمر تباعًا، تنزع لأن تصور حركة فعلية. فالطرق على الباب مثلًا يستثير فكرة ساعي البريد، فتراه بقبعته وبذلته الرسمية الزرقاء، وساعي البريد يستثير فكرة فاتورة الحساب، والفاتورة تستثير فكرة الدَّين الذي عليك لفلان، والذي تنسى دفعه دائمًا، والدَّين المستحق يستدعي فكرة السجن، فتحس حينئذ بيد الشرطي على

كتفيك، ويمر أمام عينيك الواحد بعد الآخر وفي سرعة خاطفة، قفص المتهمين والقاضي وحجرة الحبس الضيقة، والمشنقة وحبل الشنق، فتكون النتيجة أن تخطف القلم وتبعث بالشيك إلى فلان.

ولا يهمنا الفعل النهائي على كل حال، بل تهمنا الخطوات التي تؤدي إليه. فراقب العملية، ترَ كيف أن كل فكرة تظل تجذب الفكرة التي تليها إلى الأمام كعربات سكة الحديد على القضيب. وهذا يثير سؤالين: أولهما: ما القوة التي تجذب الأفكار إلى الأمام؟ والثاني: ما الذي يصل الأفكار بعضها ببعض حتى تكون سلاسل أو قطرًا؟

٣- الروابط والعلاقات- لنأخذ السؤال الثاني أولًا. فالحلقات التي تصل أفكارنا ببعضها تُسمَّى عادة بالروابط. وذلك الاسم اخترعه فيلسوف يوناني كان أول مَن لفت النظر إلى «تداعي المعاني». غير أن تلك العبارة في حد ذاتها لا تفيدنا شيئًا، والأصح أن نعتبرها لا كالحلقات التي بين عربات القطار، بل كقضبان السكة الحديدية التي تقود مجرى الشعور، أو كالدروب المطروقة في المخ فيسير فيها التفكير، وهو أقرب شبهًا بالقطار السريع الذي يمر بالمحطات فيهمل بعضها ويقف عند البعض الآخر.

فالمسالك المخية أو «الروابط» وهما شيء واحد تقريبًا، تسيطر على الأعمال التي اعتدناها فتصبح أحيانًا سريعة آلية معادلة في ذلك للأفعال المنعكسة الموروثة كالرمش بالعين مثلًا.

وللتمثيل نقول: أنت الآن شخص راشد، تستطيع أن تلبس ملابسك وأن تخلعها من غير أن تعير تلك العملية طرفًا من التفكير،

ولكني على استعداد لأن أتحداك أن تقول لي أي جوربيك تلبسه أولًا، أو أي يد تستخدمها في فك أزرار صديريتك. ولاحظ أن تلك الروابط بين الحركات ليست لا شعورية في نفسها فحسب، بل قد تؤدي إلى سلاسل معقدة من أعمال لا نعلم عنها شيئًا على الإطلاق، ولعلك تذكر حكاية الشاعر الذي كان دائمًا شارد الذهن، فلما ذهب إلى غرفة نومه ليغير ملابسه استعدادًا للعشاء، لم يلبث أن تولته الدهشة بعد قليل، إذ وجد نفسه في الفراش، فكل عمل من أعماله استدعى آخر في نظام آلي مستمر. ونحن نقول إنه أتى هذا العمل بحكم العادة، وليست العادات في الحقيقة سوى حركات مرتبطة، كما أن الذكريات أفكار مرتبطة.

بل إنه حتى في التفكير المتعمد، تكون الروابط لا شعورية، فيفيض التيار العصبي من غير تفكير في المسالك العصبية، ولا يستثير شرارة الشعور إلا عندما يقفز من طرف إلى آخر. ولكن يجوز أحيانًا أن تكون الارتباطات ظاهرة صريحة لدى الأذكياء. فمثل هؤلاء لا يقفون عند حد ملاحظة الأشياء المرتبطة، بل يرون كيفية ارتباطها. وهذا ما لا يتوافر لحيوان ما، فكلبك قد يتعود أن يقرن العصا بالألم، ولكنه لا يستطيع أن يفسر السبب في ورود العصا والألم معًا. وأنت وأنا ندرك (أو نظن أننا ندرك) علاقة عِلِّية، فنلاحظ أن الرعد يأتي «بعد» البرق، وأن صورة الملك جورج «تشبه» الأصل، وأن الأسود «عكس» الأبيض. وتلك الصلات أو الحلقات في تفكيرنا وهي التي يطلق عليها أسماء «التتابع» و«التضاد» و«التشابه» يطلق عليها في الاصطلاح اسم «العلاقات»، فيمكن إذَنْ أن نعرف العلاقة بأنها ارتباط شعوري.

ويوضح الفرق تجربة بسيطة: هبني قلت: (هاك كلمة «أسود»، فماذا تجعلك كلمة «أسود» تفكر فيه؟) قد تجيب بواحدة من ست كلمات ولتكن حبر، أبنوس، زنجي، سبورة، السحر الأسود، أو البحر الأسود، ويُسمَّى هذا بالتداعي الحر[1]، وهو هنا آلي أعمى. ولكن هبني قلت: «ما ضد أسود؟» فإنك تجيب توًّا «أبيض». فأنت لم تستخدم التداعي الحر بل نوعًا خاصًّا من التداعي، فاستعنت بعلاقة تعلم نوعها. ومن أحسن مقاييس الذكاء ما تستخدم فيه قاعدة الكلمات الثلاث، مثل: «نسبة عالٍ إلى منخفض كنسبة حسن إلى.....؟» ويستطيع الطفل في سن العاشرة أن يعطي الإجابة «رديء». ولكي يصل إلى ذلك لا بد أن يركز عقله أولًا في العلاقة بين «عالٍ» و«منخفض» ليعرف ماهيتها، وهي علاقة الضدية طبعًا، فمن الواضح أن الكلمتين متضادتان، ثم يطبق تلك العلاقة على كلمة «حسن» فيحضر في عقله على الفور الضد المقابل الذي يلزم لإكمال ذلك النموذج اللفظي. وكل التفكير الإنشائي تقريبًا كتفكير كلٍّ من الفنان والفيلسوف يتبع ذلك النمط العام.

والعلاقات المكانية أسهل إدراكًا من سائر أنواع العلاقات، ومثلها «الهرة على السجادة» و«علي بجانب أحمد». وهذه يستطيع إدراكها طفل في الرابعة من عمره. أما العلاقات المنطقية وهي التي نعبر عنها بمثل قولنا: «من حيث إن» و«من ثم»، فهي ألزم العلاقات للتفكير الواضح، وضرورية لكل مناقشة صحيحة وبرهان مقبول، ولكنها

---

(١) لا مانع من أن نسميه الترابط الحر أو المطلق، ولكن كلمة التداعي الحر سبقت في الاستعمال وأصبحت شائعة في الاصطلاح.

للأسف أكثر خفاء من غيرها.

وإنك لتستطيع أن تتبين الفرق بين الناس، في مقدرتهم على إدراك العلاقات، من الموازنة بين خطاب يكتبه طفل، وفصل في كتاب يكتبه شخص راشد واضح التفكير. انظر كيف أن كليهما كثيرًا ما يستعمل تلك الألفاظ الهادئة البسيطة المعبرة عن الصلة المنطقية، كأدوات الجر والعطف وما شابهها، ولكن الطفل يظل يربط جملة بجملة، بحرف الواو، مرارًا وتكرارًا، كقدماء الكتاب في الإنجيل، على حين يبني العالم استنتاجاته على «إذَنْ» و«مع أن» و«حينئذ» و«لكن» و«لأن» و«على ذلك».

الآن تدرك السبب في أن الحيوانات لا تستطيع التعليل، وأن الإنسان وحده، هو الذي يستطيع أن يجادل ويستنتج. فالتعليل متوقف على القدرة على إدراك العلاقات وفصلها وحدها، تلك القدرة التي امتاز بها الإنسان وحده. على أنها ليست قدرة خفية مقصورة على العبقريين، أو يمتاز بها رجال البوليس السري الخصوصي وحدهم، أو بعض من فلاسفة ما وراء الطبيعة ممن شابت لحاهم، بل تتوفر لدينا كلنا تقريبًا، ومع ذلك يندر أن يستخدمها أحدنا. فالدكتور واطسون[١] يرى الأدلة على الجريمة مبعثرة، كلا على حدة، ولكن شرلوك هولمز هو الذي يضع أصبعه على الصلة التي تربط كل نقطة بزميلتها، كآثار الأقدام، بعضها أوضح من الآخر، تركها على الحصى قاتل، رجله اليسرى عرجاء. ومن هذا القبيل ما قالته سيدة في حفل شاي:

(١) صديق شرلوك هولمز.

«لعلك لم تنسني يا دكتور براون، فإني كنت أول مريض عالجته في حياتك»، ولقد كان الدكتور براون منذ لحظة، قبيل دخول السيدة، يروي على الحاضرين كيف كان أول مرضاه من معتادي المخدرات لدرجة الجنون. ولم يصل إلى النتيجة الواضحة ممن سمعوا كلام كل منهما سوى اثنين فقط، ولا شك في أن الجميع أدركوا الصلتين في العبارتين الآتيتين: أولًا –بين أول مريض لذلك الطبيب ومدمن المخدرات، ثانيًا– بين السيدة وأول مريض عاده الطبيب، ولكن لم يفطن أحد إلى أن كليهما شخص واحد. فالتعليل إذَنْ متوقف على إدراك الصلة بين العلاقات.

٤– المشاعر والانفعالات –يظهر أن هناك في الشعور محتويات أخرى أكثر دقة وأصعب تصنيفًا. وأهمها هو ما نسميه في العرف السائد بالمشاعر، فكل إحساس أو فكرة يصحبه سرور أو ألم. والألم في حد ذاته واحد من الإحساسات الفعلية سواء في ذلك الألم الذي تشعر به إذا شكَّت جلدك إبرة، أو الذي تشعر به عندما يقتلع الطبيب أحد أضراسك. وهناك أعصاب معينة خاصة به. غير أن الألم الناتج من ضوء ساطع أو أصوات خشنة غير متناسقة، ليس في الحقيقة ألمًا بمعنى الكلمة، ولذا يسميه علماء النفس «عدم اللذة». فاللذة وعدم اللذة ليسا إذَنْ من الإحساسات؛ إذ ليس لهما أعضاء حس معينة، كالسمع والبصر، بل يسريان في كل حياتنا العقلية، ولذا يعتبران من نوع المشاعر، والعمل الذي يلوح أنهما يؤديانه غريب في بابه، فإذا استطعنا أن نعتمد على نتائج التجارب الدقيقة رأينا أن أهم وظائفهما هي: أن يعمل «عدم اللذة»

على محو أي عمل يقترن به، كما تعمل «اللذة» على تثبيت أي عمل تقترن به وتمكينه.

الآن قد انتهينا تقريبًا من قائمة محتويات العقل المختلفة، كما تبدو للملاحظة الباطنية غير المتقنة. وهذا التحليل أول خطوة لازمة لإقامة علم النفس على أساس علمي. فهو يعطينا أسماء للمسميات، وبغيره لا تتوفر لدينا الأسماء الاصطلاحية والإشارات التي بها نعنون ونبوّب ما نصادفه من محتويات الحياة الشعورية. ولكن قد آن الأوان لأن نصحح تلك الصورة. فإلى الآن كنا نتكلم عن الشعور كأنه مركب من قطع وجزئيات صغيرة متعددة كما يتركب المنزل من اللبنات والأحجار المتماسكة بفعل الملاط، ذلك الوصف ساذج إلى حد كبير، بل ربما أدى إلى الخطأ.

فأولًا، إحساساتنا لا تأتي إلينا قط منفصلة انفصالًا تامًّا، ولكنها تجيء متشابكة على هيئة أشكال أو نماذج. فتلك الكرة التي على المنضدة ليست مجرد بقعة من إحساسات تدركها عينك، فإن لها بالإضافة إلى شكلها صلابة معينة أيضًا. وهي ذات وجود ظاهر في الفضاء، وحين تركز عليها انتباهك، تلوح بارزة جلية كما لو سلطت عليها شعاعًا ساطعًا. ولا تستطيع أن تقتصر في وصفتها على التعبيرات البصرية، فإنها ولو لم تلمسها تبدو لك ثقيلة ملساء، فكيف ترى ملاستها ووزنها إذَنْ؟ قد تقول كما قال علماء النفس السابقون، إنك حين كنت في المهد صبيًّا، كنت تعمل بيديك وعينيك معًا، فكنت لا ترى شيئًا إلا وأمسكت به، وبذلك تعودت أن تقرن إحساسات اللون

الخاصة بذكريات الثقل والملمس الخاصة، قرنًا لا ينفصم. وإن تلك الذكريات هي الصور العقلية للإحساسات اللمسية التي تكونت لديك عند أول مرة التقطت فيها كرتك. غير أن ذلك التفسير غير مقنع، ولا ينطبق على سلوك الطفل الحقيقي. فالطفل منذ البداية لا يرى أو يلمس إحساسات منفردة أو منفصلة، بل أشياء مادية. وهو لا يرى إحساسات معينة، حمراء أو مسطحة، ثم يقرنها بإحساسات أخرى حركية أو لمسية أو وزنية. بل إنه بالنظرة الأولى في حياته، يدرك كرة كاملة، تامة الاستدارة، صلبة المنظر، تبدو بارزة في الوسط الذي يحيط بها (اللهم إلا إذا كنت أنا واهمًا). وبالاختصار إن الإحساسات أشياء معنوية نتعلم كيف نتبينها بنمو خبراتنا وتقدمنا في السن، ونستطيع أن نميزها عن غيرها، ولكننا لا نستطيع فصلها، وليس من الممكن أن نفترض الحياة بإحساسات تنضم بعد ذلك بعضها إلى بعض لتكوّن شيئًا مُحَسًّا. فليس غرضنا إلا السهولة إذَنْ حين نصف محتويات العقل كأنها قطع ثابتة ربط بعضها ببعض ثم رصّت على صينية، أو خرزات متتابعة نظم بعضها إلى بعض في سلسلة. فالشعور لا هو بالسلسلة ولا هو بالفسيفساء، وإنما هو تيار حي دائم التغير، وليست هناك وصلات بين إحساساتنا أو أفكارنا، فكل حالة عقلية تتلاشى في الأخرى من غير فواصل أو قفزات. وحياتنا الشعورية أشبه شيء بماء يجري متسلسلًا براقًا، فلا أنت بمستطيع إحصاء الموجات الدقيقة ولا تسمية النقط الضوئية إلا إذا جمّدت الماء إلى جزيئات ثلجية هامدة، أو أخذت صورة شمسية جامدة لا حراك فيها. وبالاختصار إذا اعتبرنا العقل مكونًا من عناصر أو

ذرات شعورية، أهملنا أهم صفة مميزة له وهي أنه دائب النشاط.

ويتضح ذلك عندما نولي بصرنا نحو مجموعة أخرى تضاف أحيانًا إلى قائمة محتويات العقل، تلك هي الانفعالات، فإلى أي صنف ينتمي كل من الفرح والأسى، والغضب والخوف والمحبة؟ أنضعها وحدها في باب خاص بها؟ أم ندخلها في باب اللذة والألم؟

عندما تأخذك ثورة الغضب في المرة القادمة، أو عندما تتقد بقلبك جذوة الحب، اختبر مشاعرك، يتضح لك توًّا أنه ليس من الانفعالات ما هو بسيط يسهل تصنيفه، فكل انفعال يشمل أشياء كثيرة منها عدد من الإحساسات المضطربة الصادرة عن الأمعاء الداخلية. وتشعر كذلك فيما تشعر به باضطراب جسمي منتشر، (ولو أنك لا تلاحظه عندئذ اللهم إلا إذا كنت من الشعراء) كحرارة الوجه من صعود الدم إليه، وطرق على أضلاعك، ونفس يتحشرج في حلقك، وتقلص أو ألم حاد في جميع أعضائك وأطرافك. هذا الاضطراب غير الإرادي جزء من الاستجابة الغرزية التي تصحب كل تهيج انفعالي عميق، وإن من علماء النفس لأكثر من واحد ينكرون إنكارًا باتًّا وجود أي انفعال منفصلًا عما عداه من محتويات العقل، ويقولون إن نبضك يسري وإن ريقك يجف لأنك خائف، والحق أنك خائف لأن قلبك يخفق ولسانك قد التصق بسقف حلقك. والشعور بتلك الإحساسات هو الشعور بالانفعال. وللإيضاح، خذ نفسًا عميقًا، وأقم كتفيك، وابتسم ابتسم ابتسم، تجد مخاوفك تلاشت في الحال؛ لأنك بذلك قضيت على ذلك الشعور بالانحطاط الذي هو قوام مخاوفك.

على أن الكثيرين منا يعتقدون أنهم يستطيعون أن يتبينوا خلال هذا الجم الغفير من الإحساسات الغامضة شعورًا أنقى، فريدًا في بابه، ففي أثناء أي انفعال قوي نحس ميلًا أو غرضًا داخليًّا مصحوبًا بإحساس بالجهد والنزوع مهما كان هذا الإحساس غامضًا. وهذا الإحساس يعتبر أحيانًا عنصرًا أكيدًا من عناصر الشعور. فيبدو لنا أن قوة عقلية مباشرة تدفعنا هنا وهناك. وإنا لنميل إلى تشبيه تلك القوة العقلية بالقاطرة البخارية التي تجر أفكارنا في طريق معين إلى حيز الفعل.

ويؤدي هذا إلى نقطة أساسية، بدأ علم النفس الحديث يعيرها اهتمامًا كبيرًا. فقد كان علماء النفس السابقون يعتقدون أنهم أوفوا الحياة العقلية حقها من البحث إذا ما فصّلوا الشعور إلى أشكال من الإحساسات والمعاني. ولكن علم النفس الحديث يتعمق أكثر من ذلك، ويدَّعي أن تحت ذلك السطح المتموج دوامات من دوافع هائجة. فلكي تفهم خلق شخص وسلوكه، لا يكفي أن تتسلل إلى داخل جمجمته وأن تلاحظ فعل الأنوار الملونة والظلال التي تتركب منها حياته الشعورية، بل عليك أن تتسلل أيضًا إلى ما خلف الستر والمناظر المصورة، وتمد عينيك إلى ما هنالك من الروافع والأسلاك، وأن تزحف تحت المسرح لتختبر لوحة أزرار الإضاءة وآلات توليد الكهرباء.

وهكذا نجد أن طريقة التأمل الباطني القديمة، أي مجرد ملاحظة النفس الشاعرة، لها نواحي نقص خطيرة. فبالرغم من أنها تعيننا على كشف محتويات العقل الشعورية، وتصنيفها وتسميتها، إلا أنها تتركنا على غير يقين من أمر تلك القوى التي تحدث هذه المحتويات المتقلبة

وتوجهها. فعلى علماء النفس إِذَنْ أن يكشفوا ثنايا المنطقة اللا شعورية من العقل كما كشفوا المنطقة الشعورية، ولكن كيف نهتدي إلى شيء هو بطبيعته غير مشعور به؟ وأي مصباح يضيء لنا ظلمات القلب؟ تلك هي الأسئلة العويصة التي نوجه إليها همنا الآن.

* * *

اللاشعور

بقلم: إرنست جونز

رئيس المجمع الدولي للتحليل النفسي،

ومدير عيادة لندن للتحليل النفسي

الفصل الثالث

ما التحليل النفسي؟

روى لكم الدكتور بيرت الشيء الكثير عن عمل العقل الشعوري، وجعل يبدي بين آونة وأخرى بعض ملاحظات قصد تمهيد الطريق لما سأحدثكم عنه من طبقات العقل العميقة المدفونة، وهذه الدراسة تقترن باسم «التحليل النفسي».

ولعله من الواجب أن نسيطر على الدوافع العميقة في العقل البشري، تلك الدوافع التي تعتبر المحرك الحقيقي لنا، فيؤدي بنا ذلك إلى نتائج خطيرة الشأن في تاريخ الإنسان. ويعلم الله أن تلك الفوضى التي أحدثناها في ذلك العالم لا بد لإصلاحها من تعديل جوهري في الراجح. فإن صح هذا الرأي كان لهذه اللحظة الحاضرة أهمية تاريخية، إذ إنها أول مرة تدخل فيها إدارة الإذاعة البريطانية موضوع التحليل النفسي في برنامجها[١]. ويُخيَّل إليَّ أن بعض الجهات قد استولى عليها

(١) نذكر القارئ بأن تلك الفصول كانت محاضرات ألقاها المؤلفون في الإذاعة اللاسلكية بإنجلترا.

ذعر غير قليل من فكرة السماح لمحلل نفسي بالتحدث إلى الجمهور، رغم أنه يُصوَّر في أغلب الأحيان كشيطان خطر. وأنا واثق أن هذا التصوير يرجع إلى سوء فهم لكل من الجمهور وعلماء التحليل النفسي على حد سواء. فالحياة لها مشكلاتها، وإذا كانت هناك أيضًا مشكلات في داخل نفوسنا، في تصرفات عقولنا، فلن يجدي معنا تجاهلها، كما تتجاهل النعامة صائديها بوضع رأسها في الرمل، سواء أكان ذلك في مشكلات الحياة أم في مشكلات نفوسنا، فالمشكلات موجودة لتحل لا لتتجاهل.

وعندما تتساءلون: «ما التحليل النفسي؟»، أرجوكم أن تتناسوا أغلب ما سمعتم عنه من الصحافة العادية ومن غيرها. وإليكم مثلًا يوضح تمامًا ما أعنيه، وهو عبارة مقتبسة من جريدة (راديو تايمز) وهي «إن التحليل النفسي اصطلاح غالبًا ما يُساء فهمه ويُستعمل في غير دقة». وفي نفس الجملة يرد تعريفه بأنه «العلم الذي يقترن بأسماء كل من فرويد ويونج وآدلر». وكان الواجب أن يقال «الذي يقترن خطأ في الصحافة العادية بأسماء.. إلخ». وفي الحقيقة إن التحليل النفسي لا يقترن إلا باسم فرويد ومَن يستخدمون طرقه وهي لا يستخدمها الآخرون.

وهناك أشياء كثيرة يتبرأ منها التحليل النفسي، وهي بعينها الأشياء التي تقرأون عنها في الغالب. فمثلًا يعتقد الكثيرون أن من أهم أسس التحليل النفسي الدعوة إلى حرية التعبير عن النفس وطرح القيود جانبًا. ولكن الحقيقة هي أن التحليل النفسي يؤدي لا محالة إلى ضبط النفس. ومهما يكن من أمر التحليل النفسي فلا شك أن هناك شيئًا إدًّا يحيط به.

ولكن حين تجد غيره من الأفكار الجديدة سواء أكانت سهلة الفهم أم غاية في الصعوبة، كنظرية أينشتاين عن النسبية مثلًا، لا يُساء فهمها بذلك الشكل العجيب، تجد التحليل النفسي تنقلب معانيه إلى الضد تمامًا. لا بد لكل ذلك من سبب، وسيتضح لك حالًا ما هو. فلنبدأ الآن بتعريف صحيح للتحليل النفسي. لقد كان التحليل النفسي في مبدأ الأمر ينطوي على طريقة خاصة ابتكرها الأستاذ فرويد في فيينا لعلاج طائفة من الاضطرابات العصبية ولكن الاسم يستعمل كثيرًا وبحق ليدل على المعرفة التي كسبت باستخدام تلك الطريقة، ولو كان هذا كل ما هنالك لكان لك أن تعجب من قيام كل تلك الضجة، ما دام الأمر لا يعني إلا طائفة من الأطباء الإخصائيين ومرضاهم الذين يشكون من هذا النوع الخاص. غير أن الأمر أكثر من ذلك، وأكتفي هنا بأن أقول إن تلك الاضطرابات العصبية المذكورة وثيقة الصلة بمسألة الشقاء الإنساني كلها. ولقد كان من نتائج المحاولات التي بذلت لتخفيفه باستقصاء أسبابه أن بُحثت طبقات في العقل لم يسبق درسها من قبل، وابتكرت طريقة خاصة لذلك البحث. وقد أُدخل بالطبع تحسين كبير على تلك الطريقة منذ ابتكارها من أربعين سنة مضت. ويرجع جميع الفضل فيه إلى فرويد وغيره من الباحثين. وإني أستطيع أن أقول إن فرويد لا يزال منهمكًا في محاولة تحسينها رغم أنه الآن في السابعة والسبعين من عمره[1].

ولقد تبين من اختبار التعديلات والإصلاحات التي أدخلت على الطريقة الأصلية أن هذه المحاولات أضاعت الغرض الذي بُذلت من

(١) توفي فرويد منذ صدور ذلك الكتاب.

أجله وابتعدت عن هدفها الأصلي بمجرد الخروج عن شروط معينة تعتبر جوهرية للعمل. ولقد أصبح من الممكن معرفة تلك الشروط أو المبادئ الجوهرية في الطريقة، فصارت كل المجالات التي لا تراعيها خارجة عن روح التحليل النفسي في صميمها. وقيمة تلك المحاولات المذكورة كالتي قام بها آدلر ويونج ورانك وشتيكل وغيرهم لا تزال موضع جدل كثير ولا أريد مناقشتها هنا، ولكن الخلط بينها وبين التحليل النفسي لا يقف أثره عند حد المضايقة بل يؤدي إلى الفوضى والارتباك. وتلك الطرق كلها تنزع إلى الانحطاط لمستوى الإيحاء أو الاستهواء الذي هو المقابل الحقيقي الوحيد للتحليل النفسي.

ولعلكم الآن تريدون أن تعلموا شيئًا عن الطريقة ذاتها، ولذا سأحاول أن أزوّدكم بقليل مما يستثير شوقكم، ولكني أخاف أن لا أحقق أمل من كان منكم يتوقع أن أخبره كيف يستخدمها بنفسه. فإجراء عملية جراحية على العقل، أي إجراء التحليل النفسي، أصعب بكثير من إجرائها على مخ الإنسان، ومع أن إنجلترا ليس بها خمسون شخصًا يسرهم أن يجروا عملية على مخ حي، ومع أن مَن يستطيعون إجراء عملية على العقل أقل من ذلك العدد أيضًا، فإن هناك آلافًا على استعداد للمجازفة، ناعمين في جهلهم بما تنطوي عليه من مصاعب.

ومهما يكن فإني أعتزم أن أخبركم بشيء عن تلك الطريقة، مبتدئًا بشيء فيه تناقض. فرجال التحليل ينادون عادة، وكان ينادي معهم فرويد نفسه أيضًا، بأن أساس التحليل النفسي هو بوجه عام طريقة التداعي الحر. ولكنا نكون أقرب إلى الدقة إذا قلنا إن التحليل النفسي قد قام

على دحض فرويد لما يُسمَّى تداعي المعاني الحر، وربما كان هذا أعظم كشوفه. وتلك فكرة بسيطة تعلمون كلكم شيئًا عنها. فكل منا يسترسل بعض الأحيان في أفكاره ثم يندهش إلى ما أدت به إليه، وكلنا نفعل ذلك في أحلام اليقظة، والأطفال كثيرًا ما تلذ لهم مزاولته ويدعون أفكارهم تسترسل لمجرد معرفُة ما تؤدي بهم إليه. والمسألة هي أن يوقف الإنسان عمل الإرادة التي تسيطر على التفكير العادي أو المحادثة العادية وأن يدع العقل يفكر له بدل أن يفكر هو لنفسه. أواضحٌ ما أقول؟ لأفعل ذلك أمامكم، فأبدأ بأي شيء يسترعي انتباهي، وليكن تلك الباقة من أزهار الماجنوليا الصناعية التي اختارها أولو الأمر في إدارة الإذاعة لتدخل البهجة في هذا الاستوديو. أراها مصنوعة من ريش طيور البحر الحقيقي. وها أنذا أبدأ -طيور البحر- تذكرني هذه بدراسة الأنواع المختلفة من طيور البحر لما كنت في جزر سيلي -سيلي، ما أغرب هذا الاسم لمكان.. أذكر سيلي سفوك ومعناها على ما قيل لي «سفوك المقدسة»، إذ إن سيلي في الأصل معناها بريء أو مبارك[1]، ولا تزال تدل عليه اللفظة الألمانية المشابهة، وهنا أسترسل في بعض ذكريات شخصية عن تعلم اللغة الألمانية. وقد حان الوقت للانتهاء، فإذا بي على أميال عديدة من الماجنوليا الصناعية أو طيور البحر. هذا معنى التداعي. وكثيرًا ما يجد الإنسان لذة في محاولة تتبع الخطى إلى الوراء، والعجب من كيفية انتقاله من واحدة إلى أخرى. ويستطيع الإنسان في العادة أن يجد سببًا، كعلاقة في وزن الكلمتين المتجاورتين أو معناهما ومع

(١) وهي تستعمل الآن في معنى ساذج أو عبيط.

ذلك يعجب الإنسان لماذا استدعت تلك الكلمة ما استدعته بالذات مع وجود كثير غيره يعادله بشكل واضح. فلماذا تدرجت أنا منذ قليل من جزر سيلي إلى سفوك بدلًا من أي جزر أخرى مع اهتمامي بالكثير منها؟ لماذا تعلق انتباهي الجائل بكلمة سيلي بدلًا من كلمة جزر، فهل صحيح أن تلك الكلمة كانت في مؤخرة عقلي وأنا غير عالم بها منذ تلك اللحظة التي نظرت فيها إلى أزهار الماجنوليا الصناعية؟ إنها لفكرة قبيحة. أفكنت محقّرًا لذوق شركة الإذاعة في التجميل، ألا فلأطردنّ ذلك الاحتمال الدنس في الحال من ذهني.

ذلك المثل الصغير الذي أؤكد لكم أنه جاء من تلقاء نفسي، يوضح نقطًا عديدة. فلبّ الفكرة التي فطن إليها فرويد هو أنه لا بد من وجود علاقة بين أي فكرتين تلي إحداهما الأخرى، سواء أكانت تلك العلاقة ظاهرة أم غير ظاهرة. وهذا عكس الاعتقاد العام بأن العقل لديه من القوة ما يستطيع بها بمحض «إرادته الحرة» أن يأتي بأي فكرة لا علاقة تربطها بآخر شيء كان فيه، وأن العقل يستطيع مثلًا أن يغير الموضوع حينما يشاء من غير أي إشارة إلى ماضيه القريب. فأحيانًا يكون لدى الإنسان داعٍ قوي لتغيير الموضوع لأسباب اجتماعية، فإذا راقبت ما يحدث في مثل تلك الظروف وجدت أن القول أسهل من الفعل، وأن مَن يحاول ذلك يكوم كالمستجير من الرمضاء بالنار. وسأخبركم بحادثة من ذلك القبيل، وقعت لي قريبًا، في حفلة عشاء صغيرة، ولم يكن رب البيت وزوجته على وفاق فيما بينهما على ما يظهر. وحدث أن أجاب الزوج إجابة لاذعة على عبارة مثيرة فاهت بها زوجته. وتلت ذلك فترة سكون

مؤلم. فسعل أحد الضيوف وحاول في شهامة أن يغير مجرى الحديث إلى موضوع أهدأ، وإليك ما فعل: بدأ بوصف رحلة كان قد قام بها حديثًا في إيرلندا، وتدرج إلى البحث في خلق الإيرلنديين. ثم أخذه الحماس وعبّر عن رأيه فيهم بأن من المحال الاتفاق معهم في السياسة، ثم قال: «سيظلون في شجار حتى يحصلوا على الانفصال التام». فإذا بذلك يعيدنا كلنا فجأة إلى ما كنا فيه من ارتباك، وكان علينا أن نحاول من جديد إيجاد موضوع أسلم عاقبة من هذا.

تَرَى إذَنْ أنه ليس من السهل أن تهجر موضوعًا هجرًا تامًّا إلى آخر لا علاقة له به على الإطلاق، والحادثة التي ذكرتها تبين أيضًا أن صعوبة بدء موضوع جديد من غير تأثر بسلسلة الأفكار السابقة، تزداد إذا ما صحب الموضوع السابق انفعال أو شعور شخصي. وهذا هو الحال في التحليل النفسي، إذ لا يكاد الإنسان يسير في فحص نفسه شوطًا حتى يصادف موضوعًا متصلًا بمشاعره الشخصية. وعندما يكون الشخص منهمكًا في سلسلة أفكار شعورية، كما في المحادثة أو المناقشة العادية، تكون العلاقة بين الأفكار المتتابعة واضحة، ولو أن ذلك لا ينطبق على ذوي التفكير المبعثر، الذين لا يثبتون على موضوع واحد. أما إذا أرخى الإنسان العنان لعقله، وقلل من السيطرة والتوجيه المعتاد لأفكاره، وسمح لعقله بأن يفكر كما يشاء، ولأفكاره بأن ترد من تلقاء نفسها على قدر المستطاع. فإنه يجد صعوبة في تتبع التسلسل، ويعجب من أن تلك الفكرة أتت بعد التي سبقتها، ويعجز عن كشف العلاقة بينهما، إذ يتطلب ذلك مراجعة سلسلة الأفكار، وتركيز الانتباه فيها، والبحث عن

تفسيرات أكثر للحلقات المفقودة التي لم يفصح عنها. وإن الشخص الذي يفحص نفسه ليستطيع بالتأمل أن يلقي ضوءًا على تلك الحلقات، ولكنه قد يعجز عن ذلك في بعض الأحيان، فيفترض أن السبب هو عدم وجود ارتباط. ولكن فرويد يعطي سببًا مختلفًا كل الاختلاف فيقول: إنه في تلك الأحوال توجد دائمًا حلقة ارتباط مستترة، لا يدري بها الشخص لأسباب معينة. فحلقة الارتباط هي أيضًا من العمليات العقلية، وتنتمي إلى منطقة في العقل لا يدري بها الشخص أو لا يشعر بها، وقد أطلق عليها اسم «اللا شعور». وجاء فرويد بطريقة يمكن بها إيضاح طبيعة الحلقة المستترة أو اللا شعورية ودراستها في التحليل النفسي. وهنا نصل إلى نقطة أخرى. فإنه لو صح افتراض فرويد الذي ذكرناه الآن، لكان معناه أن الإنسان يعيش في عالم لا يعرف كنهه. أما إذا اهتدينا إلى أن للإنسان عقلًا لا شعوريًّا انفتحت أمامنا آفاق لم نكن لنتصورها، ولو أني لا أقول إنها لم يصل إليها حدس أو تخمين، إذ إن الكثيرين من الفلاسفة وكل كبار الشعراء قد داخلهم أن نفس الإنسان تنطوي على أشياء أكثر مما وصل إليه علمه، وأنه لا يعرف إلا بعض ما يجري في عقله وما قد يكون ذا أثر في سلوكه، والحق يقال إن هناك في داخلية نفسه موارد خفية عميقة يستمد منها أعمق معتقداته، وأشد انفعالاته، وأكبر آماله.

ولنعد ثانية إلى الكلام عن الطريقة ذاتها على ما به من جفاف. لقد لُوحظ أن ما أسميناه الدوافع المستترة التي تربط الأفكار المتتابعة عندما ترتفع إلى السطح تشترك كلها في صفة واحدة، وهذا هو الكشف الثاني من الكشوف الثلاثة الرئيسة التي وصل إليها فرويد والتي تتركب

منها نظرية التحليل النفسي. فالأول كان الاهتداء إلى وجود اللا شعور والطريق إليه، والثاني هو كشف السبب في عدم درايتنا باللا شعور وهو ما سأخبركم به الآن. فالحلقات المستترة التي تفتح الطريق إلى اللا شعور لا ترحب بها الشخصية الشاعرة، وتتنافى مع فكرة الإنسان عن نفسه، ومع ما يُسميه هو نفسه الحقيقة. وهناك طرق كثيرة لظهور ذلك الإعراض والتنافي، كما أن بعض الأفكار قد يلقى إعراضًا منا أكثر من غيره. فالفكرة قد تجرح كبرياء الشخص وصورته التي يحتفظ بها عن نفسه، أو قد تشمئز منها حاسته الأخلاقية أو الجمالية، أو قد ترعبه لأنها تكشف عن دافع لا يستطيع السيطرة عليه، وهكذا. ولنبدأ بفكرة لا تصادف إلا القليل من المعارضة. لقد ذكرت لكم واحدة في قائمة التداعي الحر القصير التي أتيت بها لتسليتكم منذ قليل، وقد اعترتني الدهشة عندما وجدت أني على غير علم مني، أبطن نقدًا مرًّا لذوق شركة الإذاعة البريطانية التي أنا ضيفها في تجميل دارها الفخمة الجديدة. نعم إني لم آخذ سوى لحظة بسيطة لأتشجع وأقول لنفسي «وليكن، فلم لا أنتقدها؟». وفي أثناء التحليل النفسي سرعان ما يكتشف المرء عن نفسه كثيرًا ما لم يكن في حسبانه بطريقة بسيطة كهذه. ولكن يحدث في كثير من الأحيان ألا يصل إلى ذلك إلا بطريقة ملتوية جدًّا أو مؤلمة، فتأخذ النفس تناضل ضدها بالطبع محاولة تفسير الحقائق والإقلال من شأنها، وبعبارة أخرى، تقاوم النفس كل محاولة لتبين الحقائق المدفونة حتى ولو كانت تلك الحقائق واضحة للمشاهد، غير متأثرة بالمشاعر الشخصية. لهذا افترض فرويد حينئذ، ولدينا أسباب قوية لتصديقه،

أن القوة التي تتمثل بكل وضوح في تلك المقاومة لا بد أن تكون هي نفس القوة التي منعت النفس في الأصل من العلم بالفكرة المستهجنة. ويُسمَّى ذلك بالكبت. وهي كلمة تحدث أحيانًا شيئًا من الخلط لما لها من معانٍ أخرى. فمن الهراء، مثلًا، أن يقال إن التحليل النفسي يحظر أن يكبت الطفل. فالكبت في التحليل النفسي، لا يعني إبعاد الأفكار من الشعور. وسواء أكان كبتها، أي إبعادها من الشعور، مضرًّا أم نافعًا، فتلك مسألة أخرى يتوقف حلها على الظروف، ولكن العملية ذاتها معروفة لحد ما، فكلنا قد نُصح يومًا ما بأن يعالج الفكرة المؤلمة بإخراجها من عقله. ولكن قلما يفكر أحد في التساؤل عن المكان الذي تذهب إليه بعد إخراجها من العقل. والجواب هو اللا شعور، حيث تظل كامنة إلى أن يستثيرها نوع من التداعي، أو تظل تعمل مستقلة عن الشعور محدثة نتائج ملتوية لا يستطيع الشخص فهمها على الإطلاق. غير أن إبعاد الأشياء من العقل على هذا النمط نصف المتعمد، لا يشمل إلا النزر اليسير مما نقصده بالكبت، فإن الآراء التي أُخرجت على هذا النحو، تفوقها في الأهمية إلى حد كبير تلك الآراء التي لم يسمح لها بالدخول قط، والتي لم يعلم بها الشخص يومًا ما على الإطلاق، ولم تكن لديه عن وجودها أي فكرة ولو بسيطة، إذا إن الطبقات العميقة في العقل، أي اللا شعور الحقيقي، خفي بكل معاني الكلمة. فمثلًا لا يشعر أحد، إلا إذا كان مجنونًا، بأنه يود أكل أمه، ومع ذلك فهي فكرة كثيرة الحدوث في اللا شعور، كما أنها غالبًا ما تكون قوية.

قلت منذ قليل إن درجة النفور من الأفكار المكبوتة تختلف اختلافًا

بينًا، ففي كثير من الأحوال يمكن التغلب عليه كلية بجهد بسيط، ولكن الأمر ليس كذلك مع الأفكار الدفينة البعيدة العمق، فإن الشخص سوف ينكر في الغالب بما أُوتي من قوة أي احتمال لوجود مثل تلك الفكرة الغريبة عنه في أي جهة من جهات عقله، كما أنه من المهم جدًّا إبعاد تلك الأفكار الدفينة المكبوتة من النفس الشاعرة، حتى إنه تقام استعدادات ووسائل دفاع قوية في شخصية الفرد لهذا الغرض عمدًا، ولقد تصبح هذه في كثير من الأحيان جزءًا من خلق الشخص. وكثيرًا ما تكون تلك الوسائل الدفاعية عزيزة على شخصية المرء، حتى إنه ليفضل الموت على التهاون فيها. وتستطيع أن ترى أن ذلك الوصف ينطبق على بعض الاتجاهات العقلية التي نسميها المثل العليا في الحياة. فلا عجب إذَنْ إن كان هناك اشمئزاز عميق من التحليل النفسي، الذي يحاول كشف الستار عن تلك الأفكار المكبوتة.

وكل هذا معناه أن في أعماق العقل كفاحًا عنيفًا مستعرًا بين مناطق العقل المختلفة، ولكننا لا نراها على تلك الحال، بل نرى النتائج النهائية فقط، وإن الكثير من جهودنا واهتمامنا وانفعالاتنا وكفاحنا مع أنفسنا، ليس في جوهره إلا محاولات نبذلها في الحياة لتسكين ذلك التطاحن اللا شعوري. وأظنكم ترغبون الآن في معرفة شيء عن طبيعة الأفكار والدوافع المكبوتة التي جعلت أشير إليها. فسأروي لكم شيئًا عنها في الحديث التالي[١]. ولكني أسبق هذا الحديث فأقول إنها كلها تتلخص في كلمتي «الحب» و«البغض». فالعقل اللا شعوري مستعد

(١) الفصل التالي.

لكثير من الهوى الجامح والقسوة البالغة التي لا يستطيعها عقلنا الشاعر. وإذا تعمقت في الموضوع تبين لك أن في الإنسان من الخير والشر أكثر مما يبدو على السطح، وأنه في أعماق كيانه في وقت معًا أطهر وأفسد مما يظن هو. كما أن كل ذلك التضارب يرجع إلى أوائل سني الطفولة، فإننا إذا استقصينا محتويات اللا شعور إلى أصلها وجدناها في الرضيع. وإن من أغرب ما كشفه فرويد (وهو الثالث من الكشوف التي أشرت إليها) أن الطفل الصغير له حياة جنسية دقيقة معقدة، تشمل كلًّا من عقله وجسمه، ذلك الكشف الذي كانت له رنة دهشة ومعارضة هائلة. وربما كان هذا هو السر في صعوبة قبول نتائج التحليل النفسي، بل حتى في أخذها من غير تحريف.

لقد تدرجنا من نقط تافهة في مظهرها إلى بعض من المسائل تُعد من أهم ما في الحياة وهي أعماق كيان الإنسان. وأطلب إليكم الآن أن تذكروا تلك الكشوف الثلاثة التي أدى إليها استخدام طريقة التحليل النفسي. فالأول هو وجود العقل اللا شعوري، أي أنه تحت سطح العقل الذي ندري به، يوجد عقل لا شعوري، وهو فعال معقد التركيب، له تأثير بالغ فينا من حيث لا نتوقع. والثاني هو وجود الكبت، أي أن جزءًا كبيرًا من عقلنا تحول بينه وبين علمنا قوى معينة تؤدي إلى تقسيم العقل إلى مناطق منفصلة لا توافق بينها، والثالث أن العقل اللا شعوري، بما فيه من كفاح يرجع إلى سني الطفولة المبكرة، حين تلعب الدوافع الجنسية في الأطوار الأولى من نمو العقل دورًا لا يفطن إليه أحد.

الفصل الرّابع

قوة اللا شعور

وردت إليَّ أسئلة كثيرة وجهها إلى مراسلو إدارة الإذاعة البريطانية، وأود أن أجيب عن واحد أو اثنين منهما قبل أن أبدأ السؤال الذي تكرر أكثر من غيره هو: «أيستطيع التحليل النفسي أن يتغلب على ما في العقل اللا شعوري من مخاوف وكفاح؟ وما الفائدة العملية لما يبدو كأنه معرفة نظرية؟». وإني أرجوكم أن تذكروا الغرض من هذه السلسلة من الأحاديث، والقيود التي كان من المناسب مراعاتها فيها. فالغرض هو إثارة اهتمامكم لا أكثر ولا أقل، وليس من شأن إدارة الإذاعة أن تبحث كيف يفيدكم هذا الاهتمام، فذلك شأنكم أنتم، وتستطيعون إذا أردتم أن تجدوا كيفية الاستفادة من تلك المعرفة عمليًّا، في النشرة الصغيرة التي تصدر عن هذه السلسلة من الأحاديث وتباع بخمسة بنسات. وليس من شأني أن أتخطى إلى مواضيع كيفية علاج الحالات المختلفة، فذلك ينتقل بنا إلى مسائل العلاج الطبي، الذي لا تلائمه الإذاعة بحال.

ومن الأمثلة كثيرة الورود أيضًا: «ما تأثير التحليل النفسي في موقفنا نحو المسؤولية الأخلاقية»؟، وأجيب عنه بكلمة واحدة، «إنه يزيد في مسؤولية الفرد ودقته فيما يتعلق بأعمال نفسه، ولكنه يجعله أكثر تساهلًا وتسامحًا فيما يتعلق بأعمال الآخرين».

ألمعت في حديثي السابق إلى أن العقل اللا شعوري، وهو المنطقة الخاصة من العقل التي يدرسها التحليل النفسي، أبعد شيء من أن يكون حفرة تُلقى فيها أفكار منسية لا قيمة لها، فهو عكس ذلك تمامًا، إذ هو المحرك الأول لحياتنا، ومصدر أغلب طاقتنا العقلية. وقوته على التأثير فينا أي في عقولنا الشاعرة، تأتي عن طريقتين. فإما أن تتحول طاقته إلى طاقة شعورية، إذا كانت على وفاق معنا، وإما أن تظل مستقلة تعترضنا كلما استطاعت إلى ذلك سبيلًا. ولنتأمل الحالة الأولى. إن دوافع اللا شعور وهي تتألف من شتى الرغبات والمطامع الفطرية الأولية، تتحول عادة إلى مطامع وميول شعورية. ولكنها لا تتحول إلا في حالات خاصة، وذلك حين يمكن تعديلها وتنقيحها إلى درجة ترضي الرقابة الدقيقة التي تعمل من تلقاء ذاتها دون أن نعلم بها. وعليها إذَنْ أن تكون قادرة على مواجهة الامتحان. فإن حافزًا إلى القسوة والإجرام مثلًا لا يسمح له باستثارة اهتمام شعوري إلا على شريطة واحدة، وهي ألا يتنبه المرء إلى أن نفسه تحوي مثل ذلك الحافز، وإذَنْ يستطيع أن يقرأ ما يلذ له من الروايات البوليسية، أو محاكمات القتلة، وينعم بمشاهدة الروايات السينمائية التي تعرض حيل اللصوص. أما إن كان جادًّا أكثر، فإنه يستطيع أن يصير محاميًا جنائيًّا، أو قاضيًا، أو جزارًا، أو جراحًا،

أو أن يحترف أي مهنة أخرى يلعب فيها الإيذاء أو سفك الدماء دورًا رئيسًا. ويسير الأمر في مجراه ما دامت الشروط الأساسية مستوفاة، وما دام تحول الحافز الفطري تامًّا. ترون إذن أني قدمت إليكم فكرتين مختلفتين، كلتاهما يصعب أن تُفهم فهمًا تامًّا. فمن العجب العجاب أن نتصور أن ما نعلم حق العلم أنه عقلنا، أي عقلنا الشاعر، وهو أقرب الحقائق إلينا، والشيء الذي نعرفه أكثر من معرفتنا بشيء آخر في الدنيا كلها، وهو نفسنا العزيزة، هذا ليس إلا شطرًا فقط من عقلنا الكلي، وأنه لم يسمح لنا إلا بمعرفة جزء فقط من نفسنا قد اختير بعناية ودقة للغرض المقصود. وكم من الصرامة في ذلك الاختيار ففي الأقطار التي تسيطر فيها الحكومة سيطرة تامة على الصحافة لا يستطيع الجمهور أخذ فكرة كاملة عن مجريات الأمور في داخل القطر أو في خارجه. وأكثر من ذلك أن الجزء الذي سمح له بمعرفته قد كُتب باحتراس ليتمشى مع رغبات خاصة، فكأن المعلومات التي تقدم للجمهور تُنتقى أولًا ثم تحرّف. وإني لأستطيع أن أقول إنه ما من حكومة أوتوقراطية تعادل رقابتها في الشدة والصرامة تلك الرقابة التي يفرضها كل فرد في داخلية نفسه، كل هذا وهو لا يدري شيئًا عن وجود رقابة ما أو أن أفكاره تأتي من أي مكان آخر غير نفسه التي يعرفها حق المعرفة جد المعرفة أي عقله الشاعر، فهو لا يتريث ليسأل نفسه عن سبب حبه لهذا أو كرهه لذاك. وقد ينتحل سببًا لكل منهما، ويُسمَّى «التبرير» ولكن ما يقصده في الحقيقة بكل بساطة «طبعًا أنا أكره هذا أو ذاك وهكذا أنا». ولكني أقول لكم أنه في الحقيقة لا يعرف السبب على الإطلاق، وإنه ليست لديه أي

فكرة عن الأفكار المعقدة التي تدور في أعماق عقله، فتقرر ما إذا كان يحب هذا أو يكره ذاك.

إني على يقين من أن ذلك كله يبدو غير معقول، فكيف أقرّ به ولو قليلًا من المعقول، وأصل بينه وبين الأفكار المألوفة لكم نوعًا ما؟ ومع كل ذلك، فإن بعضنا ليعرض له، من آن لآخر، شعور غامض بأن حياته العقلية تحوي أشياء أكثر مما وصل إليه علمه، وأنه لا يفهم نفسه فهمًا حقيقيًّا. ويجري بخاطري الآن اسم أغنية بسيطة كانت منتشرة في صباي، أول سطر فيها «لست أدري لماذا أهواك، ولكني أهواك، أهواك». فكاتب تلك الأغنية كان يعبر عن حقيقة ثابتة على غير علم منه، فكل محب يجد نفسه في مأزق لو سئل عن السبب في اعتقاده أن حبيبته تختلف عن كل من عداها من نساء الأرض اختلافًا تامًّا»، والحقيقة أن المحب لا يكاد يخالجه أي شك في أن تفوق محبوبه أمر لا يحتاج إلى برهان، ولا تحدثه نفسه أبدًا بأن يتساءل عن السبب في أن غيره من الرجال تغيب عنهم تلك الحقيقة الساطعة.

وإذا تطرقنا من ظروف الحياة العادية إلى الظروف النادرة التي تطرأ أحيانًا على بني الإنسان، وجدنا نفس الفكرة. فأغلب فطاحل الشعراء يعلمون أن أروع ما كتبوه لم يأتِ عن صنعة متعمدة، بل أتاهم على أجنحة ملاك أو روح، تهفو عليهم من حيث لا يعلمون، أو يحسون أنه آتٍ من أعماق مجهولة في نفوسهم، حتى إن الإغريق كانوا يظنون أن الشعراء تحت تأثير أرواح تغشاهم، كما كان أهل القرون الوسطى يظنون أن النساء المصابات بالهستيريا قد استحوذت عليهن شياطين يمكن طردها، وما

من نبي عظيم يعتقد أن رسالته التي تمتلك زمام قلبه، من مبتكرات عقله الشاعر، وإنما يعتبر نفسه آلة للوحي الذي يعزوه إلى مصدر سماوي.

تلك بعض أمثلة تذكرنا لو تريثنا، بأننا في كثير من مواقف الحياة نحس بوجود شيء يؤثر فينا غير تلك المؤثرات التي نستطيع فهمها. وذلك ينطبق على النتيجة الأخرى العظيمة للتحليل النفسي، أي تلك الأهمية التي للكفاح العقلي الباطني في حياتنا. يرى معلمو الأخلاق والدين في هذا الكفاح نضالًا حادًّا بين النزعات الخيّرة والنزعات الشرية فينا، ويصورون حياة الإنسان كلها كمعركة مستمرة غرضها الوصول إلى حالة تطمئن فيها الضمائر، وتصلح الأعمال، ويرفرف عليها لواء السعادة والوئام. والحق أن الغرض الأسمى للدين، كما يلوح لنا، هو معالجة ذلك الكفاح حتى ينتصر جانب الخير في الإنسان على جانب الشر. ويؤيد التحليل النفسي ذلك الرأي عن الحياة تأييدًا كبيرًا، ويرى أن مصادر ذلك التضارب كائنة في الأعماق اللا شعورية لشخصية المرء، وأنها أبعد بكثير مما كان يظن. ومعنى هذا أننا في أعماق نفوسنا نشعر بالخطيئة أكثر مما ندري.

دعوني أعطكم مثالًا لهذا. كثيرًا ما نسمع في أيامنا هذه بالاصطلاح «عقدة النقص» فما معناه في الحقيقة؟ إنه اصطلاح واسع المعنى، ولكن كلمة «النقص» تعطي وصفًا واضحًا لتلك الحالة العقلية. فصاحبها مصاب بالشعور بالذات، فتراه منشغلًا دائمًا بما يتركه في الناس من أثر، شديد الانزعاج مما يتوهمه ازدراء، حساسًا لمقدار ما يعيره الناس من التفات في حياته، وقد ينشغل باله أكثر مما ينبغي إذا ما شك في

ذكائه أحد، ويؤلمه أو يهيج غضبه أن يُسخر منه لبطئه في فهم نكتة أو أن تُنتقد آراؤه. وعند آخرين يرتبط هذا الشعور بمظهرهم الشخصي، فتشقى حياتهم من جراء فكرة عيب أو نقص في خلقتهم، كأن تكون سيقانهم قصيرة أو غليظة، أو تكون أنوفهم طويلة، أو ذقونهم غير بارزة بروزًا كافيًا وهكذا. ولا حاجة لأن أستمر في تعديد ما لا نهاية له من أنواع الشعور بالنقص، غير أني سأذكر لكم شيئًا واحدًا طريفًا عنها كلها، فسواء أكان الشكل الذي تتخذه جسميًّا أم اجتماعيًّا أم عقليًّا أم غير ذلك، فكلها من غير استثناء تنجم عن شعور راسخ بالنقص الأخلاقي. إني موقن من أن هذا سيدهشكم، فإن ذلك الشعور غالبًا ما يُصيب أناسًا ممن اشتهروا بالفضل، وممن لا يخطر ببال أحد أن يوجه إليهم أي نقد أخلاقي، ومع ذلك ففي نفس كل منهم جزء غير راضٍ عن صاحبه، يتهمه بسوء الأخلاق. وسأخبركم أيضًا بما هو أعجب، فإن ذلك الجزء من اللا شعور، الشديد التعسف كما ذكرنا له قوانين أخلاقية تختلف اختلافًا بيّنًا عن قوانيننا الأخلاقية اللا شعورية، وهو نوع من الضمير، وإن كنت أفضل أن نستعمل له أسماء أخرى، وليكن «الذات العليا» أو «سوبر إيجو» حتى لا يختلط بالمعنى المعتاد لكلمة الضمير. وتراه أحيانًا لا يقف عند حد السماح بارتكاب أعمال إجرامية لا تقرها الشخصية الشاعرة من الوجهة الاجتماعية بل يحض عليها حضًّا. فهو يشبه في ذلك بعض الشبه الجمعيات السرية في بُورما وغيرها ممن كانوا يرتكبون القتل والتعذيب باسم الدين. هذه إحدى نظريات التحليل النفسي الملتوية، وهي تذهب كما ترون إلى أن شطرًا

كبيرًا من الإجرام المعتاد ينتج من الكفاح الأخلاقي اللا شعوري. فإن كان هذا حقًّا فلسوف يحدث انقلابًا في آرائنا عن محاربة الإجرام. ولكن ذلك الشطر اللا شعوري الذي يتعسف من الوجهة الأخلاقية، تجده من جهة أخرى كثيرًا ما يحظر أعمالًا مسموحًا بها من الوجهة الاجتماعية، بل مرغوبًا فيها أيضًا. فكثيرًا ما يتدخل في أمور من البساطة بمكان كمجرد النظر والأكل والمشي ويتدخل أكثر من ذلك في نواحي النشاط الجوهرية كطرق العمل ومبادلة الغرام. ومن الأمثلة المألوفة صعوبة حمل أغلب الأطفال على أكل أصناف كثيرة من الطعام نشأت في نفوسهم كراهيتها لغير سبب معروف. بل يصعب أحيانًا حملهم على الأكل إطلاقًا، فإذا كان كل هذا صحيحًا، كانت حالة غريبة حقًّا؟ فجسومنا، إذا تركت وشأنها، ولم تصبها الأمراض والحوادث، استمرت في نظام على ما يظهر وكذلك الحيوانات الدنيا يلوح أنها تعيش معيشة منسجمة لا بأس بها، وأنها تعرف بالضبط حاجاتها دائمًا، فتوجه كل قواها إلى إشباعها ما أمكن ذلك. ولكن عقل الإنسان هو وحده الذي تتنازعه الشكوك والتردد والتذمر الباطني، ثم إذا بنا بالإضافة إلى ذلك يقال لنا إن ما يعلمه الإنسان عن هذه الناحية ليس إلا جزءًا ضئيلًا مما يدور في أعماق طبيعته من نزاع. وحتى هذه المظاهر من شخصيته التي تبدو كأنها إيجابية، كأعماله اليومية ونواحي اهتمامه، ليس أغلبها إلا وسائل لإخفاء النظام العميق في باطنه، أو شروطًا يجب احترامها ليمنع النزاع الباطني من تعكير صفو ما ينعم به من طمأنينة. فأي حكمة هناك في كل هذا؟ وكيف وصل العقل البشري إلى ذلك النظام الغريب غير

المُرضي؟ هذه معضلات ليست دراستها طريفة فحسب، ولكنها تمس شؤونًا على جانب عظيم من الأهمية العملية. فأي إنسان مفكر يرتاح إلى تلك الحالة التي يعيش فيها بنو الإنسان، ولا سيما في عصرنا هذا الذي لا نستطيع فيه التمتع بالطمأنينة الشخصية.

قلت إن كثيرًا من النزعات اللا شعورية تعدل أولًا ثم تحول إلى أعمال شعورية، وقلت أيضًا إن الكثير منها يعجز عن ذلك التحول، ويستمر في حياة خاصة به تتعارض وبقية النفس. ذلك هو اللا شعور المكبوت الذي يسمع الناس عنه كثيرًا، والذي يقال إنه سبب كثير من الشرور. فإن تلك النزعات، لحرمانها من الإفصاح الصريح، لا تستطيع أن تعيش إلا في الخفاء، مثل تلك الأقليات السياسية التي تعاني القمع فتضايق الحكومة بمعارضتها الدائمة. والنتائج المترتبة قد تكون تافهة وقد تكون خطيرة. فقد ينوي المرء وضع خطاب في صندوق البريد، غير أن اللا شعور قد يحوي في خفاياه معارضة لهذا كثيرًا ما تنجح فتحول دون إرسال الخطاب، إذ ينسى المرء إرسال الخطاب، أو يضعه في مكان ثم لا يستطيع الاهتداء إليه. وكل من اللص أو القاتل ينوي الهرب من غير أن يترك أثرًا، ولكن ضميره الآثم يهزمه في أغلب الأحيان بحمله على ترك ما يسميه رجال البوليس السري «بطاقة الزيارة» التي تؤدي إلى معرفة الجاني. والنتيجة هنا خطيرة فقد تؤدي إلى حتفه. وربما كانت أربعة أخماس الوفيات في حوادث الطرق راجعة لمثل هذا السبب؛ إذ يعترض اللا شعور السائق عند الخطر ويمنعه من التصرف الحكيم. ذلك الأمر أكبر شأنًا من نسيان وضع الخطاب في صندوق البريد أو وضعه

في الظرف الخطأ. وإني أستطيع أن أقص عليكم حالات نجمت عنها نتائج وخيمة من مثل تلك الغلطات التافهة في تصرفات العقل. فتلك النزعات التي تجعل الإنسان يهزم نفسه بنفسه، ويعاقب نفسه بنفسه، تلعب دورًا كبيرًا في الحياة، فهناك كثيرون اعتادوا أن يتصرفوا التصرف الخطأ، وأن يسلكوا الطريق المعوج الضار بهم في مسائل ذات أهمية حيوية لهم، على أنه لا يوجد هناك إلا القليل ممن لا يضيعون جهودهم بأيديهم وممن يستفيدون في حياتهم بخير ما في طبائعهم.

تريدون الآن أن تعرفوا كيف يحدث كل ذلك، ومن أين يأتي كل ذلك التضارب. من النتائج الأساسية التي وصل إليها التحليل النفسي: أن الكفاح اللا شعوري يبدأ في السنين المبكرة الأولى من الحياة. فقد أتى التحليل النفسي بأعجب كشوفه في ميدان النمو العقلي المبتكر. وهي مع ذلك متفقة مع ما نعرفه من التطور البيولوجي اتفاقًا يجعلها معقولة إلى حد ما. فهناك مثلًا من الأسباب الوجيهة ما يحملنا على الاعتقاد بأن الرضيع الصغير لديه نزعات فطرية غير مهذبة ورثها منذ أزمان غامضة قبل بزوغ الحضارة بكثير. وليس من المبالغة أن نقول إن على الرضيع في السنوات الأربع الأولى من حياته، أن يلخص مائة ألف من سني التطور العقلي، أثناء انهماكه في ملائمة نفسه لسنن المدنية. فطبيعته الفطرية تتعارض وتلك السنن تعارضًا تامًّا من جميع النواحي، خلقية وجمالية، بل وصحبة أيضًا، فلا عجب إذَنْ أن تحف بالصعاب جهوده لجعل طبيعته ملائمة للحياة المحيطة به، فهو لا يرى مانعًا من أن يعض كل ما تقبض عليه يده أو يتلفه، حيًّا كان أو ميتًا، كما أنه لا

اعتبار لديه لممتلكات مَن عداه أو إحساساتهم. فعقله الصغير تومض فيه نزعات وأوهام غامضة، لو خطرت بعضها لكبير لعدت شيئًا فظيعًا. ولكنا دفنّا تلك النزعات في نفوسنا ونسيناها منذ أمد بعيد فأصبحت الآن لا شعورية، ولذا لا نقدر المعنى الحقيقي لما يبديه الأطفال الصغار من العلامات الدالة عليها، بل نتجاهلها بكل الطرق الممكنة فننظر إليها نظرة الاستخفاف عادة، أو نعتبرها من قبيل المضايقات. غير أنها عند الطفل أبعد ما تكون عن الدعابة. فحين نهزأ من ثورة غضبه الوحشية التي قد تكون فتاكة، لا بد أن حنقه علينا يصل إلى حد اليأس الفاجع، ولذا فإنا، نظرًا لكبتنا لانفعالاتنا، كأننا بحاجة إلى مجهر نرى به انفعالات الطفل ونفهم قيمتها الحقيقية له. وإن الولد الصغير، الذي يستقبل أخاه الحديث الولادة بالصياح في وجهه قائلًا «اغرب عني وإلا قتلتك» قد يدهشك قليلًا، ولكنا لا يخطر ببالنا في الوقت نفسه، أن هذا الذي يملأ الطفل، هو نفس الشعور الذي استولى علينا، عندما زارتنا مناطيد زبلين في مدينة لندن أثناء الحرب الأولى.

ثم هناك أيضًا مسألة الحياة الجنسية عند الأطفال، وهي مسألة شائكة لن أقول عنها إلا النزر اليسير في هذه المناسبة. فتلك الغرائز تختلف لدى الأطفال اختلافًا بيّنًا عن رأينا نحن الكبار في الأمور الجنسية، ولكنها مع ذلك تشبهها شبهًا كبيرًا في بعض النواحي. فهي تمثل عالمًا مليئًا بإحساسات غريبة، وهواجس غامضة خفية، ولذات عجيبة تتولد عن حركات مستترة. وتلك الاضطرابات المثيرة ترتبط كلها بعلاقة الطفل بأبويه ارتباطًا وثيقًا، وفوق ذلك تختلط بالنزعات العدوانية والأحقاد

الغضبية التي أشرت إليها منذ قليل. فتؤدي، لهذين السببين، إلى أنواع كثيرة من الفزع والخوف لا يسلم منها إلا الأطفال القلائل، ولا يمضي عليها زمن طويل حتى تخلق شعورًا عميقًا بالخطيئة. نرى إذَنْ مصدر الكفاح الباطني الذي لدى الطفل، وكيف يعسر عليه الاحتفاظ بالتوازن في موقفه وسط كل تلك العوامل المربكة.

قد يكون رأيكم فيما قلته، أني بالغت من غير ما شك في أهمية ما في نفس الطفل من كفاح ومشكلات. ولذا أقول إنه لو صح نصف ما قلته، فماذا هناك من فرصة لأي شخص كي يصبح عضوًا عاملًا في الهيئة الاجتماعية متمتعًا بالسعادة، مليئًا بالثقة؟ وأُجيب على هذا السؤال بسؤال آخر وهو كم منا يصلون إلى هذا؟ إنك لو اختبرت ما يدور في خلد امرئ ما، كما يفعل المحلل النفسي، لرأيت أن من النادر وجود تلك السعادة المبنية على الثقة بالنفس والتي يزعم الناس أنها أمر طبيعي شائع. بل إن ما تراه هو درجات متفاوتة من التذمر الشخصي، والقلق الذي يحدد جهود المرء، حين يحاول الاحتفاظ بثقته في المآزق، والتعلق المزعزع بأذيال السعادة. ومع هذا فإني أسلم رأسًا أن ما ذكر يقنّع ويستر بطرق عديدة. وإني أسائلكم مثلًا، ما نسبة حالات الزواج الناجحة حقًّا، لا نجاحًا ظاهرًا أمام الملأ، بل التي يسودها دائمًا التفاهم المتبادل والسعادة المشتركة؟ فإن الناس في العادة يكونون على وفاق ما، إذا لم نتعنَّت في المستوى المطلوب، وما دام كل محتفظًا بشروطه الخاصة، حتى إذا ما هدمت تلك الشروط تلاشى الشعور بالثقة، تلاشيًا كثيرًا ما يكون فظيعًا.

وكم من الناس لا يريعهم التفكير في ضياع وسائل معاشهم، بل ما هو أكثر من ذلك، وهو فقد أحبائهم؟ إن المحن محك الصحة العقلية، وما أكثر ما ينتاب الإنسان من شكوك في جدوى كفاحه في الحياة. وليس الناس الذين قد تأصل في نفوسهم وجل دائم من الحياة بالقلة التي قد تظنونها أيها المرحون. ولعلكم تلاحظون أيضًا أني فيما ذكرته قد تحاشيت تحاشيًا تامًّا ذكر شيء عن أنواع الاضطرابات العصبية المنتشرة انتشارًا ذريعًا، كالهموم وضيق الخلق والأرق والمخاوف، وعادات ضحايا الخمر والمخدرات، ودع جانبًا ذكر الكلمتين المريعتين «الجنون» و «الانتحار». نعم، إن قوة اللا شعور لحقيقية وعظيمة.

لنطرح الآن الموضوعات المقبضة، ونختم حديثنا بخاتمة إيجابية، فإني أود أن تخرجوا بفكرتين واضحتين: أولاهما تلك الفكرة التي أحدثت انقلابًا في الرأي، والتي تقول إننا لا نعرف من عقولنا إلا اليسير، وإننا في كل لحظة مسوقون بقوى تموج في أعماق كياننا ولا نعلم من أمرها مثقال ذرة. تلك فكرة تحتاج وحدها إلى شيء كثير من الروية والتأمل. والثانية التي أذكركم بها هي، أن تلك المنطقة اللا شعورية الشاسعة، في حالة من الكفاح الدائم، إذ إن القوى الفطرية الدافعة تسعى من طريق الذات للتعبير عن نفسها بشكل ما، والذات لا تفتأ تعارضها أو تفرض عليها مختلف القيود. فكلمتا «الكفاح اللا شعوري» تلخصان لنا معظم تعاليم التحليل النفسي. ففي الحالات العادية تفيض الطاقة اللا شعورية، حرة لحد ما، إلى العقل الشعوري، بعد تعديلها بما يسمونه الإعلاء، وهناك تأخذ في توجيه اهتمامنا ونشاطنا، إذ هي

الذخيرة العظمى لشخصيتنا رغم أننا لا نفطن لوجودها. أما في حالات الشذوذ، وأقصد بها أغلب الحالات، فإن تلك الطاقة اللا شعورية تخفق في الاهتداء إلى ذلك الطريق المرغوب، فتلجأ مرغمة إلى طرق ملتوية، حيث تعكر صفو الشخصية. وهذا أكبر سبب في نقائص الحياة الإنسانية ومنغصاتها التي تفوق الحصر، والتي تتمثل في سخط الأفراد وشقوتهم، وفي آفات حياتنا القومية والدولية.

* * *

الفصل الخامس

الأحلام

سأحدثكم الليلة عن الأحلام، وأتوقع أن الكثيرين منكم سوف ينهضون لساعتهم عند سماع تلك الكلمة ليسكتوا المذياع. فهؤلاء الذين لا يعدو اهتمامهم الماديات لا يُنتظر أن يطيقوا دراسة شيء على النقيض منها تمامًا. وأي شيء أبعد عن الماديات وأقل صلة بالحس من الأحلام؟ حتى إنه ليحق للإنسان أن يتساءل عن إذا كانت دراستها تساوي ما يصرف فيها من عناء، وعما إذا كان الأجدر أن ننصرف عنها بتاتًا كما ينصرف كثير من أصحاب العقول العملية عما يسمونه «صيد الأطياف» **Spook Hunting** وتصادفنا هنا في مستهل حديثنا أول نقطة تسترعي الاهتمام في موضوع الأحلام، فليس من العسير علينا، على ما أظن، أن نرى الناس وقد انقسموا حيالها إلى فريقين. فبعضهم، وهم الذين يصمون آذانهم عن حديث الأحلام، ينظرون إليها نظرة الاحتقار، معتقدين أنهم على حق، فلا يعيرونها مثقال ذرة من التفكير، وإذا سُئلوا عن رأيهم فيها قالوا إنها هراء لا تعقل فيه من أثر مخ متعب،

وإنها في سخفها وخلوها من المعنى تشبه هذيان المجانين. وربما كان هذا التشبيه الأخير جديرًا بأن نتتبعه قليلًا. فمنذ خمسين سنة قال أحد أساطين الأطباء في لندن لزملائه: «استقصوا كل ما هنالك عن الأحلام، تفهموا شيئًا عن الجنون»، ولكن هؤلاء الزملاء قابلوا عبارته بالإهمال والازدراء. ولا شك أنهم ظنوا أن من الخرق أن يحاولوا فهم شيء خالٍ من المعنى كالأحلام أو هذيان المجانين. وهؤلاء الزملاء يمثلون بلا شك أغلبية الناس. ولكنَّ آخرين يشعرون نحو الأحلام بميل يشوبه شيء من النفور، ولو أنهم لا يستطيعون تبرير موقفهم هذا، فكثيرًا ما يساورهم التفكير فيها، حتى إن حلمًا واضحًا أو وجدانيًّا يرونه في الليل، ليؤثر فيهم طيلة النهار التالي، ويشعرون بأن له مغزى غامضًا. فهم يرون أن للأحلام معنى، وأن لها مصدرًا، وأنها لا بد لها من سبب بل ومن غرض. وكثير من هؤلاء يبالغون في تأثرهم بالأحلام، لدرجة الخرافة الصرفة، فيفسرون أنواعًا منها تفسيرًا ما له من أساس، وينسبون إليها الدلالة على المستقبل، ويستخلصون منها إشارات يسترشدون بها في تصرفاتهم. وكلكم لا بد تعرفون أناسًا يراهنون أو يقامرون استنادًا إلى أعداد أو إشارات يستمدونها من الأحلام، ويؤجلون أسفارهم بسبب بعض أحلام، وهكذا. على أنه مهما تكن النتائج التي نستخلصها من دراسة الأحلام ذاتها، فمن الطريف ملاحظة وجود هذين الفريقين من الناس: أولئك الذين يزدرونها ويعتبرون الاهتمام بها من الخرافات، وأولئك الذين يشعرون أن لها معنى خفيًّا وأنها قد تكون مهمة.

ولا محيص للإنسان عن أن يتساءل عما بين الفريقين من اختلاف

جوهري وعن السبب في أن الأحلام تثير هذين الموقفين المتعارضين، ولهذا أُضيف إلى ما ذكرته عن هذين الموقفين، أن غالبية الناس في يومنا هذا، تنتمي إلى الفريق الأول على ما أظن، أي الفريق الذي يزدري الأحلام. ومما هو جدير بالذكر أن العلماء متمسكون بهذا الموقف تمسكًا شديدًا، بما فيهم هؤلاء الذين يدعون علمًا خاصًّا بالمخ أو العقل، أما الفريق الآخر وهو الذي يشمل الكثيرين ممن يعتقدون في الخرافات، فجلهم من الطبقات التي لم تنل حظًّا من التعليم. ولم يكن الأمر كذلك دائمًا، إذ كانت الغالبية العظمى من الناس منذ ثلاثمائة سنة مضت تأخذ بالرأي الثاني القائل بأن الأحلام لها أهمية خاصة.

وإذا رجعنا في التاريخ إلى أبعد من هذا، وصلنا إلى وقت كان كل شخص فيه يعتقد هذا الرأي، وكلما كان الشخص متعلمًا ازداد اهتمامًا بالأحلام، وبعبارة أخرى كان الموقف إذ ذاك على عكس ما هو الآن تمامًا.

فما السبب في ذلك التحول الغريب؟ هناك من الأسباب الوجيهة ما يجعلنا نقرنه بنشأة العلم الحديث، الذي ولد منذ ثلاثة قرون، ثم اطرد تقدمه وانتشاره اطرادًا هائلًا في القرن الماضي، فضلًا عن أن ما ذكرته الآن عن تلك المقابلة التاريخية بين الرأيين ينطبق كذلك على اعتقاد الناس في الشعوذة والجن والسحر والعرافة وما شابهها، فكل الناس كانوا في الأزمان السابقة يعتقدون في تلك الأشياء وكان اهتمامهم بها يطرد وزيادة تحصيلهم في العلم، أما الآن فقد انعكست الآية وأصبح الاعتقاد فيها من شيم الجهلاء.

والآن أسمعكم ما بين مستريح وآسف، تقولون إن كل هذا يعطينا الإجابة عن السؤال إن كان للأحلام معنى أو أهمية، إذ لو صح أن العلم الدقيق يتفق تمامًا مع الاعتقاد المتزايد في تفاهة الأحلام وخلوها من أي معنى فمن العبث إذَنْ أن نقول كلمة أخرى عنها.

وإنه ليبدو حقيقة كأننا كنا نضيع وقتنا سُدى في معالجة موضوع يزيده الناس ازدراء كلما ازدادوا علمًا، غير أن المسألة ليست بهذه البساطة. نعم قد يقتنع العلماء بتفاهة الأحلام وبتجردها من المعنى، إلا أن العلم ذاته لا يقر ذلك، فليس من الروح العلمية في شيء أن يقال إن شيئًا ما تافه أو مجرد من المعنى. أما عن خلوها من المعنى فذلك مستحيل بالدليل القائم من محض وجودها. أما عن تفاهتها فالأمر لا يتعلق بوجهة النظر فحسب، بل يتوقف إلى حد كبير على ما لدينا من معلومات عنها. فلقد كانت العلامات التي على أجنحة البعوض تعتبر تافهة لا تستحق الاهتمام، حتى اتضح ما للصلة بين تلك العلامات ومرض الملاريا من أهمية، وبذلك أصبحت تلك العلامات ذات أهمية حيوية لكل سكان الأقاليم المدارية. وهنا تنفتح أمامنا فرصة تسترعي الاهتمام حقًّا. فليس من المستحيل عقلًا أن يكون موقف العلماء نحو الأحلام ناشئًا عن أسباب إنسانية لا علاقة لها بعلمهم، وكثيرًا ما برهنت الثقة البالغة بالنفس على أنها سراب خادع في العلم وفي غيره، على حين أن الكشوف الهامة قد تجيء غالبًا على غير انتظار. فلنفتح عقولنا إذَنْ إن استطعنا، ولنكن على استعداد لأن نتقبل حتى ما لم يكن متوقعًا، فلن تكون هذه أول مرة يضل فيها العلم بتجاهل الحكمة المألوفة لسواد

الناس، وإن ذلك لينطبق بصفة خاصة على علم النفس.

فمن ناحية لا بد أن يكون للأحلام معنى بالطبع، أي أنها تقبل التفسير المعقول عندما نعلم عنها القدر الكافي. وبهذه الطريقة يكون لهطول المطر معنى. ولكن يهمنا أكثر من ذلك أن نعلم إن كان للأحلام مغزى بالمعنى الضيق مثلما أن حديثي إليكم له معنى، وكذلك أغلب أفكارنا.

لقد يحدث أن يصادف المرء في بعض الأحيان أحلامًا واضحة الدلالة، فكثيرًا ما لُوحظ أن المستكشفين الذين يجوبون الأصقاع القطبية ويحرمون بسبب ذلك من كثير من المتاع حرمانًا بالغًا يغلب عليهم أن يروا أنفسهم في أحلامهم ينعمون بأكلات شهية في مطاعمهم التي ألفوها وأحبوها. كما أن الأطفال كثيرًا ما يحلمون أثناء الليل أنهم يتمتعون بما حرموا منه أثناء النهار، كمشهد ترويض الحيوان (السيرك) وغيره. ويروي فرويد قصة طريفة عن صبي كان مكلفًا بحمل سلة من الفراولة إلى جده، هديته في عيده ميلاده، فسُمع ذلك الصبي في نفس الليلة يتمتم في حلمه: «لقد أكل جوني الفراولة جميعها»، فكأن الحلم قد أعاد الأمور إلى نصابها. ولا نكاد نجد في هذين المثالين مناصًا من استنتاج صلة بين حوادث النهار والليل قائلين: «نعم إن هؤلاء المساكين يحاولون أن يعوضوا في عالم الخيال ما حرموه في عالم الحقيقة». فإذا سلمنا بتلك النتيجة خطونا خطوة جريئة واسعة؛ إذ إننا بذلك ننسب للعقل أثناء النوم عملًا مفهومًا ذا غرض معين ذلك هو استخدام الخيال لتخفيف وقع الخيبة، ونكون عندئذ معترفين للأحلام بوظيفة معينة،

وهي تلطيف الآلام التي نصادفها في عالم الحقيقة، ومفترضين أن الأفكار المسببة للاضطراب تستمر من اليقظة إلى المنام، وأن جزءًا من العقل يستمر أثناء النوم في نشاطه بحيث يستقبل تلك الأفكار ويتخيل نقيضها تمامًا.

فكأن الحلم عندئذ أشبه شيء بملاك يهمس في أذن الطفل قائلًا: «نَمْ هانئًا سعيدًا، فليس صحيحًا أنك قد منعت الذهاب إلى مسرح ترويض الحيوان. لا. لا، أنت هناك فعلًا فانظر ما يحيط بك من بهجة وسرور».

ولكن مهلًا مهلًا. إننا في الحق نبني نتائج بعيدة المدى تكاد تجاوز حد المعقول على أسس واهية. فالأحلام التي من هذا القبيل نادرة جدًّا. انظر إلى الغالبية العظمى من الأحلام وكلها أضغاث حافلة بالأفكار المستحيلة المتناقضة الخالية من المعنى، والتي لا نعلم من تأويلها قليلًا أو كثيرًا. أو تأمل الليالي التي تعكرها أحلام الهموم والاضطراب وأحلام الرعب والاشمئزاز والفزع التي لا بد قد مارسها أغلب الناس يومًا ما، فماذا كان الملاك يعمل حينئذ؟ لقد تخبطهم الشيطان من المس كما يقال. إن نظريتنا الجميلة السابقة لتتلاشى كالضباب أمام تلك الأحلام، ولكن رغم هذا كله يرى التحليل النفسي أن تلك النظرية اللطيفة صادقة لا في الأحلام النادرة التي شرحتها بها فحسب، بل في كل حلم يراه إنسان. لا بد أن هذا يبدو لكم كهذيان المحموم. ولكني أرى أن الوقت قد حان لنسأل علماء التحليل النفسي إن كان لنظريتهم، لا للأحلام فحسب، أي معنى مفهوم؟ ومَن يدري فلعل لجنونهم سببًا

معقولًا، فأناشدكم أن توسعوا صدوركم وأن تستمعوا لما يقولون.

أظننا كلنا نوافق أولًا على أن النوم الخالص من الأحلام هو النوم المجدد للنشاط والمفيد للصحة، فكأن الأحلام إذَنْ لا بد لها علاقة بما يزعج النائم. نعم قد تعكر نوم الإنسان عوامل جسمية كالألم أو الضوضاء أو الأفكار أو الهموم المقلقة المستمرة من اليوم السابق، كما أن الشخص العميق النوم قد يستطيع أن ينام خلوًا من الأحلام وسط كثير من الضوضاء، والشخص الخفيف النوم يحتمل أن يشعر بعض الشعور بمتاعبه حتى أثناء نومه. ولكن ما السبب في أن خفيفي النوم يشعرون بمتاعبهم ذاتها أحيانًا، بينما يرون أحلامًا بدلًا عنها في أوقات أخرى؟

إن هذا ليدل على أن الحلم يختلف عن المتاعب التي تعكر صفو النوم، والأرجح أن يكون من قبيل رد الفعل لها. وفي الأحوال البسيطة قد نلاحظ من غير صعوبة أن الحلم يمنع الاضطراب، فإني أذكر من أيام الحرب أن مرضاي كثيرًا ما عجزت عن إيقاظهم الأصوات المرعبة المنطلقة من مدافعنا وقت الغارات الجوية، بل كانوا يحلمون أنهم يستمعون إلى ضوضاء غير مؤذية كصوت قاطرة أو ما أشبهه، وبذلك استطاعوا الاحتفاظ بنومهم. ولقد صادفتني حالات كثيرة لنائمين متعبين لم يوقظهم رنين الساعات الدقاقة بل رأوا بدلًا عنها في نومهم أنهم في مكاتبهم أو في غرف الدراسة، كأنما وفروا على أنفسهم بذلك مشقة الاستيقاظ وجهد الذهاب إلى العمل. إن خلف ذلك الستار الذي ترتسم عليه الصورة الخيالية، التي يرى فيها الإنسان نفسه منهمكًا في

عمله بمكتبه، توجد من غير شك رغبته في أن يكون حاضرًا هناك من غير أن يتكلف عناء النهوض والانتقال هناك. فهو إذَنْ التجاء إلى الخيال يعطي مجالًا لتحقيق الأماني. وإنا لمدينون بنظرية الأحلام الحديثة واللا شعور للأستاذ فرويد، وقد أتيتكم بخلاصتها فيما سبق من كلامي. فنظريته هي أن للأحلام غاية أو وظيفة وهي إبعاد ما من شأنه أن يعكر صفو النوم، ولذا تُسمَّى حارس النوم. نعم إننا كثيرًا ما نرى أحلامًا مزعجة، ولكن إذا دققنا النظر وجدنا أن سبب الانزعاج ليس من الحلم بل من الأفكار والهموم التي يحاول العقل النائم أن يبعدها بتحويلها إلى حلم سار غير ضار. وكثيرًا ما يعجز عن ذلك فتستيقظ حينئذ في حالة انفعالية سيئة أو مرعبة. ومعنى ذلك أن الأفكار المزعجة قد انتصرت وعجز العقل عن تحويلها إلى حلم سار وبذلك يستيقظ. ولا شك في أننا في اليقظة أقدر كثيرًا على كبح هذه الأفكار السيئة، وغالبًا ما نقذف بها بعيدًا عن الأنظار، أي أننا بعبارة أخرى، نحتبسها في اللا شعور عن طريق «الكبت».

ويذهب فرويد إلى أن جزء العقل النائم الذي ينشئ الأحلام يمنع تأثير الأفكار المزعجة بطريقة غاية في البساطة، ذلك أن يتمنى أن تكون الأمور على غير تلك الحال، ثم يتخيل تلك الأمنية حقيقة واقعة. فهو يقول: «إن كل حلم يمثل تحقيق رغبة لا أكثر ولا أقل». فتلك بلا شك أبسط طريقة لمعاملة فكرة غير سارة، والشيء الوحيد الذي يؤسف له أنها لا تنجح غالبًا في الحياة الحقيقية. فالمرء عندما تضيق الدنيا في وجهه لبطالته من العمل يطلق العنان لخياله، ويرى نفسه في وظيفة

مريحة وفيرة الكسب ذات مستقبل باسم. والشاب السيئ الحظ في غرامه يتخيل أنه يخطب ود فتاة حسناء فتستجيب إليه عن طيب خاطر، فما أجمل كل ذلك. وعلى رأي المثل القديم «لو كانت الأماني خيولًا لركبها الفقراء»، وفي هذا خلاصة الموضوع كله.

إني واثق من أنك سوف تقول «نعم كل ذلك معقول، وإني أستطيع أن أفهم كيف تنطبق تلك الفكرة على نوع معين من الأحلام، كأحلام كاشفي الأقاليم القطبية الذين يضنيهم الجوع فيحلمون أنهم في فندق فخم، أو كالطفل الذي لم يجب إلى ما يريد من الذهاب إلى مسرح ترويض الحيوانات، فيحلم أنه هناك فعلًا، وكذلك الأحلام التي تحفظ علينا نومنا إذ تحول الضوضاء المقلقة إلى شيء آخر، ولكن ذلك لا ينطبق إلا على عدد يسير جدًّا من الأحلام، فما بال الغالبية العظمى منها، وهي التي تحدث فيها أنواع شتى من الأمور المكدرة، والتي قد نستيقظ منها متضايقين أو راجفين؟ إن تطبيق النظرية هنا من الحمق بمكان، إذ تنهار بشقيها، فلا نومنا حُوفظ عليه، ولا بدا في تلك الأحلام أي أثر لتحقيق رغبة ما. غير أنكم مررتم هنا مرور الكرام على كلمة واحدة صغيرة فيما أعطيته من وصف لنظرية فرويد، فهو لا يقول إنه من السهل أن نتبين أن الأحلام تحقيق رغبات، ولو كان ذلك واضحًا لما ضيعت وقتكم بالحديث عنه، ولكنه يقول إنها تمثل تحقيق رغبات، وهو يعني بذلك أن الأحلام، فيما عدا بضعة الأحلام البسيطة التي ذكرتها آنفًا، لا تؤول بما يبدو منها ظاهرًا، بل هي زي التنكر الذي تلبسه الأفكار الأخرى. ولقد رأت فتاة في حلمها زرافة ذكرًا ترقص

في دائرة، فاعترضت طريقه هرة، فرفسها وقلبها على ظهرها، فما هذا الهراء، ولماذا نعير ذلك الحلم السخيف أي اهتمام؟! ولكني مع هذا سألتها عن الأفكار التي تستدعيها في ذهنها فكرة الزراقة، فأجابت: «إن له عنقًا طويلًا، وذلك يذكرني بشخص لطيف له عنق طويل، ولكنه متزوج بامرأة كالهرة[١]» لاحظ هنا كلمة لكن؟ فلولا ذلك الزواج لكان ذلك الشخص طليقًا حرًّا ليقدم إلى صاحبة ذلك الحلم «دائرة» أي خاتم زواج. يبدو لنا الآن أن ذلك الحلم يحوي في ثنايا هرائه بعض المعنى. ذلك المعنى الذي لم تكن الفتاة لتقبله عن طيب خاطر، وعلى الأخص لأنه يتعلق بأفكار أخرى لم تكن على استعداد لأن تواجهها بأي حال من الأحوال. ولأعطكم مثلًا آخر. لقد رأت سيدة في حلمها أنها تركب مع رجل معين في عربته التي يجرها جواد من نوع يُسمَّى بالإنجليزية (باي)[٢] حتى إذا وصلا إلى تقاطع الطريق بالسكة الحديدية، رأت لوحة للتحذير ليس عليها سوى كلمة «قريب». وأتى القطار مندفعًا، فحاول الرجل اجتياز القضبان بالعربة ولكن الجواد رفض وأدار وجهه في آخر لحظة فأنقذ حياتهما. ولقد استدعى الرجل في ذهنها ابن عم لها كان قد خطب يدها أثناء رحلة في عربة. واستدعت كلمة «قريب» أحد أعضاء الأسرة الشديدي القرابة، وكانت تعتقد أن من الخطأ التزوج من أحد أعضاء الأسرة القريبين، نظرًا لما في ذلك من الخطر على الأطفال ولذا رفضت خطبته رغم حبها الشديد له. وكان اسمها قبل الزواج

(١) في الإنجليزية تشبه المرأة الخبيثة السليطة اللسان بالهرة، فيقال إن فلانة هرية الطبع.

(٢) Bay.

«باي»، والجواد الذي من نوع «الباي» والذي أنقذ حياتهما في الحلم يمثل صاحبة الحلم ذاتها، وبذا يصبح الحلم حافلًا بالمعنى بمجرد أن يفهم المرء ذلك التنكر الطفيف.

وهكذا قد تكون فكرة أو صورة عقلية زيًّا تنكريًّا لأخرى دفينة، أو كما يقال، مطرودة من العقل. فلماذا تثير تلك الفكرة البسيطة كل تلك المعارضة؟ أما نستخدم اللغة في كثير من الأحيان لإخفاء أفكارنا عندما نكلم أناسًا آخرين؟ ذلك ما يحدث كل يوم في البرلمان والمؤتمرات الدولية إن شئت أقل المناسبات خطرًا. ولقد قال متهكم مرة إن فائدة اللغة هي إخفاء الأفكار، ونحن نفعل ذلك لا عمدًا فحسب ولكن عن غير قصد أيضًا. فأي شخص لديه بعض الاستعداد لعلم النفس يسهل عليه في كثير من الأحيان أن يقرأ بين السطور في خطاب، وأن يستنتج من المكتوب أفكارًا غير مكتوبة، بل مستترة وراء الكلمات الموجودة فعلًا. غير أن المدهش حقًّا هو أن عقولنا في بعض الظروف، كما في النوم مثلًا، تخترع أفكارًا وصورًا عقلية لتخفي عنا أفكارًا أخرى تحاول الظهور فيتجاهلها جزء آخر من العقل. إن ذلك ليبدو في الحقيقة مبهمًا، ومع ذلك فليس هناك أسهل من إثبات أن الأحلام تتألف من أفكار محولة أو مقنعة.

وهنا ينهمر وابل من الأسئلة، فما هي الطرق المختلفة التي بها تتحول الأفكار المستترة؟ وهل لذلك التحول قواعد منتظمة؟ وما هي الأسباب المحتملة لتلك العملية المعقدة؟ وأي الأفكار تضطر لأن تتنكر ذلك التنكر التام؟ وأهم من ذلك كله أهناك سبب ما لأن تتنكر

فكرة جميلة، كتحقيق رغبة في عالم الخيال؟ سأحاول أن أجيب على تلك الأسئلة، ولكنك قد تحب أولًا أن تعلم شيئًا أكثر عن كيفية دراسة الأحلام للوصول إلى تلك الأفكار المستترة، فليس ذلك بالأمر العسير، وتستطيع تجربته بنفسك، فما عليك إلا أن تقسم الحلم إلى أجزاء مختلفة، وتطبق على كل جزء طريقة التداعي الحر، التي ابتكرها فرويد، والتي تكلمت عنها في الحديث الأول، وبعبارة أخرى تركز فكرك في كل جزء من أجزاء الحلم على التوالي، من غير أن تحاول التفكير، وتلاحظ المعاني والذكريات التي تخطر ببالك، وقد يكون الأفضل أن تكتبها، ثم تجمع كل نتائجك وتستعرضها في ضوء ما تعرفه عن نفسك.

وهناك طرق محددة واضحة تتخذها الأفكار المستترة في تنكرها، منها أن تخلط فكرتين معًا فتصبحان فكرة واحدة، ويحدث ذلك أحيانًا في الكلمات بل الأسماء أيضًا. مثلًا اسم «إيستجيت»[١] الذي ورد في حلم من الأحلام، اتضح أنه متعلق بحادثتين، إحداهما وقعت في بلدة (ايستبورن) والثانية في بلدة (مارجيت) والفكرة المستترة أشارت إلى شيء مشترك بين الحادثتين. وفي أحوال أخرى ينتقل الاهتمام أو الانفعال الرئيس من الفكرة التي يتصل بها أصلًا إلى فكرة أخرى أقل أهمية فينزعج صاحب الحلم مثلًا، لا من الخطر الحقيقي بل من مسألة فرعية غير مهمة. وهناك أنظمة أو تدابير أخرى، من أمثلتها استعمال الرموز أو طرق التنكر المعتادة، ومعرفتها تسهل تأويل الأحلام.

والأفكار المستترة تصدر عن لب مركزي مكبوت أبدًا، أي ينتمي

---

(١) Eastgate.

إلى المنطقة اللا شعورية من العقل، وليس من الضروري طبعًا أن ينطبق هذا على الفكرة المزعجة التي كانت في الأصل سببًا في الحلم. ولكن الظاهرة الغريبة التي كشفها فرويد في تركيب الأحلام، وهي من أبدع الكشوف، أن العقل يعامل الأفكار التي تحاول إزعاج النوم معاملة ملتوية. فهو أولًا يخترع علاقات تربط تلك الأفكار برغبة لا شعورية مكبوتة منذ الطفولة، ويتخيل تلك الرغبة في دور التحقيق، ثم يحولها بطريق التنكر التي تحدثت عنها. تلك عملية غاية في الغرابة ولكنها من حسن الحظ تفيد علماء النفس؛ إذ تمهد لهم سبيل الوصول إلى أعمق طبقات العقل، وإلى أعز أماني الشخصية الإنسانية. وإن معرفتنا بما تدور حوله أحلام أي إنسان لتساعدنا مساعدة لا نظير لها على التغلغل في أعماق الأسس التي يقوم عليها خلقه، وفي هذا يقول فرويد إن الأحلام هي أهم طريق يأخذ بيدنا إلى اللا شعور. فلا عجب أن يظل ذلك الجزء من العقل الذي له تلك الحرمة الشخصية الكبيرة مستترًا متنكرًا، حتى في النوم.

يتضح إذَنْ أن الأحلام تحقيق رغبات الطفولة، وتتركب من الرغبات التي توجه سلوكنا وتؤثر فيه أكثر من سواها على غير شعور منا منذ أوائل أيام طفولتنا، إلى الوقت الحاضر، وهي لا تنبئ بالمستقبل كما كان الاعتقاد سائدًا، ولو أنها تصدق في كثير من الأحيان، إذ إن رغباتنا الشديدة تلح دائمًا في أن تتحقق، وقد تفلح أحيانًا فيصدق عليها إذَنْ المثل القديم القائل بأن الحوادث القادمة ترسل ظلها أمامها. ولكن دلالة الأحلام ليست مقصورة على صاحب الحلم وحده، فإن الرغبات

الشديدة التي تنشأ عنها الأحلام، ميراث لكل الجنس الإنساني، وفيها لمحات عامة عن تاريخ العقل الإنساني وتطوره في الأيام الأولى. فالأساطير والقصص والخرافات وغيرها من نتاج الخيال تُنسج على نظام واحد، ويسهل على الإنسان فهمها إذا ما ألم بتفسير الأحلام. وإذا حاولت دراسة الأحلام دراسة جدية رأيت أنها تفتح مشكلات لم تكن خطورتها على البال. ويمكنني أن أجمل ما حاولت إقناعكم به في جملة قصيرة جدًّا، فإن ما كشفه فرويد عن الأحلام يتلخص في أن مغزاها بالضبط مغزى أحلام اليقظة بالنهار، فسواء أكان حلمنا بالليل أم بالنهار، فما نفعله في الحالتين هو التمني. فما أبسط كل هذا، ولكن ماهية ذلك التمني في مصادره العميقة أمر آخر جد مختلف. ولقد أدت دراسة الأحلام بفرويد لأن ينشئ فرعًا جديدًا كاملًا من علم النفس أخذ يقلب كل معتقداتنا السابقة عن أنفسنا رأسًا على عقب، حتى إننا لنستطيع أن نقول إن الأحلام قد انطبق عليها المثل السائر وهو «إن الحجر الذي رفضه البنّاء قد أصبح الآن حجر الزاوية».

* * *

كيف يعمل عقل الطفل؟

مشاكل نمو الأطفال

بقلم: إيمانويل ميلر

الرئيس الفخري لعيادة شرق لندن السيكولوجية لإرشاد الأطفال

الفصل السادس

ما يبدأ به الطفل

لعله من الظريف أن نحاول معرفة كم من الناس يستطيعون تذكر السنوات الأولى في طفولتهم تذكرًا يكفي لإعطاء صورة موثوق بها عن عقل الطفل ونواحي اهتمامه. فإنا حين ننظر إلى الوراء يُخيَّل إلينا أن الدهر قد مر بيده على سجل الذكريات فمحى بعضها وعفّى عن البعض الآخر، حتى يسهل علينا الاشتغال بالأمور كما هي الآن، بدلًا من تلك التي تبدو كأنها انتهت.

ولو أنك سألت أحد علماء النفس منذ ثمانين سنة السؤال البسيط الآتي وهو: «كيف يعمل العقل؟» لأخبرك عن عقل الراشد، وعن عمل حاستي السمع والبصر، وعن كيفية تفكير الناس، ولكنه لم يكن ليستطيع إجابتك عن عقل الطفل، أي عن كيفية نمو العقل منذ بدايته الغامضة في الرضيع، إلى نشاطه المعقد في الرجل. وإن عقل الطفل وسلوكه ليسببان حيرة دائمة لكل مَن تجمعهم بالأطفال صلة. لقد كنا كلنا أطفالًا يومًا ما، ولكن من العجيب أننا قلما نفهم لعبهم وسلوكهم مع الكبار.

لقد أخذنا الآن نتفهم حاجات الطفل الجسمية، وانتشرت مراكز رعاية الطفل في أنحاء العالم لمعاونة الأمهات على فهم صحة أطفالهن والعناية بجسومهم، فازداد الاهتمام بالتغذية، وأصبح ضيق خلق الطفل في كثير من الأحيان يُعزى إلى سوء الصحة الناجم من التغذية الخاطئة، إذ قد يكون هناك نقص في لبن الأم، أو أن مواعيد التغذية والنوم غير منظمة، أو أن ملابس الرضيع ضيقة تعوق تنفسه وهضمه. والحق أن صحة البدن وقضاء الحاجات الجسمية البسيطة يؤديان إلى السعادة النفسية.

وكلما رجعنا إلى الوراء في حياة الطفل وجدنا العلاقة بين العقل والجسم تزداد وثوقًا. وذكرياتنا القليلة عن طفولتنا لا يخلو الكثير منها من الارتباط بالمضايقات الجسمية وشوائب التغذية[1]. ويقول أناس كثيرون إن عملهم اليومي يختل إذا تناولوا في إفطارهم طعامًا أبغضوه منذ الطفولة. وإني أعرف رجلًا كان يعتريه اضطراب عصبي كلما رأى طبقة القشدة الرقيقة على سطح اللبن المغلي، ولما أمعن الفكر في ماضيه اتضح له أن مربية له كان يكرهها لأسباب أخرى، كانت تحتم عليه أكل تلك القشدة التي على سطح اللبن قائلة إنها مغذية ومفيدة له.

ومن الناحية العقلية العقلية المحضة تجد أن بعض الناس يعتريهم الضيق ساعات طويلة إذا قابلوا شخصًا يستدعي في ذاكرتهم شخصًا آخر كانوا يبغضونه في طفولتهم، كما يحدث ذلك أيضًا إذا زاروا مكانًا أو رأوا منظرًا يثير ذكرى حادثة وقعت لهم كانوا قد حاولوا نسيانها.

---

(١) كره الأطفال لأصناف معينة من الطعام من غير ما سبب ظاهر.

ولقد كنت أعرف بنتًا صغيرة كانت تخاف النوم في الليل؛ لأن الظل الذي كان يُحْدِثُهُ طرف عصا الستارة كان يشبه المنظر الجانبي لوجه رجل ذي لحية سوداء أرعبها في صغرها. فكم منا يفهمون حق الفهم انفعالات الطفل وهمومه، وأن رغبة لم تتحقق له قد تغير شعوره نحو الشخص الذي كان عائقًا له وسببًا في تحويل وجهته.

لقد مضى زمن طويل على طفولة الكثيرين منا، وبدت في حياتنا آلاف من نواحي الاهتمام والمسؤوليات الجديدة التي أصبحت كأنها ضباب يحجب تلك السنوات الأولى، واختفت مشاعر الطفولة أو الرضاعة تحت شبكة معقدة من الانفعالات. ولكن لا بد أن تكون هناك طريقة نعلم بها شيئًا عن تلك السنوات الأولى ونفهمها. وليس من الغريب أن يتساءل الإنسان منذ القدم عن مصدر الأطفال وعما يحبونه وما لا يحبونه. ولغير المتحضرين آراء غريبة عن أصل الأطفال، فبعضهم ليست لديهم عن الأمومة إلا فكرة في غاية الغموض، ويرون في الأطفال أشباح أسلافهم جاءت لتزور الأرض مرة ثانية. وآخرون يظنون أن الأطفال أقرب إلى الحيوانات والطيور منا معاشر الكبار، وأنهم يفهمون لغة البهائم وحفيف النسيم وحسيس النار، وأنهم لا ينسون كل هذا إلا بتقدمهم في اللغة. نحن اليوم لا نصدق تلك الأقاصيص طبعًا، رغم أننا ما زلنا نهتم بعالم الخيال الذي كنا نعيش فيه في طفولتنا. ولكنا بدأنا نؤمن بشيء آخر، ذلك هو التناسق في الطبيعة، وما بيننا وبين كل الكائنات الحية الأخرى من شبه. فإن العلماء قد درسوا كيفية هضم الحيوان لغذائه مثلًا، ووجدوا أن جسومنا تحوي عصارات لهضم الطعام

تشبه ما لدى الحيوان. ولما درسوا حواس الحيوان لم يجدوا اختلافًا بينها وبين حواسنا، ووجدوا أن مخ الفئران والقردة وجهازها العصبي يشبهان في تركيبهما العام مثيليهما عند الإنسان. كما أن التجارب التي أُجريت على عمليات التعلم البسيطة في حيوانات مختلفة كالكلاب والقردة والأطفال الصغار دلت على وجود أساس واحد عند الجميع، ورغم الفرق الشاسع في الذكاء بين الرضيع والشمبانزي النبيه، فإن كلًّا منهما يأتي أعمالًا شبيهة بأعمال الآخر مما يجعل الفرق بينهما غير كبير. فالشمبانزي إذا وضع في حظيرة وترك معه عصوان يمكن إيصال إحداهما بالأخرى، وعنقود من الفاكهة بعيدًا عن متناوله فإنه في نهاية الأمر يثبت العصوين معًا ويصل إلى الفاكهة، وكذلك الطفل الذي في الثالثة من عمره يصل إلى نفس النتيجة بنفس الطريقة.

والوليد الحديث يبدي نفس الاهتمام بالعالم الخارجي الذي تبديه الكلاب والقطط. فالحيوان يجذبه الشيء المتحرك، وكذلك الطفل يهتم بالأشياء المتحركة أكثر من الثابتة. تأمل أيضًا حركات الحبو والتسلق في أول عهد الرضيع بالمشي، فلقد درست تلك الأعمال دراسة دقيقة، دلت على أن بعض الحركات لا يمكن إلا أن تُعتبر من قبيل الرجوع إلى السلوك الحيواني. فبعض الأطفال يزعجون أبويهم بعادة الحبو على أربع بعد أن يبدأوا في المشي. ومع ذلك فليس في هذا ما يدعو إلى الانزعاج أكثر مما في إمساك الطفل بقلم بين أصابع قدمه على هيئة صنيع القردة. ولقد عُرض عليَّ منذ زمن طفل كان متأخرًا في النمو العقلي إذ كانت عقليته وهو في السادسة من عمره تشبه طفلًا دون الثالثة. ولم يكد يأخذ

يدي حتى عضها، وأخذ يقرض أطراف مكتبي، وعمد إلى كل شيء في الغرفة مما يمكن تحريكه، وأعرض عما لم يستطع تحريكه، ولم يترك شيئًا إلا خبره بفمه. وكان كثير الحركة والنشاط، حتى إن أمه ظنته نبيهًا حقًّا. ويظهر أنه مما زاد محبتها إياه أن سلوكه كان يشبه سلوك الحيوان الصغير. وهاكم مثل صبي آخر اسمه جورج وهو ذكي جدًّا وودود للغاية ولكن انفعالاته لا يكاد يمكن ضبطها، وهو شديد النهم، ولكنه إذا أكل أكلة كبيرة استقر على الأرض، وانطوى على نفسه ونام كما ينام الكلب على السجادة أمام موقد النار. ألا تظن أن هذه الأنواع من السلوك تشبه سلوك الحيوان؟ ثم ألا تظن أن هذا يدل على قرابة بين الحيوان والأطفال على الأقل؟ راقب ابنك وانظر كم مرة في اليوم يبدو من حركاته واهتمامه ما يشبه الحيوانات تمام الشبه، فالطفل الآدمي كطفل الحيوان كلاهما قد ورث عن أسلافه قوى معينة وجسمًا يعينه على استخدامها. وتلك القوى أو الغرائز كقوة الرضاع، أو الإمساك بالأشياء أو الصراخ وما إليها تعتبر على هامش الحياة العقلية. وهي إلى جانب ذلك مرتبطة بالتعبير عن الانفعالات. والغدد التي في الجسم والتي علمنا عنها الشيء الكثير في الأيام الحديثة تؤثر في نمو الجسم وفي التعبير عن الانفعالات وفي السرعة والاشتياق اللذين يتم بهما تلبية الغرائز البسيطة. والأطفال الذين يولدون بغدد مرتبكة في عملها، ينشأ فيهم شذوذ، لا في التعبير عن الانفعالات فحسب، بل في الذكاء أيضًا. فالطفل ذو الغدد الدرقية الضعيفة ينشأ مشوه الخلق خاملًا غبيًّا. وهناك غدد أخرى إذا حدث في تركيبها مرض، أسرع نمو الطفل إسراعًا شديدًا.

ألا يثير هذا مسألة وراثة الصفات العقلية الشائقة. فإذا كانت الصفات الجسمية الخاصة تورث، وإذا كانت غرائزنا وانفعالاتنا نتيجة لأجهزة جثمانية معينة تؤثر بدورها في سلوكنا، أفلا نستطيع إذَنْ أن نستنتج أن عقلية الناس يرجع شكلها إلى بعض الصفات الخاصة الموروثة؟

لقد سمعنا كلنا حكايات عن صفات عقلية في الأجداد ظهرت في الأحفاد، ولدينا أمثلة ناطقة عن وراثة القدرة الموسيقية والقدرة الرياضية[١]. ولقد اشتغل علماء النفس زمنًا طويلاً بدراسة الكيفية التي يورث بها الضعف العقلي وكيف أن عائلات ذات شهرة سيئة قد كثر فيها ضعاف العقول والمجرمون كثرة فاحشة. ولكن يجب أن أضيف أيضًا أن سلالة تلك العائلات الرديئة قد ظهر فيها عدد غير قليل من الرجال والنساء الممتازين.

وبينا نجد أن معرفة الخصائص الجثمانية الموروثة أمر سهل نوعًا، نجد أن معرفة الصفات العقلية الموروثة ليس بتلك السهولة. وربما كانت ملاحظة الآباء لصفة ما من الصفات العقلية في الطفل من قبيل التنبؤ أو الانقياد للأماني.

ولديَّ تحت العلاج أطفال كثيرون درسنا تاريخ عائلاتهم، فالبعض آباؤهم مجانين، ولكن الأطفال أنفسهم لا يبدو عليهم أي اختلال في السلوك، وآخرون لا غبار على أنسابهم، ومع ذلك تجدهم أغبياء أو فريسة للاضطرابات العصبية. ولذا ترانا دائمًا عندما تعرض علينا أطفال شاذّو السلوك، ندرس الخواص الخلقية لأبويهم وأقربائهم، بالإضافة

(١) علم الرياضيات.

إلى الحالة الاجتماعية للعائلة، والبيئة التي نشأ فيها الأطفال. فإنه ليس بالأمر الهين أن نقرر إن كانت تلك الخواص قد ورثها الطفل، أم أنها ترجع إلى السنوات الأولى، وما فيها من ضغط وكفاح وجداني بين الوالدين وأطفالهما، وبين بعض الأطفال وبعض.

وإن ما نستطيع التصريح به، اعتمادًا على ملاحظاتنا للأطفال وعلاقتهم بأبويهم وأسلافهم، هو أن الخواص المزاجية تُورث، وأنها بمثابة التربة التي ينمو فيها السلوك في المستقبل. ولأضرب مثلًا بولد في العاشرة من عمره، هادئ الطبع، متحفظ، بطيء الفهم، ولكن مقاييس الذكاء دلت على تفوقه في الذكاء. ومن صفاته الأناة والدأب على العمل، ومع ذلك فهو قليل الحركة، أي يعوزه النشاط نوعًا ما، ويميل إلى الانزواء، وهو كذلك هياب ولا ينام وحده. وفي المدرسة يجلس في الفصل وكأنه ليس به، ولا يعلم أحد بمواهبه، فهو بحاجة إلى التشجيع الدائم المستمر لإظهار مواهبه، وتراه دائمًا خائفًا من أن تبتعد عنه أمه فيحرم عطفها وحمايتها. أما الوالد فيشبه ابنه لحد كبير في حالته النفسية العامة، فهو هادئ متحفظ. وبطيء، ولكن إنتاجه العقلي قويم ثابت وهو رجل متزن احتفظ بوظيفته سنين عديدة من غير أن يبدو عليه أثر للاضطراب العصبي، كما أنه لم يظهر في صغره شيئًا من الأعراض العصبية التي تظهر في ابنه. غير أن تاريخ العائلة دل على أن الطفل لم يتمتع بالطمأنينة في حياته، بسبب اعتلال صحة والدته، حتى لقد كان يخشى أن يحرم منها في أي لحظة. وخلاصة القول في هذا المثال، أن كُلًّا من الطبيعة والتربية قد خلقت مشكلة هذا الطفل، وأن مساوئ وراثة

نوع معين من المزاج قد استمرت في حياة الطفل التي لم تكن برّة ولا مشفقة، فها هنا أم تطبق عليها عوامل خارجية قبيل وصول وليدها، حتى إذا جاء، وجب أن نذكر أن كل ما هنالك هو أن فرعًا من الأسرة اتخذ وجهة جديدة، وأن السلالة سارت في اتجاه جديد، نتيجة لاختلاط ماء الأبوين، فليس هنالك في الحقيقة بدء جديد، بل مجموعة جديدة من العوامل.

ومع أن العقل كما نعرفه في أنفسنا، لم يجئْ إلا متأخرًا في تاريخ الكائنات الحية، فإنه على ما يظهر، قد أثر كثيرًا في بناء الثقافة الإنسانية، كأنظمتنا الدينية والاجتماعية والفنية، حتى لنشعر بضرورة الاحتفاظ به وبصفاته المكتسبة عن طريق الوراثة. وإن الرضيع لا يبقى كالحيوان الأعجم الذي لا مهارة يدوية له إلا وقتًا قصيرًا. فإذا طال أمد هذه المرحلة أحس والداه أن هناك انحرافًا خطيرًا في نمو الطفل. فإذا كان للكلام والمهارة اليدوية هذه الأهمية الجوهرية في ميراثنا، وهما متوقفان على الجهاز العصبي، وحتى مع تسليمنا بأن هاتين الموهبتين تعتمدان على عضو مادي وهو المخ، فلم لا نُوَلِّ مثل تلك الأهمية أيضًا للعمليات العقلية المعقدة، التي تتمثل في الموهبة الرياضية أو الموسيقية أو الفنية؟ إن الطفل لينمو تبعًا لعوامل خارجية، وعوامل داخلية أو موروثة معًا، فالوراثة والبيئة لا يمكن فصل آثارهما كل على حدة، كما أنه لا يمكن التفريق بين الصفات العقلية والجسمية؛ إذ إن شخصية الإنسان وحدة لا تتجزأ، فما نسميه العقل هو جهود الإنسان الدقيقة المستترة لإيجاد التوافق بينه وبين حاجاته المتغيرة، وذلك ما

نشاهده في الطفل أثناء نموه. وإن الأفعال الكبيرة غير المهذبة التي نرثها في غرائزنا لتهذب تهذيبًا دقيقًا تبعًا لما نصادفه في بيئتنا من تغيرات.

سأعود الآن إلى حاجات الوليد الأولية البسيطة، لأوضح كيفية بزوغ الأشعة الأولى من الحياة العقلية، والبذور الأولية لحياته الوجدانية المستقبلة. فمطالب الإنسان والحيوان واحدة في جوهرها. ويبدأ كثير من الكائنات الحية حياته مجهزًا بما يجعله معتمدًا على نفسه، فالتمساح الصغير حين خروجه من البيضة ليس بحاجة إلى أُمٍّ تعنى به وتذرف دموع التماسيح عليه إذا ما فشل في اقتناص أول ذبابة يهم بها وهو رابض يستمتع بدفء الشمس. ولا أظنني بحاجة لأن أؤكد الحقيقة المعروفة، وهي أن الحيوانات الدنيا لا تنتظر طويلًا قبل خروجها لصيد الفريسة للغذاء والنضال في سبيل الحياة. أما طفل الإنسان فما أشد اعتماده على غيره حين ولادته، وفي شهور الضعف التي تليها، فتراه يتحسس صدر أمه بحثًا عن ثديها على غير هدى أو دراية واضحة بالاتجاهات، وليس لديه إلا فكرة ضئيلة عن أطرافه وموقعها حوله. فكثيرًا ما ترى طفلًا بدأ يدب على الأرض فإذا برأسه يصطدم بحافة المنضدة، وربما لمس بيده بقعة غير البقعة الموجعة محاولة منه لتخفيف ألمه. وإن الطفل لفي حاجة لمعونة أمه في التغذية، ولا بد له من العناية، وإلا مات تحت تأثير العوامل الخارجية، على عكس الحيوانات الدنيا، التي لا تلبث إلا قليلًا حتى تقوى على مواجهة تلك الظروف، ولكنه مع ذلك يولد مزودًا بغرائز بسيطة تعينه على جهوده الأولى للمحافظة على حياته، فما أسرع اهتدائه بنفسه إلى استدرار لبن أمه، ولو أن هذا العمل بسيط يحتاج إلى

شيء من الإغراء. وهو مزود كذلك بغريزة من أهم الغرائز وهي غريزة النوم، التي تسبغ عليه الراحة التامة وتمهد له فرصة النوم والاستجمام. وتبدأ عملها في الرضيع بمجرد أن يشبع جوعه.

وباطراد نمو الطفل تبدو مظاهر جديدة لغريزة المحافظة على النفس. ويختلف الأطفال اختلافًا كبيرًا في سرعة حلول تلك المظاهر، ولذا تترقبها الأمهات لتعرف إن كان نمو الطفل طبيعيًّا. فبعض الأطفال يزيد وزنهم قبل البعض الآخر ومنهم من يبطئ في إظهار الميل لاستطلاع ما حوله، وفي معرفته لأمه أو مربيته. ولا شك أن من المعلومات المهمة في نمو الطفل قدرته على معرفة الوجوه المألوفة وشعوره بنظام طعامه ونومه، وهي أول خطوة في تربيته. ومن المعروف أن البنات يسبقن البنين في نموهن سبقًا غريبًا، ولديَّ الآن حالة توأمين طفل وطفلة. أما الطفلة فقد تقدمت عقليتها تقدمًا كبيرًا فاقت به أخاها وتمت لها السيطرة على انفعالاتها قبله، فنشأت بذلك مشكلة في السلوك إذ حقد عليها أخوها تقدمها عليه وسبقها إياه في المدرسة، ولا سيما أن أمه كانت تعطف عليه أكثر منها. وكان رد فعله على هذا الموقف أن احتفظ بالكثير من عادات الطفولة حتى يستبقي عناية أمه التي كان يخشى أن تتحول إلى أخته النجيبة.

ولا يقتصر نمو الطفل على كبر جسمه بل إنه لتطرأ عليه تغيرات فعلية تجعل منه إنسانًا آخر. فالرضيع يختلف جهازه الهضمي عن جهاز الطفل ذي الأسنان، وأهم من ذلك أن انفعالات جديدة تظهر أو أن الانفعالات البسيطة نفسها تتعدل تبعًا لذلك النمو الجسمي. وهكذا

يتحول الرضيع الضعيف الكثير الاحتماء بصدر أمه إلى مخلوق جائع باغ ذي أسنان، إذا جاع أمر وصخب، ويداه اللتان كانتا بالأمس تتلمسان مصدر الدفء والحياة على غير هدى أصبحتا الآن تقبضان على الأشياء وتضعانها في الفم. وأصبح العالم الخارجي يمسك به ويعتبر جزءًا متممًا للذات ولم يكن كل منهما أولًا مميزًا عن الآخر. فدنيا الطفل في أول الأمر ليس فيها سوى الذات أو «أنا» مختلطة بشوائب ومتاعب بسيطة، ثم يلوح له أن تلك الأمور ليست دائمة الحدوث، فمن هذه الدنيا ما يأتي ويروح وبعض أحداثها لا يأتي عند الحاجة إليه دائمًا. فقد يكون الطفل ذات يوم ناعمًا قرير العين بالدفء، فإذا هو يحرمه فجأة، وقد يؤخذ الثدي منه قبل إتمام شبعه، ولكن صرخة من أعماق نفسه قد تستعيد كلًّا منهما، وعندئذ يشعر لأول مرة شعورًا غامضًا أن هناك شيئًا غير ذاته يعارضها في عناد أو يتغاضى عن رغباتها، ولكن صراخه يعيد إليه ما سلب كأنه موهبة سحرته فيعاود الصراخ مرة أخرى. ويصبح الطفل ملكًا أو على الأقل يظن ذلك في هذا العالم السحري الذي تغدو فيه الأشياء وتروح رهن إشارته. ومما يدعو للدهشة، أن صراخ الطفل يعبر عن يأسه واستغاثته أكثر مما يعبر عن رضاه. أما أصوات الضحك والسرور فتأتي بعد ذلك بكثير، وقد يكون من الطريف أن تتأمل تلك الحقيقة على ضوء خبرتك مع الأطفال فإنك بلا شك ستستعيد الشيء الكثير عن السيكولوجيا البسيطة للأطفال الرضع، وقد تصل كذلك إلى معرفة شيء عن منشأ الضحك.

وترتبط الأم ارتباطًا وثيقًا بعالم الطفل الغامض وما فيه من

شهوات ومشاعر، وتلعب دورًا مهمًّا فيه. فهي أقرب الهيئات إليه؛ إذ فيها دفؤه وقوام حياته، وإشباع رغباته، وهي التي تعدل رغباته البسيطة وتعين لها الزمان والمكان، ولذا تعد أم الطفل سواء أكانت أمه الحقيقية أم التي تبنته، وكذلك حاضنته، أولى عوامل التربية في حياته، إذ إنهن ينظمن أوقات الإشباع والحرمان لرغباته، ويضعن النموذج البسيط الأول لسلوكه المستقبل القائم على أساس التغذية وما يتصل بها من شهوات ومشاعر. فالأم تعين أوقات تغذية الرضيع، وأوقات نومه، وبذلك تعطي الطابع الخاص لسروره وآلامه، حتى إذا أخذ الطفل يميز الفرق بين ذاته والعالم الخارجي كان شخص أمه في أعلى مكان من عقله لأنها مرتبطة أشد الارتباط برغباته الأولية العاجلة. فهي وثيقة الصلة بحاجاته وحركاته البدنية وهي التي توجه إلى حد كبير أول فهمه للأشياء الذي يتمثل في الألفاظ وفي العبث بالأشياء. نعم إن الأم لا تخلق ذكاء رضيعها، ولكنها بلا شك توجهه وتعطيه الصبغة الوجدانية التي يصطبغ بها في النهاية. وإن أول فكرة لدى الطفل عن الأحجام والأمكنة والمواقع يجنيها من اختباره لجسم أمه. كما أن معرفته للفترات بين مواعيد التغذية تزوده بأول فكرة عن مرور الزمن في علاقته بالحوادث المتغيرة التي لا يلبث أن يقرنها بالعالم الخارجي. وفي أثناء كل هذا يصطبغ نمو معارفه بصبغة وجدانية. وإننا عرضة لأن نبالغ في الفرق بين الذكاء والوجدان، ولكن لا فرق بينهما عند كل من الرضيع والطفل. فإنا نرى الطفل يتحرق شوقًا من شدة اهتمامه حين يمد يده في ذكاء

ليقبض على شيء ما أو ليعبث بلعبة من اللعب، ويتملكنا العجب من شدة استغراقه واهتمامه بالشخشيخة التي يضربها بيده أو الخيط الذي يشده، وتلذ لنا مشاهدة غضبه أو سروره. وبالاختصار نرى أن نشاطه شديد التأثر بوجداناته المرتبطة بغرائزه. فالطفل الذي لا يقبل على غذائه بشهية قد يكون مريضًا أو لا يحب ذلك الغذاء لأسباب معينة. والواجب أن نبعد عن الطفل جهد المستطاع كل ما من شأنه أن يشغله عن أوجه النشاط الجوهرية له. فمطالب الطبيعة لا تنتظر، ويجب إشباعها من غير توانٍ أو تأجيل. ومن المستطاع بل من الواجب أن تنظم عاداتها بمواعيد منذ البداية من غير التجاء إلى الإرغام، وبأقل ما يمكن من التململ وقلق الوالدين.

وليكن معلومًا أن وجود ما يشغل الطفل يخلق له ميولًا متضاربة تؤدي إلى الاضطراب في انفعالاته، وهذا بدوره يعوق نشاطه الطبيعي الذي هو رغم بساطته حيوي له. وقلق الوالدين إذا زاد عن الحد جعل الناشئ يغالي في أهمية بعض الظواهر البدنية المعينة، كما أن عرقلة بعض تلك الظواهر بأي شكل كان يثير انفعالات ارتباطية تحفظ في الذاكرة وتؤثر في مستقبل سلوكه. فالأمهات اللاتي يعطين أهمية زائدة لإطعام الطفل أو لعملية تبرزه مثلًا يبذرن بذور الاضطراب في حياة الطفل الوجدانية ولا يبعد أن يضعن أساس اعتلال صحة بدنه أيضًا. وكذلك الأمهات اللاتي يطعمن أولادهن في غير نظام حسب الهوى أو يمسكنهم في غير رفق أو عناية عند الاستحمام أو غيره يثرن فيهم اضطرابات وجدانية ضارة بنموهم. فالطفل الذي يعود من غير

اضطراب أن يأكل في مواعيد منتظمة، وأن يراعي النظافة في الطعام لا يتأصل فيه شذوذ التغذية. أما إذا عود الطفل تناول طعامه أثناء لعبه حين يكون متمتعًا بنشاطه التلقائي فسيكون عرضة لاعتلال صحته بالتخمة في المستقبل كلما عوق نشاطه التلقائي أو حيل بينه وبين لعبته. وكثيرًا ما يقترن شذوذ التغذية بالشخص الذي كان سببًا فيه، فإذا كانت مربية الطفل هي السبب فيه كره الطفل كل المربيات بعدها. وقد رفض مريض راشد ذات مرة أن يذهب إلى المستشفى رغم حاجته الشديدة؛ لأنه كما قال يكره تعنت الممرضات في شأن طعامه، وكان هو أيضًا في صغره قد صادف من الممرضات ما جعله يكرههن ويكره أشباههن. وهكذا نجد أن مثل هذه الأخطاء تؤدي إلى ارتباطات في عقل الطفل البسيط المباشر، مما يؤدي إلى تصرفات شاذة في مستقبل حياته.

وإن الكائنات الحية لتخضع كلها لنظام منسجم ذي فترات منتظمة؛ فدقات القلب وسرعة التنفس وتعاقب النوم واليقظة كل أولئك أمثلة من ميل الحياة إلى الانتظام. وحركات الجسم الكبرى تتعاقب بين انقباض مجموعة من العضلات وارتخاء أخرى. وإذا اختل هذا النظام تعطلت الحركة. فعمل الأم يتلخص في مساعدتها للطبيعة في هذا النظام الدقيق التوقيت، وفي تنظيم النشاط التلقائي للطفل حتى يسود التوافق الطبيعي حياته. أما إذا اختل هذا النظام فإن الطبيعة تثور ويثور معها الطفل لا عقليًّا فحسب، بل جسميًّا أيضًا. فإذا ما شكا الطفل ألمًا في معدته ورفض النوم في مثل تلك الحالات المرضية التي تتطلب استدعاء الطبيب، فالذنب ذنب الأم مهما يكن عن غير عمد، لأنها قد عرقلت التعاقب المنتظم في

حياته وأثارت أول مظهر من مظاهر السخط والثورة. ولا بد لإصلاح تلك الأخطاء الأولى من جهد كبير لإعادة تنظيم تربية الطفل. فالأم أول عامل في وضع نظام حياة الطفل وتشجيعه لأنها أول مُرّبٍّ له، ثم يجيء بعدئذ دور الأب في هذا العمل الحيوي كما سنرى.

وتلك السنوات الأولى من تربية الطفل، هي المرحلة التي ترتكب فيها أخطاء يترتب عليها الشذوذ في السلوك المستقبل، وبخاصة تلك الانفعالات التي تُبديها الأم أثناء تربية الطفل، فهذه تحدث اضطرابًا في حياة الطفل الوجدانية أيضًا. وإن تلك الاضطرابات التي يسببها الوالدان لا يقف أثرها عند حد إحداث الشذوذ في حياة الأطفال فرادى فحسب، بل يتعداها إلى حياة المجموعة كلها. وإني أعتقد أن الكثير من عيوبنا ومشكلاتنا الاجتماعية يرجع إلى تصرفات الأمهات اللاتي لا يفهمن كيفية معاملة أطفالهن، وهم أعضاء الهيئة الاجتماعية في المستقبل.

وبهذا ندع جانبًا هذا الرضيع ولبن أمه لم يجف على ثغره بعد، فماذا علمنا عنه إلى الآن؟ لقد بينت صعوبة استرجاع الشخص العادي لذكريات طفولته أو فهم طبائع الأطفال من غير دراسة. وقد فهمنا الآن أن الطفل يولد مزودًا بأجهزة معينة كالجهاز العصبي الذي يحدو به إلى الاختلاط بالعالم، ويؤدي إلى استثارة تلك الغرائز التي ورثها منذ القدم عن أسلافه من بني الإنسان والحيوان، والتي لا تكفي إلا لسد حاجاته الأولية إلا أن بها قابلية كامنة لأن تنمو وتتعدل وتتهذب. وقد لاحظنا ما بينه وبين الحيوانات الدنيا من شبه يرشدنا إلى وجه آخر من وجوه الإخاء العام، ذلك هو اتصال سلسلة الكائنات الحية كلها. وأخيرًا نرى

الطفل في كل مظاهر اعتماده على أمه التي تطعمه وتحميه من الضير. وتملك مع ذلك أن توجه نواحي اهتمامه البسيطة وتعدلها إما إلى الخير، وإما إلى الشر، والرضيع حينئذ لم يكد يصبح له بعد عقل، ولكنه مع ذلك يكون معه قوى حافلة بضروب الاستعدادات. غير أن تلك الأشهر الأولى مليئة بالحوادث. فالتربية قد بدأت والوجدانات قد أخذت تتشكل وتقررت صنوف المحبة والكراهية في نفسه. وسنراه في الفصل التالي قادمًا على أول مرحلة من الحياة الاجتماعية وهي التي في قلب الحظيرة العائلية.

* * *

الفصل السّابع

الحظيرة العائلية

حدثتكم في الفصل السابق عما تزود به الطبيعة كلًّا من الرضيع والطفل الصغير، وعن حياتهما الوثيقة الصلة بالأم، وحاولت أن أبين لكم أن الرضيع، في أشهره الأولى، يكاد يكون مجرد حزمة من الغرائز والانفعالات التي لم تتخذ شكلًا محددًا بعد، وأن هذه وتلك موجهة نحو المحافظة على حياته الوثيقة الصلة بالأم التي تعينه على تحقيق ذلك الغرض. وإن الأم لذات أهمية حيوية للطفل حينئذ، حتى إنه لا يستطيع أن يميزها من نفسه، فهي مصدر الخير والسرور والراحة، ولذا نجد أن شعوره الأول بالشرور والطمأنينة والراحة مرتبط بذلك الجزء من العالم الخارجي الذي يعرف فيما بعد باسم الأم. فهي التي تزيل كل الإحساسات المكدرة له إذا كانت على بينة من واجبها، وهي التي تنظم كل أعماله وتبعد ما يشغله عن الاهتمام بها إذا كانت تتبع الطرق المثلى. فالانفعالات سارة كانت أم مؤلمة والغرائز التي تهيئ سبل الحياة المرضية والتجارب التي تبدو كأنها تعوق طريق تلك الحياة

مرتبطة بوجود الأم حين يكون عقل الطفل شبيهًا بصفحة بيضاء لم يُخَطَّ فيها سوى بضع جمل بسيطة، وعلى هذه الجمل البسيطة ينبني كثير من تأثرات الطفل في المستقبل وتأثرات الكبير أيضًا.

كل هذا يجري في عقل لم تتوفر له بعد الألفاظ التي يعبر بها عما يدور به، وإنما هذه تخط في ذلك العقل كأنها رسوم وأشكال في جهازه العصبي أو لو شئنا تشبيهًا أحسن، هي في الحقيقة طرق ومسالك عُبِّدَتْ فاتخذها السلوك المستقبل لسهولتها. ولذا فإننا نستطيع القول إن الطفل لا يكاد يصل إلى المرحلة التي يمكنه فيها أن ينتزع نفسه من أحضان أمه ليدب في أنحاء الغرفة ويمسك بالأشياء ويعض عليها ويضعها فوق بعضها ويرمي بها على الأرض، حتى يكون قد ارتسمت في عقله صورة شخص تحوطه انفعالات معينة قوية ولو أنها غير واضحة كل الوضوح. فما أكثر أن يأتي الطفل لأمه بأشياء طالبًا موافقتها، وما أسرع اكتشافه لما يسرها ويجعلها تظهر العطف، وما أسرعه كذلك في إدراك عدم الرضى في ملامح وجهها وحركاتها. تأمل حالة الصغير حين يصحو في الليل فيجد نفسه وحيدًا في سريره الخاص في غرفة موحشة وأمه في سرير آخر، يُهيأ إليه أنه بعيد عنه، أو حين يبكي فلا تحضر أمه لبكائه، وكلكم تعلمون كيف يسهل نوم الطفل حتى في الظلام حين يسمع غناء أمه ولو خافتًا ويحس يدها ولو خفيفة، ولذلك يعمل الطفل للحصول على اهتمام أمه بل إنه ليعمل على احتكاره في جشع بصرخات الضيق والحركات الهائجة التي قد تحير الأم أحيانًا إن لم تكن مصدر شقاء لها فعلًا، ولذا وجب على الأم إن كانت تود الطمأنينة لنفسها والصحة

لطفلها أن تمنعه من التمادي في تلك المحاولات المؤدية إلى التحكم المطلق. فهذا هو الوقت المناسب لتنظيم سلوك الطفل الذي ذكرناه وهنا أول فرصة يجني فيها الطفل فكرته عن العالم الخارجي وعن الحياة المنتظمة. وبعبارة أخرى نقول إن ذلك الوقت هو أول عهد الصغير بالقواعد ومن يسر تلك القواعد وانتظامها وعدم التراخي فيها ينشأ في نفس هذا الكائن الإنساني الصغير أول نموذج للنظام والقانون. وإنه ليتقبل بارتياح ذلك النظام الذي تغرسه فيه أمه إذا لم يعترض غرسه بإظهار الانفعالات أو كان هناك ما يصرفه عنه، أي ما يعوق حاجاته الجوهرية. وإن مما يسهل على الأم فرض ذلك النظام عليه أنها مصدر كل خير يأتيه، فهي تمده في نظير ذلك بالغذاء وبالملذات، وما دام النظام والمحبة يأتيان من مصدر واحد فإن الطفل ليتقبل بسرور ذلك السلوك الذي يُطلق عليه فيما بعد اسم السلوك الخلقي.

غير أن هناك في المنزل شخصًا آخر يتصل عن قرب بالطفل، ولكن لا كاتصال الأم ذلك هو الأب، فهو لا يظهر على مسرح حياة الصغير إلا بعد الأم كجزء من العالم الخارجي، وهو أقل ارتباطًا من الأم بحاجات الرضيع البدنية المباشرة وبمشاعره. كما أن معاملته إياه في كثير من النواحي ليست في رقة الأم في أغلب الأحيان كما هو معلوم للجميع، فملمس جسمه إن شئنا أن نقول أقل نعومة من جسمها وصوته يختلف نوعه عن نوع صوتها وقد يكون صوته مثيرًا لخوف الطفل الصغير، ووجوده إلى جانب الطفل أقل بالطبع من وجود الأم، فلن يألف الطفل رؤيته بسهولة. وإن الأب يظل دائمًا بعيدًا في الأشهر الأولى على الأقل،

فهو جزء من بيئة الطفل التي تذهب وتجيء، وهو حادث عرضي لا حقيقة دائمة. ولذا فإن الأب بمحض اختلافه عن الأم في الحجم وفي الطباع لا بد وأن يعطي الصغير فكرة تختلف عن فكرته عن الأم، وذلك عندما يدخل في حياته في وقت يكون قد نشأ لديه فيه بعض الاستقلال وأخذ يتنقل في أنحاء الغرفة ويلمس الأشياء ويكسرها.

ولقد جرى العرف في الأسر العادية منذ القدم على أن تتمثل في رب البيت سلطة وضع القانون والقواعد والنهي عن أشياء معينة وتحريم غيرها، ولست بموعز هنا بأن الأب يجب أن يسلب تلك الحقوق التي اكتسبها منذ القدم وأن نمنعه من حفظ النظام في بيته، ولكن يجب أن نفهم كيف يرى الطفل الذي لم ينضج بعد تلك القوانين التي يضعها الراشدون للحياة النظامية وهو لم يزل بعد تحت سيطرة الانفعالات الأولية والرغبة في إرضاء غرائزه بطريقة تلقائية. ولذلك فإن الأب يتمثل أمام الطفل في المحرم والمكروه. ولكن ليس هذا كل شيء بأي حال، ففكرة الطفل عن الأب يشوبها أيضًا الإعجاب والمحبة، وعلى الأخص إذا كان الطفل ذكرًا، فهو يقال له منذ نعومة أظفاره إنه رجل صغير وإنه سيصير يومًا رجلًا كبيرًا طويلًا كوالده، فينشأ لديه حينئذ الإعجاب به والرغبة في السمو إليه ولا سيما أن أهم ما في خبرة الطفل تأتيه عن طريق المحسات، فالحجم والقوة المادية والقدرة هي التي تدهشه إن لم تخفه قليلًا. ولذا كان إرضاء تلك الشخصية العظيمة من أعز أماني الأطفال الصغار، فرضاه قد يخفف من صرامته، وطاعته قد تجلب شيئًا من ذلك الحب الذي تعطيه الأم أيضًا.

وهكذا نرى أن الحب والنظام اللذين يتحولان فيما بعد إلى طاعة يختلطان معًا، وأن إحاطة الطفل بالأشياء من العالم الخارجي يساعده على النمو وجدانيًّا وعقليًّا. أما الذكاء فينمو باستخدام الطفل لقدراته الموروثة في اختيار الأشياء وفي تعلم عناصر اللغة البسيطة. وما دام سلوك الطفل ينجم عن تعديل الحوادث البسيطة جدًّا لغرائزه وانفعالاته فإن سلوكه سيصطبغ بالانفعالات التي استثارها هؤلاء الذين في عالمه الصغير والذين يحبهم ويعجب بهم ويخافهم ويطيعهم، حتى إنهم ليصبحون جزءًا لا يتجزأ من كيانه الوجداني والعقلي. فالطفل في حبه لأبيه وأمه يجعلهما جزءًا من نفسه كشخصين محبوبين، وفي إعجابه بهما يتخذ لنفسه نموذجًا للكمال لا يتطلبه من غيرهما فحسب، بل يعمل على احتذائه هو نفسه. وهو حين يخافهما ويطيعهما يضع لنفسه نظامًا للسلوك يحق أن يتخذ ذخرًا عزيزًا على نفسه لأنه استمده من مصدر محوط بالمحبة والإعجاب. وكثيرًا ما وجدت في حديثي مع الأطفال الصغار أثناء عملي وملاحظتي للعبهم أنهم يتمثلون بمن يحبون لدرجة تقليد حركاتهم كتقليد الأب في عرج بسيط مثلًا. ولقد رأيت منذ أيام ولدًا صغيرًا أرهقته أفكاره الأخلاقية إرهاقًا كثيرًا وكان أبوه خبازًا نال حبه وإعجابه، فأعطاني ذلك الصبي وصفًا غاية في الدقة لخبز العيش، وكان حماسه شديدًا لدرجة أدهشتني، ثم قال إنه يود أن يكون خبازًا، ولكن لا أظن أن أبي يسمح لي. وذلك الطفل كثير المخاوف التي يصل بعضها إلى حد الهذيان فهو يرى أياديَ تمتد إليه من خلف الأبواب، كما أنه دائم التلفت خوفًا من أشخاص وهميين يتبعونه. ترون إذَنْ أن ذلك الصبي الغض قد تشربت

نفسه منذ نعومة أظفاره آراء عن السلوك ومخاوف متعلقة به وإعجابًا ومُثُلًا عُليا على نمط أبيه. ويتضح لنا المدى الذي قد تصل إليه هذه العملية في نفس الطفل من حلم مريض راشد كان أبوه قد مات وهو صغير في سن الثامنة، فإنه رأى الله في السماء وقد حفت به سحب الجلال وأنه لابسٌ بذلة جاويش من فرقة المشاة الأولى (الجرنادير)، وقميصًا أحمر قرمزيًّا، وقبعة من الشعر من طراز بزبي، فاعتراه رعب شديد، ولكن ذلك الشيخ مد إليه يده قائلًا: (لا تخف يا برت). وكان أبو المريض جاويشًا في فرقة الجرنادير، ولذا كان ذلك الصبي يتحرق شوقًا منذ صغره ليلتحق بالحرس في تلك الفرقة، فلما أتت الحرب كانت أكبر ضربة لآماله أن استبدل اللون القرمزي بلون الكاكي الأصفر.

وإنه لمن الصعب في السنوات الأولى على الطفل أن يعبر باللغة في ألفاظ عن كل تلك المشاعر التي يكنها لأبويه فضلًا عن أن الكثير منها لا شعوري. فما السبب في كونها لا شعورية؟ وما تأثير بقائها لا شعورية على السلوك؟

إن العناصر اللا شعورية في موقف الطفل نحو والديه مقترنة بمشاعر وانفعالات وغرائز كلها محرم وممنوع. فالشهوات البسيطة يجب أن يكبح جماحها والعمليات الجسمية لها مواعيدها. وقد يمنع منها الطفل كلية حين يود الاستغراق فيها. فهذه النواحي كلها مقترنة طبعًا بالأبوين اللذين يسيطران عليها، فيكظم الطفل غيظه منهما لأنه لا يستطيع المصارحة به، فيأخذ هذا الغيظ أشكالًا تنكرية عديدة، ويحاول التعبير عن نفسه بوسائل غير متوقعة. ولقد لُوحظ أن طفلًا في غرفة

اللعب كان لا يفتأ بضرب الحيوانات واللعب وبخاصة الحيوانات إذ كان يلذ له أن يقتلها. وفي ذات يوم حين كنت أتحدث إلى أمه في غرفتي إذا به قد انطلق من غرفة اللعب وبيده عصا وضربني بها قائلًا في حدة: «ماذا تفعل بأمي؟». وقد قالت الأم إن تلك الحادثة كثيرة الحصول في البيت إذ ينهال دائمًا بالضرب على أبيه، وفي الحقيقة على كل شخص يظن أنه قد احتكر اهتمام أمه وقتًا ما.

وكثيرًا ما نصادف رأيًا تؤيده بعض نظريات واسعة قائمة على بحث عميق في العقل الإنساني، مؤداه أن هناك نزعة بل ميلًا عامًّا في الحقيقة لدى الأطفال الذكور إلى التفاني في حب الأم منذ البداية، بينما تكلف الإناث بآبائهن. ويقول ذلك الرأي أيضًا إن حب الطفل لأحد الوالدين من الجنس الآخر يؤدي إلى كره الوالد الذي من جنس الطفل بنفس الشدة. ولقد ظهرت هذه النزعة واضحة من غير شك في سلوك الولد الصغير الذي حدثتكم عنه الآن، فحبه لأمه واعتماده عليها جعله ينظر إلى أبيه كفرد دخيل. والحالات التي تشبه هذه ليست بالقليلة. وإني لأستطيع أن آتيكم بأمثلة لبنات صغيرات ونساء أيضًا أظهرن بطرق شتى منها ما هو واضح ومنها ما هو ملتوٍ حبًّا شديدًا لآبائهم وكرهًا عميقًا لأمهاتهن. ولقد اختلفت الآراء في تعيين السن التي يبدأ فيها ظهور هذا الحب والكره، بل إن هناك مَن ينكر صراحة ظهورها في سن مبكرة على الإطلاق. ولقد قيل إن موقف أعداء هذا الرأي يقوم على كره دفين لهذا الموقف الوجداني. وليس من شك في أن ذلك الكره الدفين متمكن من نفوس جميع المتحضرين بله المتوحشين. ويذهب البعض إلى أنه قد أدى إلى

كبت مثل تلك المشاعر أي دفنها في أعماق النفس لدى كل الأصحاء أو العاديين من الناس، وأن المرضى باضطرابات عصبية أو عقلية هم الذين يناضلون للسيطرة على تلك الانفعالات والرغبات الشديدة المرتبطة بتلك الحالة من الحب والكره التي يرجع أصل نشأتها إلى سنوات الطفولة. ولعلنا جميعًا على اتفاق في أن انفعالات الطفل تعوزها الرزانة والتحديد وأنها لم تتأثر بعد بتلك العادات الاجتماعية التي جعلت منا معاشر الراشدين أناسًا متحضرين، وأن تلك العاطفة التي يسميها الراشدون عاطفة الحب، لا يسهل معرفة مدى ارتباطها بالذكور والإناث في السنوات الأولى من حياة الطفل إلا على من لهم اتصال وثيق بنمو الأطفال النفسي وعلى من درسوا عقول الراشدين في نضالها وكفاحها. إن موضوع الحب في صلته بالحياة ليلعب في عقل الطفل دورًا أهم مما نعترف به. لنلق نظرة عاجلة على تلك القصص الخرافية العديدة التي يتسلى بها الأطفال في جميع البلاد على ممر الأزمان، فكم منها يخلو من قصة الأمير والأميرة وقصة البنت الجميلة مع الوحش الكاسر، ومن تصوير الحب تصويرًا خياليًا جذابًا ثم مخيفًا تصبح فيه الوحوش أمراء وتتسلط الأفاعي والكائنات الوحشية الغريبة على أميرات بريئات، وكم منها كذلك يخلو من قصص صبيان صغار يقتلون عمالقة كبار، وغير ذلك مما يشبع نفوس الأطفال ولا يتحقق إلا في عالم الخرافات.

هذه القصص الخرافية التي أتتنا في ميراثنا الثقافي الشعبي تمثل طفولة العقل الإنساني الكامنة في قرارة نفس كل فرد منا مختفية في الظاهر، ولكن تستثار عندما نسمع تلك القصص، وتتمثل في أحلامنا

بل وفي حياتنا أيضًا. فالآباء والأمهات هم ملوك القصص الحالية وملكاتها وآلهتها، والأطفال هم الصغار المجهدون وأبناء الفقراء من قاطعي الأخشاب والسجناء من الأمراء والأميرات. فإذا رأينا كيف تظهر الانفعالات في حياة الطفل أثناء اختلاطه بأبويه أو في القصص الخرافية والتراث الثقافي الشعبي علمنا مقدار تغلغل هذه الأشياء في عقله. فالبنت الصغيرة تتخيل نفسها أم المستقبل حين تلعب بعروستها وتقلد غسيل الفوط واستحمام الرضيع وإدارة المنزل وهي تضرب عروستها وتأمرها بالنوم كما تفعل معها أمها. والولد الصغير يتخذ تحت السرير أو المنضدة قباء كقباء الهنود الحمر يلعب فيه مع أخواته الصغيرات أو صويحباته دور الأم والأب ويمثل ما يراه في البيت من مهازل بل مآسٍ مليئة بالسخرية أيضًا، فتراهم يمثلون التنافس في الحب والرغبة في السيطرة وهم في لعبهم هذا تتفتح شخصياتهم أولًا في عالم الخيال، ثم في عالم اللعب الذي يتخذون فيه لنفسهم أدوار الأبوة والأمومة. ولقد رأيت أطفالًا يلعبون، فيما بينهم أو بلعبهم، فإذا الموقف العائلي الذي كان غامضًا عليَّ يتضح بصورة مؤلمة أو مضحكة.

ولا بأس بأن نبسط حياة الطفل الوجدانية باعتبار مجموعتي الانفعالات اللتين يقوم عليهما سلوكه وما ينتابه من اضطرابات تؤثر في تقدمه في السنوات الأولى من حياته. هنالك طائفتان متضادتان: الأولى تشمل الانفعالات التي تصدر عن الحب وما يؤدي إليه من شعور بالاعتماد على الغير. والثانية تشمل حالات الخوف والغضب والكراهية التي تنشأ من اعتراض سبيل الحب. فالرضيع كما لاحظنا لا

يتنازل بسهولة عن اعتماده على أمه، وما ينطوي عليه من لذة وسعادة. ولكن الطفل الذي يسعد بأم حكيمة لا تغدق عليه العطف جزافًا ولا تدعه يتحكم فيها أو في رغباته الملحة، بل تغرس فيه الشغف بالعالم الخارجي وتشجعه على الاتصال به، مثل هذا الطفل يكون حرًّا طليقًا في اتصاله بما في العالم الخارجي من أناس وأشياء. أما إذا فشل في التحرر من أمه فإن نموه الوجداني يعترض فيعجز عن توجيه حبه وإخلاصه نحو غيرها من الناس، ويظل هكذا مقيدًا إلى أمه. وإن طفلًا هذا شأنه لتعوزه الشجاعة في مواجهة صعاب الحياة أثناء نموه، تلك الصعاب التي تذكي مواهبه وتكسبه المرونة الوجدانية، فإذا نشأ مثل ذلك الطفل «المقيد إلى أمه» هيابًا لانفعالاته ونفسه، أو إذا نشأ غيورًا على حب أمه أو خائفًا من أن يسلبه أحد ممن حوله حبه لأمه أو حبها له نما في نفسه الخوف والغضب المتولدان من الهزيمة. فإذا تمادى في غضبه أصبح طبعًا من طباعه وولّد الكراهية، ذلك الانفعال الذي يعمل الآباء كل ما في وسعهم للحد من سطوته. فالطفل كما قدمنا حساس لما يلقى من رضى أو سخط، ولذا فإنه حين يحاول إرضاء من يروم حبهم وإزالة خوف المشرفين على سلوكه لا يتوانى في طرد مثل تلك الانفعالات من نفسه، وهكذا ترى صورة غريبة لانفعالات متضاربة متمكنة من نفسه، ولا بد مهما كان الثمن من شق طريق فيها ليسير فيه تيار الحياة. وقد يحدث أحيانًا أن ينعكس جريانه فيظل الطفل محتفظًا بعادات الطفولة التي تتستر بقناع المرض أو الخوف من أشياء ليس بينها وبين الخوف الأصلي إلا وجه شبه ضئيل، وليس من النادر أن تنشأ اضطرابات في السلوك تبعًا لذلك

فيثور الطفل في نوبات غضبية معرضًا عن محبة هؤلاء الذين يود هو أن يقربهم من نفسه. وقد يصل الأمر به إلى الابتعاد عن بيته وهو لا يكاد يعلم إلا علمًا غامضًا أنه يفعل ذلك طلبًا للمحبة التي تمنعه انفعالاته المتضاربة من التعبير عنها في الحظيرة العائلية، ويقبع في جو من اليأس وعدم الاكتراث في النهاية وقد يصل به الأمر إلى أن يوصد أبواب نفسه عليه، أو أن ينسج من الأوهام عالمًا يشبع فيه رغباته التي لم تتحقق وينال فيه مشتهاه من الحب أو السيطرة. وهكذا يركب الطفل مطية الخيال، وفي عالم الأوهام وأحلام اليقظة يرضي شهواته ويحقق آماله. ولذا فإنه من المفيد أن نسمح للطفل باللعب؛ لأن ذلك النشاط الحر يعلمه كيف يبني لنفسه عالمًا صغيرًا خاصًّا به ويزوده بالمهارة كما يسمح له بأن ينفس عن كثير من مشاعره في لعبه الوهمي. ولو استطعنا فهم تلك المشاعر كما يمثلها في لعبه، لعلمنا لا موضع خطأ الطفل في فهمه لغيره فحسب، بل أيضًا كيف أخطأنا نحن في موقفنا نحوه.

أو تدري إلى أي حد ينفس الأبوان عن شعورهما في موقفهما مع الطفل؟ إن الأم التي خابت أمانيها قد تنفس عن كدرها بإغداق العطف الشديد على الطفل لدرجة تربطه وإياها بقيد يغل تقدمه. وأزيد على ذلك شيئًا قد ننساه خجلًا منه، ذلك أن المعاملة التي كنا نعامل بها في صغرنا، والتي لا نكاد نذكرها تؤدي بنا إلى التنفيس عما بنفوسنا من بغضاء بمظاهر مقنعة للغيرة لا نميل للاعتراف بها. أفنكون مغالين إذَنْ لو قلنا إن الطفل يحس بسخط والديه وغيرتهما، فينشأ في نفسه شعور بأنه محتقر منبوذ مما يستثير فيه انفعالات الانتقام، وقد يضع أساس الإجرام في المستقبل.

غير أن الحظيرة العائلية في أغلب الأحيان، لا تظل طويلًا مقصورة على الثالوث الأبدي من أم وأب وطفل، وإلا نشأت مشكلة الطفل الأوحد، حتى لقد قيل إن مجرد كون الطفل أوحد، مرض في حد ذاته. والعادة أن يغمر الأبوان طفلهما الأول بالعناية البالغة فيؤكدان بذلك تفرّده، فتراهما يعجبان بكل حركة من حركاته ويحرصان على محبته حرصهما على شيء ثمين جدًّا مما قد يؤدي إلى الغرور ونزعة الاكتفاء بالنفس. فما دام الطفل غير معرض للنقد فإنه ينزع إلى الزهو والشعور بالعظمة وهو شعور طبيعي لديه. ويظل هذا الشعور يؤثر في سلوكه المستقبل فيبالغ في كلٍّ من غضبه ومحبته على تضادهما، فضلًا عن أن تفرده يؤدي إلى تركه ونفسه في كثير من الأحيان فيأخذ في تأمل أفكاره ومشاعره. أما إذا كانت العائلة كبيرة فإنه ينشأ ما يشبه جمهورية صغيرة، إذ يكون الاتجاه نحو توزيع الحب الوالدي وكثر الأخذ والرد ويتسع المجال لخلق المواقف الاجتماعية في سن مبكرة حين يكون العقل مرنًا سهل التقبل. نعم قد يحدث من آن لآخر في بعض الأسر الكبيرة أن يولد أطفال غير مرغوب فيهم لأسباب اقتصادية أو شخصية. فطفل هذا شأنه لا يلبث أن يشعر باختلافه عن الآخرين وبأنه لا يُعطى مثل غيره من العطف والاهتمام، وهو سرعان ما يلحظ ذلك فينشأ الشذوذ في أخلاقه. فأحيانًا يؤدي هذا إلى تقوية خلقه بإيجاد الحافز إذ قد يقول الطفل في نفسه: «لأثبتن جدارتي بالتفوق ولأستردن حقي من الحب بالإخلاص».

كذلك الطفل الذي يكون آخر إخوته في الأسرة الكبيرة، له مشاكله وخصائصه، فهو يولد بعد زمن طويل وربما يكون الأبوان قد أخذا يملان

تربية الأطفال، ولكنهما من جهة أخرى قد يجدان فيه تحفة سارة ووسيلة لإعادة ذكرى أيام الزواج الأولى عندما أُعجبا بالمولود الأول وسُرَّا به. ومع ذلك فقد يكون كما في قصة سيدنا يوسف مثل بنيامين عند والديه، ومثل يوسف عند إخوته. وهو بلا شك يستفيد من مجيئه بعد إخوته لما استفاده أبواه من المعرفة والخبرة، فيبدو لذلك كأنه ماهر عنهم، ولكنه يكون أيضًا بمعزل عن إخوته الذكور والإناث، وقد يؤدي به هذا لأن ينسج لنفسه عالمًا خاصًّا ينشأ فيه وحيدًا ومتعاليًا معًا. وكما أنه يغلب في هؤلاء الأطفال أن يكونوا نبهاء، فإنهم كثيرًا ما يصابون بأمراض عصبية.

ولنعد النظر في حالة الأسرة لندرس مسؤولية الآباء في تنشئة أطفالهم والصعوبات التي يجدها الأطفال في سبيل الوفاق مع أولئك الذين تعتمد عليهم حياتهم المستقبلة، ولنسأل أنفسنا سؤالًا في هذا الصدد وهو: أيعوق الآباء نمو أطفالهم؟

إن هناك في الأيام الحديثة كما تعلمون رأيًا آخذًا في الانتشار. يقول إن الحياة العائلية في كفة الميزان، فلقد وصل إلى علمنا الشيء الكثير عن نفسية الإنسان وعن أهمية الانفعالات في النمو العقلي حتى لقد يتطرق إلى ذهننا أن الأبوين لا يستطيعان فهم أنفسهما، أو عقول أطفالهما، فهمًا كافيًا لمنح الحرية لميول الطفل الطبيعية. وأظن أن مثل هذه الفكرة نجمت عن المبالغة في نقط الضعف لدرجة تنسينا أهميتهما في تشكيل خلق الطفل، وربما استحققت اللوم أنا نفسي على شرح أخطار الأخطاء الوالدية لكم، ولكني عالم كل العلم بالصفات الخلقية القويمة التي تنتج حتى من الكفاح الوجداني. فإن الرغبة في الظهور

بالمظهر الحسن أمام الوالدين المحبوبين والعزم على بلوغ المثل العليا تنتج فعلًا شخصيات من أبدع ما ورد في التاريخ، وصفات جذابة في أناس من أوساط الناس في الهيئة الاجتماعية، هذا على شرطية أن لا يكون الحب شديدًا خارقًا والمثل الأعلى قاسيًا.

إني لم آتِ بكل ما هنالك في موضوع نمو عقل الطفل، وإنما أترك لزميلي تناول نمو العادة وأهمية نشاط اللعب للطفل وما إلى ذلك. والآن ألخص في إيجاز ما ذكرناه. فلقد رأينا أن كلا الوالدين ذو أثر هام في النمو الوجداني للطفل، فهو يولد مزودًا باستعدادات وجدانية تستثار وتتشكل بتأثير الوالدين وبموقف الطفل تجاه ذلك التأثير، ولقد بحثنا طائفتين متعارضتين من المشاعر؛ لأنهما يؤثران تأثيرًا بالغًا في إخراج النموذج العقلي النهائي وهو عقل الشخص الراشد، فالمحبة والكره يبدآن منذ أول نفس يتنفسه الطفل، والانفعالات تنتقل وتتحول في كل اتصال إنساني، ويتمهد طريق النمو الهادئ بفعل العوامل الناتجة عن سلسلة من المعارضات بين الحب والاعتماد على الغير والخوف والغضب والغيرة، وكلها تعطي اللون الخاص لتلك العملية الجوهرية وهي عزيمة الإنسان على أن يحيا أحسن حياة ممكنة. ومن الصفات العقلية اللازمة للحياة الاجتماعية أن يكون للمرء موقف خلقي. وأظن أننا قد رأينا كيف أن كفاح الطفل ليس إلا جهادًا لتكوين ذاتية خلقية تحيا في انسجام مع انفعالاتها ورغباتها الغريزية العميقة الأساس، وذلك الانسجام الذي يتولد عن التربية الدقيقة التي لا تقوم على اضطراب وجداني، فهو الكفيل بنشوء الأطفال سعداء وكبارًا ثابتي الجنان.

الفصل الثامن

مخاوف الأطفال

سأتكلم في هذا الفصل عن مخاوف الأطفال وعن كيفية تولد الخوف وأثره في سلوك الطفل. لقد سبق أن قلت شيئًا في ذلك الموضوع، ولكن ذلك كان عرضًا في سياق الحديث عن غرائز الطفل وانفعالاته وعن تلك المخاوف الخاصة التي تظهر في الحياة العائلية. أما الآن فإني أحدثكم عن الموضوع من أوله. يستجيب الطفل منذ ولادته تقريبًا لما يدور في العالم الخارجي ويقع على حواسه، فالضوء الساطع يجعله يحرك عينيه، وإذا مرّ خيال فجأة على عينيه لا يغمضهما قبل بلوغه اليوم الخامس والستين. أما الرضاعة فيقبل عليها من غير تحريض كثير. وتدعوه الأصوات العالية وإزالة ما يرتكز عليه إلى الصراخ والإتيان بحركات دفاعية معينة وتتصلب عضلاته حينئذ كأنها تستعد لدرء الخطر. هذه الاستجابة أو بعبارة أخرى سلوك الطفل نتيجة للحادث الذي يهدده يُسمَّى خوفًا، وقد يصعب عليكم معرفة أنه من الخوف. ولذا يجب علينا أن نبحث في معنى الخوف، فهو مجموع

الحركات والصراخ وتغيرات اللون كالاصفرار الفجائي واتساع حدقة العين وسرعة ضربات القلب مما يقترن بالخطر المفاجئ، فهذه التأثرات الجثمانية كلها في الحقيقة تمثل جهود الطفل للنجاة من خطر يهدد حياته ولو كان في استطاعته أن يمشي أو يحبو لباعد بكل ما في وسعه بينه وبين ما يهدده. فالخوف باختصار إذَنْ هو التأثرات الجثمانية التي تصحب الهرب أو التي يستعاض بها فعلًا عنه. وبعبارة أخرى هو غريزة الهرب. وإن ردود الفعل، أو الاستجابات البسيطة التي ذكرتها قد دُرست دراسة دقيقة فيما يُسمَّى معامل الحضانة، وهي أماكن يدرس فيها علماء النفس كل حركة وكل صرخة للطفل في أوقات مختلفة من الأسابيع الأولى في حياته، وبعبارة أخرى تُدرس هذه «الاستجابات» قبل أن تبدأ عوامل العالم الخارجي العارضة التي لم نستطع تسجيلها تسجيلًا دقيقًا بعد تأثيرها في جسم الرضيع وعقله الأوّليّ البسيط. ولقد دلت البحوث التي أُجريت في مثل تلك المعامل الخاصة على أن الطفل الذي حيل بينه وبين مؤثرات العالم الخارجي التي يتعرض لها غيره من الأطفال، سواء أكان بسبب إهمال مربياتهم أم عنايتهن لا يبدي شيئًا من أعراض الخوف في الظلام عند ملامسته للطيور أو القطط أو الأسماك أو الثعابين بل والورق المتقد أيضًا.

ولقد ذكرت أن البحوث دلت على وجود شيئين يبعثان الخوف في الرضيع الحديث الولادة بصرف النظر عن العوامل الخارجية، وهما الضوضاء العالية وزوال ما يستند إليه، فإذا ما «اقترن» الظلام أو حيوان ذو ملمس صوفي أو نار متقدة بأحد هذين المؤثرين الأولين نتج

عنه الخوف في كل المناسبات التالية إذا ما تكرر ذلك الاقتران بضع مرات، ويطلق إذَنْ على حدوث الخوف هكذا بالترابط اسم «الاستجابة الوجدانية الشرطية» أو بشكل أبسط، ينبعث انفعال الخوف الآن بشروط معينة ليس من الضروري أن تكون باعثة للخوف في أول الأمر. وبعبارة أخرى الخوف من الكلب هو الخوف من نباحه قبل الخوف من عضته. ولعلنا نستطيع أن نقول إن كلًّا من الصوت العالي والخوف من السقوط مؤلم للطفل، فإن غريزة المحافظة على النفس تستثار في الطفل، ولا بد للطفل أن يبذل بعض الجهد لإنقاذ نفسه. ولذا يمكن أن نقول بوجه عام إن أي ألم وأي حادث يعترض سبيل المحافظة على النفس لدى الطفل يبعث الخوف كما يستثير الحركات الجثمانية التي تقترن به. والجوع نوع من الألم وتقييد الحركة مؤلم، فيلوح إذَنْ أن الكثير مما يحدث في حياة الرضيع الصغير من الحوادث الأساسية البسيطة قد يبعث الخوف، فألم الجوع مثلًا الذي من شأنه أن يستدعي أم الطفل إلى جانبه، يرتبط بإحساس أن هناك شيئًا ناقصًا وبشعور بالوحدة والحرمان. وهكذا نُعلل شعور الطفل بالخوف لأول مرة عندما يترك وحده. فليس الظلام سبب خوفه، بل الشعور بالانفصال والوحدة والحاجة التي كثيرًا ما تقترن بالظلام. كذلك ليس الحيوان سبب خوف الطفل وإنما الأصوات التي يحتمل أن يرسلها الوالدان والمربيات تقليدًا له عندما يقدمون إلى الطفل دُمى صوفية الملمس ليلعب بها. وإن الحركات الفجائية التي نأتيها عند ملامستنا لأشياء تدب أو تزحف أو تنطلق فجأة ليست حركات خوف في حد ذاتها، وإنما حركات دفاعية لدرء الأذى

المفاجئ. ويصحب الخوف تلك الحركات؛ لأنه ينبعث عن طريق الترابط، فإن عقل كل من الحيوان والرضيع على بساطته يتكون بطريقة الترابط هذه، أي باقتران حادثين لا يُشترط أن تكون بينهما علاقة، وإنما يتكرر حدوثهما معًا. ذلك أمر بالطبع مرغوب فيه. ولكن من المرغوب فيه أيضًا أن تكون الارتباطات مفيدة في الحياة بدلًا من أن تكون عائقًا لها. ففي تربية الطفل في أول الأمر ينبغي للوالدين والمربيات أن يكونوا من الارتباطات ما يرونه مفيدًا وأن يمنعوا ما يرونه غير مرغوب فيه. فمثلًا من الأمور المرغوبة أن يخاف من النار طفل احترق بها، وأن ترتبط بعض الأطعمة في عقل الطفل بالخطر، وأن يُشجع على بعض أنواع بسيطة من السلوك الاجتماعي يجعلها سارة. هب أنَّ طفلًا نشأ مع مربية لا تفتأ تقفل الأبواب بضوضاء شديدة وتتكلم بصوت عالٍ، فإن لم يكن أسلوبها في إطعام الطفل سارًّا صار من المحتمل أن تصبح هي نفسها باعثًا للخوف وأن يصبح وقت الطعام بغيضًا، وهكذا يصبح كل من المربية والطعام شيئًا مكروهًا لدى الطفل إذا ما حضرا معًا.

تعلمون أن الطفل كثيرًا ما يقبل طعامه من أمه، ولكن يرفضه من مربيته، أو بالعكس. وكذلك الرضيع قد يقبل بكليته على شخص ما وترتعد فرائصه خوفًا إذا ما دفع به إلى أحضان شخص آخر. ولعلكم تذكرون أني حدثتكم عن حالة بنت صغيرة كانت تخاف من الخيال الذي يحدثه طرف قضيب الستارة فقد اتضح أنه كان يتهيأ لها في صورة وجه رجل ذي لحية كان في الأصل سببًا في خوفها. وهكذا ترون كيف يُوضع أساس الخوف. فأغلب المخاوف كما ترون معقدة

نوعًا ما، كما أن الأطفال كثيرًا ما يخافون أشياء لمجرد ارتباطها بشيء آخر كالضوضاء مثلًا، فعلينا دائمًا أن نحاول معرفة السبب «الحقيقي» في خوف الطفل. ولكن قبل أن نستمر في حديثنا يجدر بنا أن نقول إنه بمجرد أن يشعر الطفل بالخوف مرة يصبح فرقًا يترقب الخوف إذا ما تكرر الحادث الأصلي تكرارًا كافيًا. وعلى سبيل التمثيل أذكر لكم أني كنت أعرف طفلة اعترى جسمها المرض؛ لأن أبويها كانا كثيرًا ما يتشاحنان في جلبة وضوضاء في الليل، وشفيت هذه الطفلة حينما سُوِّيَ النزاع بين الوالدين. غير أن هناك مخاوف أخرى أكثر تعقيدًا وتنشأ في نفس الطفل عندما يخوض غمار الحياة العائلية. ففي هذا العالم الذي يتداخل بالتدريج في العالم الأوسع خارج البيت وفي المجتمع يرتبط الخوف في الغالب بالأشخاص وبالمشاعر التي تنشأ في نفس الطفل نحوهم.

لقد تكلمت في الفصل السابق عن الانفعالات التي يثيرها في نفس الطفل اتصاله بوالديه وعن تلك التي ترتبط بحبه لهما وما يتبع ذلك الحب من اعتماد عليهما. وحاولت أن أبين كيف يحنق الطفل عندما يشعر بأنه مهمل وكيف يثور على مَن يقفون حجر عثرة في طريق حبه بأي شكل كان. فمن الطبيعي أن يغضب أي شخص يشعر أنه معترض أو منبوذ ولا سيما الطفل. وذلك الغضب يؤدي إلى الكراهية بل إلى المقت. ولا يكون هناك شعور بالبغضاء في أوائل تربية الطفل الأخلاقية، وبالتأكيد لا يكون هناك شعور بالتسامح فتتكون في نفس الطفل قواعد بسيطة للمشاعر والانفعالات والأفعال بالنسبة للأشخاص الذين يعلم

الآن أنهم أخيار أو أشرار حسب الحالة. وهو يعلم أن طائفة من المشاعر يرتاح إليها الوالدان وأن أخرى لا يستحسنانها، ولكن يحدث في بعض الأحيان أن يكون الشعور بالكراهية أو الغضب أو المقت قويًّا جدًّا فينزع الطفل إلى أن يخفي حتى عن نفسه تلك المشاعر التي تحتاج إلى تعبير شديد حتى يستطيع أن يتقبل القوانين الوالدية رغبة في المحبة والسلام. وتدخل العقوبة على أشكال منوعة في حياة الطفل كلما كانت أعماله غير مرضيٍّ عنها، فينتقل الخوف من العقاب أي الألم الناجم عنه والخوف من الشخص الذي يوقعه، إلى الانفعال والمشاعر التي تتأجج في نفس الطفل ولكنه يعلم أنها محظورة. وبهذه الكيفية يتعود الطفل أن يخاف بعض نفسه، ويصبح في الحقيقة كما يقال خائفًا من نفسه. وما أكثر ما نسمع أناسًا يقولون إنهم خائفون من أنفسهم ولا سيما العصبيين الذين يخشون أن يسيطر عليهم ما يسمونه الأهواء أو النزعات فتزل ألسنتهم بالشيء في غير موضعه، ونقول في العرف إنا لنفضل قطع ألسنتنا على أن نتفوه بكيت وكيت، وهكذا ينشأ الخوف في الكلام على الإطلاق.

دعنا الآن نعود هنيهة لنبحث بشكل أوسع في خوف الطفل من شعوره ونزعات نفسه نظرًا لخطورة ذلك الموضوع. إن النقطة الهامة التي ينبغي إدراكها هي أن نشوء الخوف في نفس المرء من انفعالاته وأفكاره ونزعاته يترتب على الموقف الذي يتخذه حيال سلوكه هو نفسه بالنسبة لهؤلاء الذين يشرفون على تصرفاته. ولقد حاولت في المرة الأخيرة أن أوضح لكم كيف يبعث الإعجاب والمحبة استعدادًا في الطفل لقبول السنن التي يضعها الوالدان للمباح والمحظور، وحاولت

أن أبين أن الطفل حين يحب أباه ويعجب به يتخذ لنفسه منه مثلًا أعلى للرجولة يود أن يحتذيه ويسمو في النهاية إليه. من الواضح إذَنْ أن لدى الطفل الآن في عقله الصغير انفعالات كثيرة يود الإفصاح عنها ومجموعة أخرى من الانفعالات والاتجاهات التي تنزع نحو السيطرة على هذه الانفعالات الخاصة التي قد تكون غيرةً أو غضبًا أو مقتًا. هذه الانفعالات والاتجاهات الطيبة التي في عقل الطفل تقف كأنها حارس أو شرطي صغير في داخل عقله يوجه المرور الوجداني، بل يقف حائلًا دون اندفاعه وخروجه عن نطاقه كقطاع الطرق الذين يعبثون بالقانون والنظام، ولا بد من الضرب على أيديهم مهما كلف ذلك من ثمن. فالذات، التي تشبه قاطع الطريق أو الإنسان المتوحش، وفيها انفعالات الغيرة والمقت غير المهذبة، كل أولئك يتضاءل أمام الشرطي الأخلاقي الذي يمثل الآن فجر الضمير عند الطفل. ومن هذا ترون كيف يشعر الولد الصغير أو البنت الصغيرة بالسعادة إذا كان الواحد منهما حائزًا للرضى، أو بعبارة أخرى عندما تكون انفعالاته مكبوحة والشرطي راضيًا. ولكن يحدث أحيانًا أن تكون تلك الانفعالات الغضبية التي في أعماق عقل الطفل قوية لدرجة تقلقه فيصبح وجلًا منها، فكيف يستطيع أن يواجهها. وكيف تتوفر له الطمأنينة؟ إنه لا يجرؤ إلا في نوبات الغضب أن يقول (أنا غيران) أو «أنا غاضب» أو «أنا حاقد». كلا فإنه يشعر بالضبط نفس الشعور الذي يملؤنا نحن الكبار عندما يعترينا الخجل من وجداناتنا فنقول عندئذ إنا نبغض أنفسنا أو نحتقرها. وهناك طريقة أخرى يلجأ إليها العقل للكف من ذلك الجفاء القائم بين الضمير والنزعة المحظورة. إننا نخاف ويأخذ خوفنا

مظاهر متنوعة، وقد شوهد في الأطفال الذين درسوا بعناية وكذلك في الكبار أن المخاوف التي تنشأ في العقل بسبب الانفعالات المتضاربة كثيرًا ما تفصح عن نفسها بأن تتمثل في شيء من الحياة الخارجية، ربما كان في الماضي ظرفًا لخوف معين، كالظلام والحيوانات والوحدة والفضاء الواسع والأماكن العالية والقناطر والماء. دعوني الآن أوضح بالأمثلة ذلك الارتباط الذي يحدث بين خوف داخلي وشيء خارجي غير ضار في حد ذاته. كانت بنت صغيرة في السابعة من عمرها تخاف المشي في الطريق لئلا تهوي عليها الأبنية، فلما قصت تاريخ حياتها تبين أنها كانت قد اقترفت إثمًا من شأنه أن يجلب عليها سخط أمها لو علمت به، وكانت قد أتت فعلتها هذه في شارع ضيق أثناء إعادة بنائه، ثم علمت بعدها بأيام أن بعض الأحجار تساقطت من أعلى جدران المنزل الذي بذلك الشارع الضيق، فجعلت منذ ذلك اليوم ترفض الخروج إلى الشارع ما لم تكن في صحبة أحد، وقالت أيضًا إنها لا تستطيع أن تمشي فيه قط إذا صاحبتها أمها، أفلا تظنون أن ضمير تلك الطفلة كان يؤنبها تأنيبًا شديدًا وأن الخوف من معرفة فعلتها تحول إلى خوف من تلك الأماكن التي ذكرتها تذكيرًا غامضًا بما اقترفته. عندما باحت لي تلك البنت الصغيرة بما كانت قد اقترفته؟ وعندما جعلتها تبوح به لأمها في حضرتي زال هم كبير من عقلها وشُفيت من خوفها.

وهاكم مثلًا آخر: «هاري» صبي في العاشرة من عمره دائم الخوف من الوحدة، وهو نبيه شديد الحذر في تصرفاته، يكره القذارة لدرجة أنه رفض لمس شيء في غرفة اللعب يحتمل أن يُوسخ يديه، وهو

يريد دائمًا أن يأتي أعمالًا طيبة. وقد ابتدأ خوفه ذات صباح في الساعة السابعة عندما نزل إلى المطبخ ليجهز لوالديه فنجانًا من الشاي، فلم يكد يفتح الباب حتى سقط حزام أبيه على كتفه وكان معلقًا فوق الباب، فارتعدت فرائصه وانطلق مسرعًا من المطبخ. وأصبح منذ ذلك الحادث لا يطيق البقاء وحيدًا في مكان ما، ويرى أياديَ ممتدة من خلف الأبواب وخيالات ترقص في الغرفة لترعبه، ويتوهم دائمًا أن الناس يرمقونه بأبصارهم. ولقد علمت من دراسة حالة الأسرة أن أباه سيد مطاع في منزله وهو ممن يفخر بطريقته في التأديب ولكنه مع ذلك يحب أطفاله حبًّا جمًّا ويعز بصفة خاصة هذا الطفل الذي يعجب بأبيه أيضًا. ذلك هو الصبي الذي وصف المخبز وصفًا بليغًا في محاضرتي الماضية. وأظن من الواضح أن هذا الصبي مصاب بعذاب الضمير فرغبته في أن يكون محبوبًا نظيفًا مطيعًا هي كل أمله في الحياة الذي يملك كل جوارحه. كما أن رغبته في التشبه بوالده والحصول على رضاه أقصى ما يصبو إليه، وهو يخاف أن لا يصل إلى مستواه مع ذلك. ولكن لديَّ فكرة ثاقبة توحي إليّ أن الطفل لا يود الوصول إلى ذلك المستوى بل يود لو يسمح لنفسه بالتراخي قليلًا، لولا حزام والده المعلق فوق رأسه والأيادي الممتدة من خلف الأبواب والأشباح التي تتبعه والأبصار التي ترمقه.

وإذا نظرنا نظرة عامة في المخاوف التي تنتاب الأطفال وجدناها تنقسم إلى نوعين تبعًا لتقدم نمو الطفل. فالنوع الأول بسيط وليس به التواء ويتعلق بغريزة المحافظة على النفس. وهذا النوع يشمل مخاوف الأطفال العادية التي تظهر في الحياة اليومية وتسهل ملاحظتها.

فالخوف من الضرر يشمل رعب الطفل من الظلام ومن الحيوانات ومن الاختطاف ومن سطو اللصوص. ولكنكم لا بد لاحظتم من شرحي للمخاوف التي تنشأ من خشية غضب الوالدين والتعاليم الخلقية، أن المخاوف التي ذكرتها الآن منذ قليل قد تكون ذات وجهين، فمن المسلم به أن الظلام مثلًا قد يعتبره الطفل من نوع الوحدة لأنه الحالة التي يترك فيها المرء وحيدًا بلا وقاية أو طمأنينة، وهو المكان الذي لا يُرى فيه شيء، والذي يحتمل مجيء الأخطار فيه من أي جهة، وهذا ما يُسمَّى بالخوف من المجهول، وينتاب الكثيرين من غير المتحضرين فيحتاطون ضده بأساليب عجيبة كالتعاويذ والكلمات السحرية. ولعل الصبي حين يصفر لنفسه تصفيرًا خفيفًا أثناء صعوده الدرج المظلم، أو حين يعد من واحد إلى عشرة أو يدق الأرض بقدمه ليحس بالطمأنينة والأنس من وقع أقدامه يحاول كما يفعل أهل الفطرة إبعاد الخطر الكامن في الظلام بالتعاويذ. ولكن الظلام نظرًا لما يحدثه من الرعب يصبح كأنه ذو شخصية ويتمثل في المكان أو الشخص الذي سينزل العقاب. ولعل اللصوص والأوهام التي تطرأ ببال الطفل في الظلام، ليست إلا الأشكال التي يتخذها ضميره الذي يؤنبه. فإن أردنا أن نحول دون نشوء الخوف الذي من النوع الأول البسيط وجب علينا أن نعود الطفل النوم وحده منذ البداية وقبول الظلام باعتباره الحالة المقارنة للنوم الهادئ. فإذا عود الوالدان أو المربية الطفل على ذلك في رفق منذ نعومة أظفاره في السنوات الأولى قبل أن تحدث الارتباطات بالأوهام في حياته فلن يكون هناك داعٍ لتعويده الشجاعة؛ إذ لن يكون عنده خوف

يحتاج التغلب عليه. والتمسك بالشجاعة موقف أخلاقي، معناه أن الطفل قد تكونت لديه القدرة على ضبط النفس، تلك القدرة التي يكون قد استعارها من شخص آخر هو معجب به، أو أنه قد تقبل مستوى من الجرأة لعله رآه مجسمًا في أبيه. وإن تدريب الأطفال على النوم لمسألة ذات أهمية كبيرة؛ لأن النوم وقت الاستجمام والراحة من عناء اليوم. وينبغي أن لا يُوضع الطفل في فراشه فجأة، حين يكون عقله مليئًا بأوهام اللعب، بل بعد فترة من الراحة يتناول فيها آخر وجبة في يومه من طعامه البسيط من غير اعتراض حتى يتهيأ جسمه وعقله تدريجيًّا من غير أن يشعر بقبول الخطوة التالية من حياته اليومية وهي النوم.

والمخاوف التي من النوع الثاني وهي التي ذكرت أنها تستعير شكلها من المجموعة الأولى ترتبط من غير شك بالشعور بالإثم الذي ينشأ في نفس الطفل في صلته بالمشرفين على سلوكه. والأمثلة التي ذكرتها يمكن أن يُقاس عليها إلى ما لا نهاية وهي توضح كيفية نشوء الشعور بالإثم في النفس، وكيفية نشوء المخاوف كأنهما عقوبات يستمدها الطفل من فكرته عن الخير التي تسيطر على ما تعود أن يعتقد أنه شر في نفسه.

وإن الآباء الهادئين لينشأ أطفالهم غير هيابين، ذلك لأنهم أولًا عقولهم رزينة وانفعالاتهم منظمة فيصبحون قدوة حسنة لأطفالهم الذين هم سريعو التقليد واستهواؤهم سهل للغاية. والسبب الثاني أن الآباء الهادئين لا يبثون في نفس الطفل شعورًا بالخير من شأنه أن ينغص حياته، فإن ذلك الشعور يتحول إلى ضمير ذي مطالب مرهقة،

ونظرًا لأن خيال الطفل أوضح بكثير من خيال الراشد، ولأنه يغذي عقله بكل ما يراه ويسمعه، فإن هذه الأشياء تندمج في مخاوفه منتجة بذلك شخصيات مرعبة يستمدها من عالم القصص الخيالية ومن حياة المتوحشين. لقد ذكرت لكم أن القصص الخرافية عبارة عن الأشكال الجميلة التي يحاول بها الطفل التعبير عن آماله وشكوكه بالنسبة للراشدين المتصلين بحياته، وهي أيضًا تشمل أغلب مخاوفه، فتجد فيها مثلًا التنين والمردة، بل ما هو أغرب من ذلك، وهو تحول الوحوش إلى بشر. فكم من طفل يمثل أباه في لغته الخاصة بحيوان معين. ثم يستعمل الكبار هذه الاستعارات في شعرهم. لا شك أن ذلك يستثير شكوكهم في قيمة القصص الخرافية للأطفال. ولقد أخبرني كثير من الأمهات أنهن حاولن شفاء أطفالهن من مخاوفهم بالمباعدة بينهم وبين القصص الخرافية. نعم إن تلك القصص تغذي خيال الطفل، غير أنها لا تخلق خياله، فإن الطفل يؤلف القصص الخرافية بمحض طبيعته، كما أن النباتات من طبيعتها أن تزدهر أزهارها، ومع ذلك فإن تنقية خيال الطفل من الأشياء المخيفة والمرعبة تتطلب العناية في تربيته في سنواته الأولى، وتعويده ضبط النفس بوسائل غير شديدة الصرامة تمنع نشوء ضمير قد يكون شبحًا مرعبًا في حد ذاته.

وبالاختصار تنشأ مخاوف الأطفال بسبب ما يصادقونه في خبراتهم من أخطاء في التربية. وهناك أولًا المخاوف التي ترمي إلى حماية النفس وهي نذير بالخطر، وتهيئ المرء للفرار من الضرر. وثانيًا المخاوف التي ليست من طبيعة الطفل، ولكنها تنشأ من احتكاكه الأول بالمشرفين على

نموه الخلقي من بني الإنسان، ذلك النمو الذي يتطلب خضوع السلوك لقواعد نظامية تؤدي إلى حياة اجتماعية منتظمة. فإذا جعلنا من تنظيم السلوك كابوسًا للطفل بالضغط عليه والحد من حرية دوافعه الطبيعية البدنية، فلا بد أن نتوقع حدوث اضطرابات تأخذ شكل الثورة وضيق الخلق والخوف، وهذا الخوف ينشأ عندما يكون الطفل وجلًا من نفسه. وتؤدي مثل تلك الحالة إلى انقسام الشخصية إلى قسمين: قسم طيب وقسم خبيث، ولكن النمو المنسجم وحده هو الذي يلتئم فيه الطيب وما يبدو كأنه خبيث، ويكونان شيئًا جديدًا، وهو الشخص المتزن.

* * *

الفصل التاسع

الغريزة والعادة

إن الذي كُتب في موضوع الغرائز كثير، ومع ذلك فليس هناك كبير اتفاق على طبيعتها، بل ولا عددها؛ على أن الجميع يعتقدون أن كُلًّا من الإنسان والحيوان –من غير تعليم أو مثال– يستطيع القيام ببعض عمليات معقدة كل التعقيد، ضرورية للحياة والبقاء.

فرضاع الوليد، والهرب من الخطر، والرغبة في الزواج، والنزوع إلى حماية الصغار، كل هذه أمور غرزية ظاهرة للعيان؛ ولكنَّ هناك ميولًا أقل وضوحًا من هذه، كانشغال الصغير بذاته وقد بدأ يدرج على قدميه، وكروح الجماعة في الطفل ذي العشر السنوات، وكالنزعة الفلسفية عند المراهق، كل هذا يصح أن يدخل في عداد الغرائز. وسنجري نحن هنا على هذا التصور الواسع في كلامنا عليها.

والعادة أيضًا لفظ صعب التحديد؛ فنحن نتكلم عن عادات حميدة وعادات ذميمة، وعن تعود عادة التصرف بشكل خاص. وقد صرف المفكرون وقتًا طويلًا في مناقشة المعنى الدقيق لهذه الكلمة؛ إلا أنه

يكفي في مقامنا هذا أن نعتبر العادة سلسلة أعمال تكرر من وقت إلى آخر، تكرارًا آليًّا في الغالب، استجابة لظرف خاص. فنحن مثلًا نتخذ عادة الاستيقاظ من النوم في وقت معين كل صباح، فما تكاد الساعة تؤذن بحلول ذلك الوقت حتى ننهض ونشرع في ارتداء ملابسنا ثم نمضي سحابة اليوم في نظام مطرد من عادات لا حصر لها، وبعض هذه العادات قليل التعقيد لدرجة أننا لا نعيه وقت حدوثه، بل إننا لننكر وجوده لو نُبهنا إليه. وما أقل أولئك الذين يشعرون بتلك العادات الصغيرة المعروفة «باللوازم الشخصية» والتي كثيرًا ما تكون مصدر فكاهة –وأحيانًا مصدر مضايقة– لأصدقائنا وذوي قرابتنا! بل العادات المعقدة كارتداء الملابس مثلًا، قد نأتيها ولا نكاد نشعر بها ما دام نظامنا اليومي سائرًا على وتيرته، حتى إذا ضاع منا أثناء اللبس زر ياقة –أو انقطع رباط حذاء– كان ذلك كفيلًا أن يردنا فجاءة وبقوة إلى عالم الواقع. ومن العادات. ما يكون مصدره السلوك الغريزي إلا أن كثيرًا من الأعمال التعودية يكون نتيجة تعلم وتدريب.

قبل أن نستمر في معالجة هذا الموضوع يحسن أن نقف لحظة نبحث فيها سر اضطرارنا إلى التفكير في عقولنا وعقول أطفالنا، وأساليب هذه وتلك في العمل؛ فإن بحث أساليب الأشياء في عملها أمر طبيعي سائغ، ونحن إذ نتساءل عن كيفية عمل العقل إنما نخطو خطوة أرقى من مرحلة الطفل الذي يفكك لعبته الميكانيكية، ودون مرحلة العالم الرياضي الذي يبحث عن قانون ضابط لمدار نجم النجوم. فأسئلة الطفل عن الكيف والسبب قد ترهق والديه إرهاقًا شديدًا، كما أن إتلافه

لعبته قد يضايقهما، ولكن هذه كلها ليست إلا مظاهر الرغبة في المعرفة وهي من أسس التقدم الإنساني. وإن إحاطتنا بعقول أطفالنا لتجعلهم مصدر لذة واهتمام ولو لبعضنا على الأقل، كما أن فهمنا لسيارتنا يزيد متعتنا بقيادتها.

ومن الأساسي عند التفكير في عمل العقل ألا نحصر انتباهنا في العقل الشاذ فحسب. وإن دراستنا لعقول أطفالنا لتزيد عنايتنا بهم، وفهمنا لهم، فلا تعود تثيرنا أو تقلقنا مشكلات سلوكهم البسيطة. فلنذكر دائمًا أن الطبيعة تتجه في عملها إلى المستوى العادي، غير أنها في كثير من الأحيان تتبع في ذلك خطة المحاولة والخطأ. فإذا ما رأينا لها أخطاء –وهو أمر مستمر الحدوث– وجب أن نتذكر أن الطبيعة في معظم الأحوال تصلح أخطاءها بنفسها، وتتحاشى وقوعها ثانية. وهذه القاعدة قاعدة المحاولة والخطأ –تلعب دورًا كبيرًا في تطور الغرائز واستمرارها، وفي تكون العادات. ومن علامة الخطأ أن تحس معه بعدم الرضى أو يستدعي في ذهنك أفكارًا غير سارة، فتميل إلى نبذ ذلك الفعل وتجريب طريقة أخرى في المستقبل غالبًا.

وينشأ السلوك الغريزي من ميول تكون موجودة بالفعل في عقل الطفل عند ولادته، وهو يحدث تلقائيًّا من غير أي تأثير خارجي. فالرضيع الجائع يبحث عن الطعام، فإذا لم تشبع حاجته أعلن عنها بالطريقة الوحيدة التي يعرفها. غير أن غريزة الرضيع تقابلها غريزة الأم التي تمسك به، فتهيئ له سبيل الوصول إلى مصدر غذائه. فإذا سار كل شيء في مجراه تكونت عادة الغذاء الصحيحة، وإلا نشأت صعوبات

في التغذية لا مخلص منها إلا بالاهتداء إلى عوض يسد حاجة الرضيع، وعندئذ تحل عادة غذائية جديدة محل العادة السابقة. فالرضاع من أوائل الأفعال الغريزية ظهورًا، وسرعان ما يتبعه غيره، كرفع الرضيع رأسه عند نومه على وجهه -تفاديًا للاختناق- وكالانقلاب على الظهر، وكالحبو والمشي وما إليها.

وإذا أُريد أن تتطور الحياة الغريزية عند الطفل تطورًا طبيعيًّا كاملًا وجب أن يكون القائمون على رعايته هم الأشخاص الذين يهيئون له بيئة وجدانية طبيعية ينشأ فيها. ولست أقصد بهذا أن وجود الأسرة كاملة -من أب وأم وإخوة وأخوات- ضروري؛ فإن هذا غير متيسر في كثير من الأحيان، وليس عدم إمكانه بمانع النمو الطبيعي من أن يأخذ مجراه. وإنما أريد أن ألفت نظركم إلا أنه كما يلعب الطفل والوالد دوريهما الغريزيين في حالة الرضاع التي أشرنا إليها، كذلك تؤثر غرائز كل من الوالد والطفل بعضها في بعض في المراحل التالية، ثم تأخذ غرائز كل من الطرفين تؤثر في غرائز الطفل الآخر، وإذا كانت العلاقة بينهما طبيعية كان النمو الطبيعي للطفل أسهل.

لقد ذكرت منذ قليل أن الغرائز في نظامها الطبيعي تظهر وتتطور وتختفي، فلأضرب لذلك مثلًا غريزة الحبو: إن كل طفل عند سن ما -تختلف باختلاف الأطفال- يكشف في نفسه القدرة على الحبو، وبعد مران بضعة أيام يستطيع أن ينتقل هنا وهناك من غير ما عناء، وهو يستمد من هذا متعة كبيرة، ويصبح عالمه أرحب وأوسع. غير أنه عندما يأخذ جهازه العصبي في اكتمال نموه، يتجلى له أن الطريقة الأجدى في

الانتقال هي المشي كالكبار، فلا يلبث أن يتحول عن الحبو. ومن المفيد والمهم معًا أن نلاحظ أن عُدّة الحبو في الحقيقة لا تفقد، وأن الكبير قد يلجأ إليها في ظروف خاصة كالانفعالات الشديدة، فإننا حين نجد أنفسنا فجأة في موقف خطر -على حافة مرتفعة، مثلًا، أو جسر ضيق لا سند للأيدي به- ننزع إلى أن نحبو على أيدينا وركبنا شاعرين أن ذلك أسلم لنا. غير أن هناك عاملًا آخر يدخل في موضوع النكوص إلى السلوك الفطري الغريزي؛ ذلك أنه إذا كان السلوك الغريزي قد سبب كثيرًا من اللذة والارتياح في بدء تكوّنه كان احتمال الرجوع إليه بعدُ أعظم، فإذا حرم الطفل إرضاء رغبة حاضرة كان من الطبيعي أن يحاول الرجوع إلى نوع قديم من السلوك قد استمد منه لذة في الماضي. وهذه العملية في كثير من الأحيان لا تجيء نتيجة تدبير أو تفكير، وإنما يقوم بها العقل الباطن. فالطفل الذي تعلم أن يربط بين الارتياح القوي وعملية الرضاع، ربما لجأ إلى مص أصبعِهِ في حالات الضيق والعناء، ولو بعد الفطام بمدة طويلة. على حين أن طفلًا آخر استمتع بما أُعطي من كبير اهتمام أثناء فطامه الصعب، قد تنشأ عنده بعد صعوبات في التغذية. هذا النكوص شائع في سلوك الأطفال الذين تحيط بهم صعوبات وجدانية؛ ومن هنا يسهل علينا أن نفهم ضرورة تعرّف النسق الطبيعي لنمو الغرائز وأهمية تركه حرًّا دون مغالاة فيه أثناء أي مرحلة من مراحل النمو.

إن البواعث الغريزية في بواكر الطفولة كفيلة بضمان تناول الغذاء وجذب انتباه الأبوين كلما مست الحاجة. وبجانبها ميول أخرى كثيرة أقل أهمية، كالقبض على الأشياء الصلبة، طلبًا لنصيب من الأمان أكبر،

ويميل الطفل إلى رفع رأسه وهو مستلق على وجهه كما أسلفنا. وفي خلال هذه المدة يجد الأبوان نفسيهما مضطرين بحكم الغريزة أن يتصرفا في طريقة معينة: الأم نحو الطفل، والأب نحو الأم، وكذلك نحو الطفل إلى درجة أقل. وإذ يبدأ الوليد يحبو، بعد اجتيازه مرحلة الفطام، يصبح أكثر استقلالًا؛ على أنه لا يزال بالطبع يعتمد على أبويه اعتمادًا متفاوت الدرجات. ثم يقرب الوالدان إلى درجة التساوي من حيث اعتماد الطفل عليهما في العناية بجسمه. غير أن الأم تظل أكثر أهمية، وأكثر حرصًا على وقاية الطفل. وهنا يواجهنا موقف يسبب شيئًا من الصعوبة أحيانًا؛ ذلك أن الأب، وعلى الأخص في حالة الذكور من الأطفال، كثيرًا ما يقلق لما يرى من مبالغة الأم في الوقاية. والحق أنه لا موجب لهذا القلق، فشدة عناية الأم في هذه المرحلة قلما تسبب كبير ضرر، اللهم إلا إذا جاوزت الحد المعقول. وحيث يترقى الاستقلال عند الطفل يزداد شعوره بأنه شخص، ويصبح أكثر انشغالًا بنفسه، هذا إلى أنه يحاول في العادة أن يزيد في قيمته الشخصية بإظهار قوته على الآخرين وباستحواذه على شيء يملكه؛ وهو كثيرًا ما يطلب هذا التملك من طرق غير مشروعة، ويحاول أن يسيطر لا على أقرانه فحسب بل على أبويه أيضًا. ومن الطرق التي يستعملها لزيادة أهميته الشخصية طريقة لعلها مرت بنا جميعًا، وهي أن يسرد عن أفعاله أقاصيص من محض الخيال. كل هذه الأنواع من النشاط طبيعية، وليس من اللازم أن تبعث على القلق. إلا أنه يجب أن نتذكر أن خير علاج لهذه الأحوال هو أن نسهل للطفل ارتياح النفس من طريق العمل، فإذا وهبناه الحب، وهيأنا

له رفقاء اللعب، وسخرنا منافذ لنشاطه، جرى كل شيء على طبيعته، وانتهى هذا الدور بسلام. أما المدة التي يمر فيها الطفل بهذه المرحلة فهي بين الثانية والخامسة من العمر. ولكن التطور بالضرورة آخذ مجراه طول الوقت، فالشؤون التي يهتم بها الطفل دائمة التغير، وتبدو فيه علائم الترقي في الغرائز الاجتماعية استعدادًا لاشتراكه بعد في أنواع النشاط الاجتماعي. ويميل صغار الأطفال إلى رفقاء من سنهم، ولكنهم لا يهتمون كثيرًا بالتعاون مع مجموعات كبيرة؛ وهم يلعبون لعبهم التخيلي مثنى وثلاثًا، ولكنهم لا يحبون تقاسم الأشياء، أو الاندماج في جماعات تعمل لغرض مشترك. أما النشاط الجمعي، أو نشاط الفرق، فإنه يجيء متأخرًا، ويظهر تطوره حوالي سن السابعة. وهذا هو السر في أن فرق الصغار من الكشافة إنما تنظم حوالي تلك السن.

وإنك لتجد في سن السابعة روحًا جمعية راقية مصحوبة برغبة غريزية في العمل للصالح العام، وفي أن يشغل الطفل مكانه بالنسبة للداته وأترابه، وهذه الغريزة إيجابية إلى حد كبير. وإن نجاح الفرد أو فشله ليتوقف كثيرًا على التوازن بين شيئين: أولهما زهو الطفولة عنده وميله إلى حماية نفسه -وعلى هذين يقوم نزوعه إلى النجاح- وثانيهما مقدرته على أن يكسب ذلك النجاح غير غافل عن سعادة المجموع وحقوق الآخرين. هذا العمل لرفع شأن النفس ليس دائمًا شيئًا مستهجنًا، بل هو ضروري -إلى حد ما- للنجاح؛ غير أنه ليس من العسير أن ندرك كيف يجب في الوقت نفسه حفظ التوازن بين حماية النفس وكسب النجاح له. وإن المحافظة على هذا التوازن لتزداد صعوبة فيما بعد حين

تضاف إلى مصالح النفس الذاتية مصالح الزوج والأسرة.

إن بين الأطفال -لحسن الحظ- فوارق، ولكنهم على الرغم من هذه الفوارق متشابهون على العموم تشابهًا كبيرًا. ونحن نعلم أنهم يجتازون مراحل متعددة في ترقيهم في الغرائز والسلوك، وفي الخلق (character) إذا ساغ أن نقول ذلك. ونعلم أيضًا أن الأطفال -من حين إلى آخر- تبدو في نموهم انحرافات عن المجرى الطبيعي؛ وإذا لم نبالغ نحن في أمر هذه الانحرافات، أو نتسبب في تثبيتها بجذب الانتباه إليها، جاء كل شيء في النهاية على ما نرضى ونحب.

أليس شأننا مع الصبي الذي يحاول المشي فيتعثر ويقع أننا لا نلومه، ولا نكثر الكلام حول ما قد يكون أصابه من أذى، بل نمد إليه يد المساعدة ونعطف عليه بكلمة تشجيع. وأهم من ذلك -لا نمنعه من محاولة المشي مرة أخرى!

إن واجبنا أن نفهم تمام الفهم أن الغرائز موجودة، وأنها تنمو وتختفي تبعًا للتطور الطبيعي عند الطفل، ومن واجبنا أن نمد الطفل بالعون والنصيحة؛ وأهم من ذلك أن نهيئ لكل نوع من أنواع السلوك الغريزي حرية العمل ليتطور كما تقتضي طبيعته في الوقت المناسب له.

وكما يمر السلوك الغريزي خلال تغيراته، كذلك تجيء العادات المناسبة لكل تطور وتذهب. ولكن العادة -كما قلنا قبل- تشمل نطاقًا واسعًا من الأعمال الغريزية. فالعادات استجابات، تتطلب أقل مقدار من الجهد الذهني، نستعملها نحن في الحالات المألوفة لدينا؛ وتكاد العادات تكون آلية، وربما ظهرت دون وعي وإدراك.

والعادات قد تكون خدمًا صالحين، وقد تكون سادة رديئين؛ فالرجل الذي يستطيع أن يجعل من مسائل حياته عادة إنما يخفف عن عقله عبء التفكير، ويحتفظ بنشاطه الذهني للفرص ذات الأحوال الجديدة التي تتطلب منه حكمًا وسداد رأي؛ وتجد العقل المنظم الذي يسير على نظام معبد خبيرًا في الغالب بتكوين العادات. ومن الجهة الأخرى تجد العادة السيئة -أي رد الفعل الذي يعتاده صاحبه من نوع غير مرغوب فيه- سهلة التكوين كذلك، إلا أن من الخطأ الاعتقاد بأن اكتساب العادات الرذيلة أسهل من كسب العادات الحميدة، فليس هذا هو الشأن دائمًا. ولقد أشرت سابقًا إلا أن العمل الاعتيادي يميل إلى أن يتكرر، عند مواتاة الفرصة، إذا كانت نتيجته باعثة على الارتياح؛ ومن الضروري لتربية العادات في الطفل أن يؤخذ الحذر في اختيار النظام والترتيب، فلا يشجع التأثر الاعتيادي إلا عند تشابه الحالتين تشابهًا تامًّا، ولتتجه العناية إلى أن تكون النتيجة النهائية لذيذة. كذلك في التخلص من العادات الرذيلة يجب -قدر المستطاع- أن نعمل على ألا تحدث الظروف المشجعة على التعود؛ وإذا حدثت تلك الظروف وظهرت العادة فلنعمل على ألا تكون النتيجة محببة، أو على أن تكون غير لذيذة قطعًا. ومن الأهمية بمكان في أي محاولة لتكوين العادات الجديدة ألا يتبع الفشل بالعقوبة، فإن ذلك يخلع على الموقف صبغة غير لذيذة يزداد معها التدريب صعوبة؛ فالثناء والمكافأة على النجاح أجدر أن يثمرا نتائج طيبة، من اللوم والعقوبة على الفشل. وفي حالة العادات الرذيلة تستطيع -بحرمانك الطفل من مزية يحرص عليها

كثيرًا، أو بعملك على أن تكون النتائج غير لذيذة- أن تجعل التطبع بهذه العادات غير لذيذ، وبذلك تساعد على اختفائها.

على أن من المستحيل التعميم في مسألة العقوبة، فهي موضوع شائك متعدد النواحي. وإن أنجع طريقة مع صغار الأطفال للتخلص من العادات الرذيلة أن تُستبدل بها أنواع من النشاط يجني منها الطفل مقدارً من اللذة أعظم. وإن الطفل الصغير ليقتني العادة الرذيلة، في معظم الأحيان مجرد صدفة واتفاق؛ فهو خلو العقل واليدين، وسرعان ما يعثر بشيء يشغله فيجد فيه لذة ومتعة، وبالطبع يكرر التجربة فتنشأ العادة. والمثل يقول «الشيطان يجد الشر للأيدي العاطلة»، وهو مثل عام الصدق. وإن إيجاد العمل المشروع للأيدي العاطلة ليذهب بعطلها، وما هو إلا زمن يسير حتى يقضي على الشر. غير أن الزمن مهم، ولا يمكنك أن تتوقع في الحال ذهاب عادة إذا كانت تلك العادة قد رسخت وتأصلت. ومن الضار دائمًا أن تُربط بالعادات غير المستحسنة فكرة خبث أو شر، فإن الطفل لا يعي خطأه، ولا يشعر بالمسؤولية من أجله، ولا يدرك ما ينطوي عليه عمله من سوء؛ ولومك إياه على شيء خارج في الواقع عن دائرة تصريفه -وهو يشعر أنه منه براء- مخالف لما يتصوره هو عن العدالة؛ فالأطفال في جوهر طبيعتهم عادلون منطقيون، ومثل هذه الأحوال قد تكدر -إلى حد خطر- صفو العلاقات بينهم وبين الكبير الذي يتولى تهذيبهم.

إن هناك نواحيَ من تكوين العادات لا يمكن أن تفرض على الطفل فرضًا؛ لأن في طيات جسمه عوامل تتوقف عليها بعض العادات؛ فمما

هو عديم الجدوى -مثلًا- أن ترسم نظامًا جامدًا لإطعام الطفل دون أن تتنبه إلى اعتبارات كثيرة من شهيته وحجمه ونوع رياضته وآناء نومه؛ فبعض الأطفال -نظرًا لمقتضياتهم الجسمية الخاصة -يتطلبون نظامًا خاصًّا من التغذية، وليس من اللازم أن يسد حاجتهم طعام قد ثبتت صلاحيته من قبل الآخرين. وهذا الذي نقرره صادق على الطفل الصغير، وهو موضوع بحثنا هنا. أما كبار الأطفال الذين وصلوا إلى درجة من النمو يعرفون بها ما يدور حولهم وما يعمل وما لا يعمل فالشأن معهم مختلف.

إن من الخير دائمًا لمن يتعهد صغار الأطفال أن يدع اعتبارات القيم الأخلاقية جانبًا، وأن يستعمل الطرق البسيطة المباشرة في غرس أنواع السلوك الحميدة فيهم وإبعاد أضدادها.

ولأختم هذا الموضوع بأن أكرر ما قلته سابقًا -لأهميته- ذلك أنه يجب علينا أن ندرس أطفالنا، وأن نذكر دائمًا أن مثل هذه الدراسة جديرة أن تجعل علاقاتنا بهم أكثر لذة وأبعث على الرضى والارتياح؛ وخليقة أن تسعدنا على أن نلاحظ -في هدوء- كل ما يظهر لنا في شكل خصائص أو لوازم تعرض من وقت إلى آخر في كل طفل سليم؛ وأن ننظر إلى هذه الخصائص نظرنا إلى أخطاء طبيعية في مجرى التكيف والنمو، بدلًا من أن نطلق العنان لخيالنا يبالغ في مغزاها.

* * *

الفصل العاشر

الطفل في لعبه

كثيرًا ما نميل إلى اعتبار اللعب شيئًا عديم النفع ليس له غاية مرتقبة، وكثيرًا ما سمعت الآباء يأمرون أطفالهم بألا يضيعوا وقتهم فيه؛ ولكن اللعب ليس على الإطلاق مضيعة للوقت، وإن كانت المبالغة فيه تعتبر كذلك.

وأرى أن مما يسهل بحث هذا الموضوع –على الراجح– أن نفصل أنواع اللعب ونعالج كلًّا منها على حدة: فهناك أولًا نوع يتعلم الطفل منه حقائق عن الأشياء المحيطة به، ومن هذا ما يتعلمه الطفل الكبير عن الآلات وعمل القاطرات والمحركات والعجلات وسكة الحديد. وهناك نوع ثانٍ يتعاون فيه عدد من الأطفال يلعبون معًا في جماعات متقاتلين أو متدافعين أو مشتركين في لعبة منظمة. والنوع الثالث ينبعث من الثاني ويتميز بما يظهر فيه من تخيل وإيهام، وأسهل ما يكون ذلك بالطبع في مجموعات من الأطفال.

وإذا كان من الشائق أن نراقب لعب صغار الحيوان من جراء وقطيطات، فألذ من ذلك كثيرًا أن نراقب الأطفال يصبغون لعبهم بصبغة التخيل والإيهام. وإذا عُنينا بالإنصات إلى الملاحظات المتسلسلة التي يقرن بها الطفل لعبه، اجتمع لدينا الكثير من مفاتيح أفكاره؛ فالأب الذي يصغي لطفله يناجي دميته أو حيوانه الصغير، يستطيع أن يتعرف الشيء الكثير عن نفسه وخاصة آراء الطفل فيه، إذا أعار الموضوع شيئًا من التفكير.

ومن الشائع الكثير أن تسمع الطفلة الصغيرة تنسب أخطاءها ومصاعبها إلى دميتها أو حيوانها؛ فلقد أذكر أن طفلة أرتني عروسها ذات يوم وقالت في شيء من الإعجاب: «إن العروس لا تبكي إذ يُغسل شعرها الآن!» مميزة كلمة «الآن» في جملتها بكثير من التأكيد، وقد رجحتُ من هذا أن غسل شعر هذه الطفلة كان في المبدأ مصدر عناء لها، وأن الأمور الآن أحسن مما كانت عليه من هذه الجهة، وبادرت أمها فأخبرتني أن ما توقعتُه صحيح. وهذا يريك كيف تحتجب أفكار الأطفال تحت ستار خفيف، وكيف يمكن تأويلها بسهولة.

يحدثنا علماء النفس أن اللعب غريزة، أي أنه واحد من تلك الميول التي تولد معنا كالنزوع إلى الأكل والنوم، وأن كل شخص طبيعي النمو مجبول على أن يلعب، ما له من ذلك بدّ. فكلنا يجب أن يلعب، حتى في هذا العصر المتعب المزدحم. إننا إذ نتكلم عن لعب الكبار لا نستعمل كلمة «لعب» وحدها، ولكننا نتحدث عن «تمضية الوقت» وعن الاستجمام –والاسترواح– وأنا شخصيًّا لا أحب التعبير بتمضية الوقت؛ لأن معناه أن نعمل شيئًا لصرف الوقت فحسب، وهذا ليس في الحقيقة

لعبًا؛ ولكن التعبير بالاستجمام -أو استعادة النشاط- يعطي فكرة أصح وأنسب؛ ذلك لأن الكلمة (recreation) تشير إلى إعادة بناء الفرد، أو ما يقرب من خلقه خلقًا جديدًا، بنوع من النشاط مسلٍّ مريح؛ والتعبير نفسه يشير إلى طرد السآمة والملل وبعث روح جديد من النشاط فينا نستعد به لاستئناف العمل. أما الحال في الأطفال فمختلفة؛ وذلك أن اللعب عمل الطفل، وأنه ضروري لنموه وتنشئته، وأنه تدريب للحياة، فكلما أجهد الطفل نفسه في لعبه كان أكثر صلاحًا للحياة المستقبلة.

والآن فلنفكر قليلًا فيما يحمل الطفل على أن يبذل في لعبه جهد طاقته. إن الغرائز كلها مرتبطة بتوليد الطاقة، فالخوف يملؤنا طاقة ويجعل هربنا أسرع، والغضب يجعل أفعالنا أكثر عنفًا، والنزوع إلى اللعب يدفع الطفل إلى الصخب أو الرقص هنا وهناك، أو تصريف طاقته الغريزية في وجه من الوجوه، والطفل الذي لا يُعطي الفرصة لتحرير هذه الطاقة يصبح بَرِمًا سريع الغضب.

هذه الطاقة يمكن أن تستعمل أحيانًا في نشاط عقلي، وإن قسطًا صالحًا من اللعب العقلي لحسن مفيد. زِدْ على هذا أن الطفل الذي لا يستطيع الجري والحركة لسبب ما -كالمرض- يستطيع أن يعمل بعقله الشيء الكثير. ولكن في حالة الصحة ينبغي أن يحفظ التوازن بين ما يُسمَّى لعبًا عضليًّا ولعبًا ذهنيًّا -أو لعب الجسم ولعب العقل.

إن صغار الأطفال ليكون لعبهم في الغالب كله عضليًّا، حتى إذا كبروا ازدادت حاجتهم إلى اللعب العقلي، وكثير من الكبار يصدفون بتاتًا عن الأخذ بنصيب من اللعب العضلي. ومن واجب المدرسة أن

تزود الأطفال بما يحتاجون من لعب عقلي، وهي في الغالب تقوم بهذا الآن، فقد أصبحت الدروس فيها شائقة ممتعة لدرجة أنها لا يمكن أن تُسمَّى في الحقيقة عملًا.

إذا نظرنا إلى اللعب من هذه الوجهة -إذَنْ- وجدناه منفذًا لا بد منه للطاقة التي تتولد من غريزة اللعب. ولكنَّ هناك نوعين آخرين منه أشرنا إليهما في مقدمة هذا الفصل فلنقف عندهما ولندرس مغزاهما: إن الطفل الصغير يلعب فيمارس الأشياء البسيطة التي تقع في متناول يده، ممسكًا حينًا بملعقة يضرب بها بلاط الحجرة، أو -عندما تتقدم به السن- يقذف بها؛ متناولًا حينًا آخر شيئين أو (كتلتين) يقرع أحدهما بالآخر، أو مشتغلًا يعمل ما من هذا الطراز. وهو في خلال كل ذلك يتعلم الشيء الكثير، فهو لا يتعلم استعمال عضلاته فحسب، ولا تنسيق حركاته كما يقول النفسانيون (أيْ جعل عضلاته تعمل معًا في انسجام) ولكن يتعلم كذلك شيئًا كثيرًا عن صفات الأشياء التي يمارسها: صلابتها ووزنها ودرجة حرارتها وسهولة انكسارها أو صعوبته، وبهذا يبدأ يعرف شيئًا عن دنياه التي يعيش فيها. حتى إذا اشتد ساعده وأصبحت حركاته أثبت، وعقله أقدر على التفكير المعقد، أخذ يستعمل الأشياء لغرض يترسمه، كاستعمال الأدوات في بناء شيء ما، فقد ثبت أنه لا شيء من الحيوان -إلا القردة الراقية- يستطيع استعمال العدد والأدوات، وإن كان الكثير من الحيوان يستطيع القيام بعملية البناء.

يبدأ الطفل في بناء القوالب بعضها فوق بعض، وربما استعمل عصا يقرّب بها الأشياء نحوه، ويرمي بالأشياء، وكلما ازداد تعلمه زاد

حبه لممارسة الموضوعات المعقدة. وإن الطفل الصغير -بالطبع- ليقنع بقوالبه وبقطع الورق الصغيرة، ولكن الولد الأكبر سنًّا لا يرضى بأقل من أن تكون لديه مجموعة كاملة للبناء، والبنت الكبيرة تحرص أن تكون لها عروس تقوم هي بإلباسها وبنزع ملابسها.

إن أطفال هذه الأيام لسعداء الحظ بما يستطيعون الحصول عليه من مختلف أدوات اللعب، ولكن هذا في الواقع سلاح ذو حدين، فقد كثر الميل إلى إعطاء الأطفال لُعبًا لا يستطيعون فهمها أو تدبيرها، وهذا من الأسباب التي تحمل صغار الأطفال على تكسير هذه اللعب أو تمزيقها بدلًا من اللعب بها، فإن اهتمامهم بكيفية عملها يفوق اهتمامهم بجعلها تتحرك أو تسير.

والمقدرة على اللعب التقليدي -كأن يتخذ الطفل من آلة صغيرة قاطرة تتحرك- تجيء متأخرة في الظهور عن نزعة البحث في السبب والغاية. ومن أقوى الميول عند الأطفال رغبتهم في معرفة كيف يتحرك الشيء، فتراهم -لهذا- يفكون الآلة قطعًا وأجزاء بدلًا من أن يحاولوا تسييرها، وأشد ما يكرهون اللُّعب التي لا يستطيعون فهمها.

هذا اللعب بالأشياء العادية يعطي الطفل مرانًا عظيم القيمة في استعمال أصابعه، ويمده بالمعلومات عن الأشياء التي تحيط به في حياته اليومية. غير أن ممارسة الطفل شيئًا ما واستعماله إياه يختلفان بالطبع حسب سنه، وإلى حد ما حسب نوع تعليمه؛ فطفل يقلد في لعبه، وآخر يلجأ إلى التخييل والإيهام، وثالث تغلب عليه النزعة الواقعية وممارسة الأشياء الحقيقية.

والآن فلننتقل إلى النوع الثاني من اللعب: إن الطفل إذا نما، وابتدأ يختلط والآخرين من الأطفال، وأصبح اجتماعيًّا في تفكيره، تطور تبعًا لذلك لعبه، وغلبت عليه صبغة النشاط الجمعي. وهذا اللعب الجمعي طريقة عظيمة القيمة في تعليم الطفل كيف ينبغي أن يعاشر الأعضاء الآخرين من الجماعة في كبره. وقد يتألف هذا النوع من عدد ما من الأطفال يخترعون لعبة يلعبونها معًا، أو من فريق يلعب لعبة منظمة. هذه التجربة تعود على الطفل بالنفع؛ إذ تعلمه كيف يتصرف ليكون عضوًا مقبولًا في الجماعة، فالأطفال سريعو الملاحظة للأشكال غير المقبولة من السلوك، سريعو التصحيح للعادات الاجتماعية الرديئة يلمحونها في واحد منهم.

نستطيع أن نقول –إذَنْ– إن اللعب بالأدوات واللُّعب، ومع الرفقاء، يعتبر نشاطًا ضروريًّا للأطفال، وليس هناك أي شك في أنه أساسي لنمو كل طفل.

غير أن للعب جانبًا آخر عظيم الأهمية، هو ثالث الأنواع التي أشرنا إليها من قبل: ذلك أن كثيرًا من الأطفال –إذْ يلعبون– يطلقون العنان لخيالاتهم الجامحة ويتوهمون الخيال حقيقة فيما يلعبون به من الأشياء، وقد يحصل هذا أحيانًا في مجموعات منهم، كأن يكون لأسرة بتمامها لعب خيالي يقوم به أفرادها جميعًا فيتخذ كل واحد منهم اسمًا وصفة متميزين، وإذا تلاقوا مرة ثانية ساروا في القصة الوهمية من حيث انتهوا في المرة السابقة. وإني لأعرف –جيد المعرفة– أسرة تعود أفرادها وهم صغار أن يلهوا بمثل هذا النوع من اللعب، ويجنوا منه لذة وسرورًا،

ولهؤلاء الأفراد الآن شهرة كبيرة في عالم الكتابة.

هذا اللعب الأسري الخيالي طريف جدًّا، وهو نوع طبيعي من أنواع اللهو والتسلية، ولا يعود على صاحبه بأي ضرر. إلا أن اللعب التخيلي الذي يقوم به طفل بمفرده قد يكون -وقد لا يكون- شيئًا حسنًا، فبعض الأطفال ذوي الخيال الواسع يستعملون اللعب للتخفيف عن مشاعرهم، كأنما يعوضون في هذا اللعب ما تسلبهم إياه الحياة الحقيقية. وإذا قضت الظروف -لسبب من الأسباب- على بعض الأطفال أن يكونوا وحيدين وألا يستطيعوا اصطناع الرفقاء، فقد يلجأون -إذَنْ- إلى اختراع رفقاء وهميين، يحيون وإياهم حياة اجتماعية، وهذا شائع كثير الحصول عند من لا رفقاء لهم. ولكن إذا رأيت الأطفال لهم رفقاء ولكنهم لا يختلطون بهم، مؤثرين أن يحيوا حياة الانفراد والخيال، فاعلم أن الشأن مختلف، وأن من الواجب البحث عن سبب هذا الأمر، فإن الطفل الذي يختار لنفسه موقف الانزواء الشديد سيكون شأنه بعد في الحياة أن يتجنب القيام بمسؤولياته وأن يفرَّ من مواجهة الحقيقة.

ومن الجوانب المهمة في اللعب ما ينطوي عليه من معنى القدرة على العمل والإنجاز؛ فالطفل الذي يبني قلعة، أو يسابق في لعبة ما، قد يتأثر تأثرًا عميقًا بنجاحه أو فشله، لا في لحظة اللعب فحسب، بل في موقفه العام من الحياة أيضًا. وهذا من الأسباب التي تستوجب أن يكون اللعب -أيًّا كان نوعه- مناسبًا لقدرات الطفل. وفي حالة ألعاب المهارة يجب أن يشجع الطفل على المران، حتى إذا جاء وقت السباق ظهر بمجهود لائق في سباقه بين أقرانه. غير أننا في هذا -كشأننا في

كل الأشياء- مطالبون أن نحفظ التوازن بين اللعب في طريقة خاملة مهملة، وبين التحمس له والاندفاع فيه اندفاعًا خارجًا عن حد القصد والاعتدال.

وخلاصة ما قلناه إلى الآن أن اللعب نافع وضروري، وأنه في الواقع الطريقة التي يمرن فيها الطفل على الحياة، وأن النشاط الذي يبذله الطفل في لعبه نشاط طبيعي تولد الرغبة الغريزية في اللعب.

إن اللعب يمد الطفل بالمعلومات عن الدنيا التي يعيش فيها، والناس الذين يحيا معهم، والذين سيختلط وإياهم في حياته المقبلة. وينبعي لنا أن نذكر دائمًا أن الطفل ينمو، وأنه في كل مرحلة من مراحل وجوده يستعمل أدوات للّعب مختلفة، تكون في المبدأ بسيطة، ثم تزداد تعقدًا كلما ازداد هو نموًّا، وبنفس الطريقة يتغير لعبه الجمعي: فإذا كان صبيًّا صغيرًا أحب اللعب بمفرده، وإذا نما ودرج أحب اللعب في جماعات صغيرة؛ فإذا ترعرع فأصبح يافعًا آثر اللعب في فرق منظمة. وعلى هذا فإذا أردنا مساعدته على أن ينمو نموًّا طبيعيًّا، وجب علينا أن نتأكد أن لديه رفقاء للعب مناسبين، وفرصًا يتمكن فيها من ملاقاة هؤلاء الرفقاء، وأدوات للعب تناسب سنه وقواه.

إذا تنبه الآباء دائمًا لهذه النقط البسيطة، وخصصوا جزءًا من تفكيرهم للعب أطفالهم، وجدوا في النهاية أن تعبهم لم يضع سُدى. فينمو أطفالهم من جميع الوجوه، وتزول متاعبهم السلوكية، المقلقة -على ضآلتها- ويصبحون أكثر هناءة وأوفر سعادة.

الجزء الثاني

كيف يعمل العقل

في المجتمع؟

سيرل بيرت

الفصل الحادي عشر

سيكولوجية الجنسين

كان كلامنا حتى الآن مقصورًا على سيكولوجية الفرد، أي على دراسة عقل البالغ وعقل الطفل كلًّا بمفرده. ولكن بني الإنسان يعيشون معًا في جماعات، والمؤثرات الاجتماعية التي تحيط بهم لها في سير عقولهم كبير التأثير. غير أن فرع علم النفس الاجتماعي[1] –لسوء

(١) ظل علم النفس إلى عهد قريب قاصرًا نفسه على دراسة عقل الفرد الإنساني، تاركًا الجانب الاجتماعي من سلوك الإنسان لفروع أخرى من الدراسة أهمها الأخلاق والقانون والاقتصاد السياسي. ولكن لم يكد ينتصف القرن التاسع عشر حتى كانت بحوث الفلاسفة والمصلحين الاجتماعيين قد أثارت معضلات في السلوك الاجتماعي وفي تأثير بعض الأفراد على بعض. ومن مناقشة هذه المسائل نشأ الفرع الجديد وهو علم النفس الاجتماعي. وسرعان ما عُولجت بعض مسائله –كالتقليد والإيحاء وروح الجماعات– على أساس علمي. وكان من أوائل من عالجوها «بريد» و«بينيه» و «تارد» و«لبون». حتى إذا جاءت سنة ١٩٠٨ خطا هذا العلم خطوة أخرى حين نشر «ماكدوجل» كتابه المشهور (مقدمة لعلم النفس الاجتماعي)، وفيه قرر هذا العالم مذهبه في فهم السلوك الاجتماعي في نواحيه المختلفة، راجعًا إياه إلى أسس الغرائز وانفعالاتها والميول العامة من إيحاء وتقليد. وكانت هناك طائفة أخرى من العلماء –وهم رجال الأنثروبولوجيا والاجتماع– عاكفة على دراسات الثقافات البدائية وتطورها –من أشهرهم «تيلور» مؤلف كتاب (الثقافة الفطرية)، و«فريزر» مؤلف الكتب الكثيرة التي من أكبرها (الغصن المذهبي) و«جارفث ريد» مؤلف كتاب (أصل الإنسان وخرافاته) و«كنج» مؤلف=

الحظ- أحدث في الوجود من علم النفس الفردي؛ وبالرغم من كون مشكلاته في الدرجة الأولى من الأهمية فإن معرفتنا به أقل يقينًا وأقل تفصيلًا.

إن الرجل العادي ليتكلم -بلا حساب- عن الخصائص العقلية للجماعات الإنسانية المتنوعة: فيخوض في الفروق بين الجنسين، وبين الطبقات الاجتماعية المختلفة، وبين أنفسنا والشعوب الأجنبية. فهل اتجه الباحث العلمي لدراسة هذه المسائل؟ وإذا كان فما النتائج التي وصل إليها؟

لنبدأ الآن بالجنسين فنضع كلا منهما تحت المجهر، ثم نتساءل: أيسير عقلا الرجل والمرأة على نسق واحد؟

(١) كل عالم الحيوان -في الغالب- وجزء عظيم من عالم النبات -ينقسم إلى نصفين: ذكر وأنثى. فما هو الغرض الذي يخدمه مثل هذا الانقسام؟ إن هذا التميز يرتبط في أساسه بإنتاج النسل، فلو أن كلا منا كان مولودًا لوالد واحد لجعلتنا الوراثة- كما يزعم بعضهم -صورة

= كتاب (تطور الدين)، و«دوركيم» مؤلف كتاب «الأشكال الأولية من الحياة الدينية)، و«ليفي بروان» مؤلف كتاب (العقلية الفطرية) وغيرهم. لم تلبث هذه الدراسات أن وجدت طريقها إلى ميادين علم النفس، واتجه غير واحد من السيكولوجيين -وعلى الأخص رجال التحليل النفسي- إلى بحث نواحٍ منها على أساس سيكولوجي، فبحث «فرويد» ظواهر الرمز المقدس (الطوطم) والتحريم في الجماعات الفطرية، و«مالنوفسكي» الحياة الجنسية عند المتوحشين، و«هافلوك أليس» سيكولوجية الجنس.... على أن حركة التجريب في علم النفس لم تلبث أن غزت الميدان الاجتماعي في الثلاثين سنة الأخيرة فتفنن الباحثون في ضروب الاختبارات والمقاييس والتجارب التي تتناول ضروب السلوك الاجتماعي. ونتائج هذه الحركة هي التي يسجل الكتاب الحاضر أهم مظاهرها.

طبق الأصل من أسلافنا، وإذَنْ لانعدم التنوع، ولترتب على ذلك ذهاب كل فرصة للتغير أو الترقي. أمَّا وكل ولادة هي نتيجة اختلاط خليتين حيويتين، فإن الذي ينتج عنهما مخلوق ثالث جديد يختلف عن كل من أبويه الذين نسلاه. على هذه الطريقة تدأب الطبيعة في تجاربها، ويقتل تنازع الوجود غيرَ الصالح للبقاء، فلا يبقى إلا الأصلح، ينقل للأعقاب ما تحسَّن على الأيام من خصائص ومميزات.

إن الفروق الجنسية الجوهرية -في الواقع- فروق في الغدد والأعضاء التناسلية. ونحن نعلم الآن أن لهذه الغدد تأثيرًا على كُلٍّ من النمو الجسمي والوجدان أو المزاج. فالفروق الأولية إذَنْ -في الغدد- تجلب معها بعض فروق ثانوية في الجسم وفي العقل. ولن نقف هنا طويلًا عند الفروق الجنسية الأولية؛ فأما الثانوية فيمكن تقسيمها قسمين جثمانية وعقلية. وعلائم الجنس من الوجهة الأولى ظاهرة ظهورًا كافيًا: فبيننا مثلًا -ترى الذكور أطول قامة، وأثقل وزنًا، وأكبر عظامًا، وأصلب عضلًا ولهم أصوات عميقة وذقون مشعرة. أما المرأة فيحدثنا «شوبنهاور»[1] أنها إذا وزنت بالرجل لم تكن مثالًا للرشاقة الجسمية،

(١) شوبنهاور (Arthure Schopenhauer ١٧٨٨ -١٨٦٠) الفيلسوف الألماني المشهور صاحب كتاب «الدنيا فكرة وإرادة»، وأحد مجموعة الساخطين -من الشعراء والفلاسفة والموسيقيين الأوروبيين- الذين جمعهم النصف الأول من القرن التاسع عشر على فكرة التشاؤم.

يسير «شوبنهاور» في سلسلة فلسفته النقدية المتمردة حتى يصل إلى أن الحياة شر وأن الموت خير منها، وإلى أن التوالد هو الهدف الأساسي لكل كائن عضوي، وأن المرأة هي المسؤولة عن معظم الشقاء في هذا العالم، وإلى أن الرجال أكثر جمالًا من النساء. وما من أحد -إلا رجل قد غشي على عقله ميله الجنسي- يرضى أن يعطي اسم «الجنس اللطيف» لتلك المخلوقة الضيقة=

ولكنها تبدو صورة شاذة ضيقة الصدر، كبيرة الثديين، قصيرة الساقين، عريضة الحقوين، مقوسة الركبتين. وربما كان «شوبنهاور» قد بالغ في رسم الصورة، ولكن من المتفق عليه، أن بناء الجسم في «الجنس الأضعف» -ولو أنه مكون تكوينًا مناسبًا لحمل الأطفال وتنشئتهم- يكون من مبدأ المراهقة عائقًا كبيرًا عن كثير من أنواع العمل كالقتال والصيد وقطع المسافات البعيدة.

والخصائص العقلية عند المرأة أكثر غموضًا: فالجنسان كما نراهما في العالم المتمدين يظهران -لأول وهلة- مختلفين اختلافًا شاسعًا في الصورة العامة التي ينظر بها كل منهما إلى الحياة. إن المرأة لتتبع في لبوسها قواعد خاصة بها، وتتجمل وتتطيب، وتعتني بتجعيد شعرها. وهي بهذه الوسائل المصطنعة قد ميزت نفسها تمييزًا جنسيًّا مبالغًا فيه لم تدانه أي طائفة أخرى من الحيوانات الفقرية. أما دوافعها النفسية فتبدو أغرب، بل إن عقلها كان ولا يزال لغزًا أو سرًّا غامضًا على الرجل. ولقد يدّعي كثير من الناس أنهم وفقوا إلى مفتاح ذلك السر.

= الصدر... وبدلًا من تسمية النساء الجنس الجميل كان ينبغي أن يُسمين «الجنس غير الذوقي»، فليس عندهن في الحقيقة أي حس أو قابلية للتأثر بالموسيقى أو الشِّعر أو الفنون الجميلة، وإن كُنَّ يدعين هذا أحيانًا رغبة في الإرضاء؛ وليس لديهن القدرة على النظر إلى أي شأن من الشؤون نظرة موضوعية، وإن أشهر مشهوراتهن لم ينتجن أي إنتاج أصيل في الفنون الجميلة، ولم يعطين للعالم عملًا ذا قيمة خالدة في أي ميدان من الميادين. ولقد كان الآسيويون أحكم من الأوروبيين حين اعترفوا صراحة بنقص المرأة، وحين فرقوا بينها وبين الرجل في كثيرة من الحقوق والواجبات.

هذا الموقف العدائي الصريح الذي وقفه «شوبنهاور» من المرأة كان موضع تحليل ودراسة من بعض الباحثين، ومنهم من رد تشاؤمه على العموم إلى ظروف حياته الخاصة واعتلال صحته واضطراب أعصابه، ورفضه أن يحيا الحياة الطبيعية حياة الزواج والأسرة والأطفال.

ولكنَّ آراءهم تستند -في الغالب- إلى نظريات لهم ناقصة الاستقراء مبنية على الحدس والظن أكثر من بنائها على الحقيقة والواقع.

(٢) وأبسط تلك الآراء في تعليل الفروق العقلية بين الرجل والمرأة هو الرأي القائل بأن تلك الفروق وليدة المؤثرات الاجتماعية وحدها. وقد حدد «جون ستيوارت ميل»[١] هذا الرأي تحديدًا واضحًا -في كتابه «إخضاع النساء» الذي وُصف يومًا ما بأنه الوثيقة المقدسة لحركة المطالبات بإعطاء المرأة حق التصويت السياسي. وخلاصة الرأي أنه -على حين يخرج الرجال للحرب أو للعمل- يبقى النساء في المنزل يقمن على رعايته ويتعهدن الأطفال. ومن هنا بقيت النساء متفرقات،

---

(١) مِيلْ (John Stuart Mill ١٨٠٦ -١٨٧٣) أحد زعماء مدرسة المنفعة في القرن التاسع عشر وأحد الفلاسفة الذين تأثرت الحياة الإنجليزية في ذلك القرن بآرائهم أكبر تأثر. ومن أهم كتبه في الناحية الإصلاحية والسياسية كتاباه (الحرية) سنة ١٨٥٩ و (إخضاع النساء) سنة ١٨٦٩. هذا الكتاب الأخير ساعد على احترام الحرية الشخصية للنساء في العصر الفيكتوري وعلى الاهتمام بتربيتهن. ويعتبر مِيل و «فلورنس نيتنجيل» الشخصين الأولين اللذين تدين لهما المرأة الإنجليزية الحديثة بمركزها في الجماعة الحاضرة؛ فقد شهد القرن التاسع عشر حركة إصلاحية واجتماعية عامة في التعليم والصناعة والحقوق السياسية، كان من نتيجتها أن تنبهت المرأة الإنجليزية لحقوقها، وتنبه الشعب للدور الذي يمكن أن تلعبه في حياة الأمة. وطالب «مِيلْ» في أوائل النصف الثاني من ذلك القرن بإعطاء المرأة حق التصويت السياسي، وأيدته في ذلك الآنسة فلورنس نيتنجيل «التي أنقذت ألوف الأرواح من مخالب الموت في حرب القرم». وسارت هذه الحركة سيرًا مطردًا، إلا أنها تشعبت بعدُ إلى شعبتين: شعبة النساء المطالبات بحقوقهن في حدود القانون، وشعبة الثائرات اللاتي اصطحبت حركتهن بالعنف والشغب والاعتداء. وقد مُيز بينهما بأن أُطلق على الجماعة الأولى اسم **Suffragists**، وعلى الثانية اسم **Suffragettes**. وقد جاء نجاح هذه الحركة على مراحل كان أهمها التشريع البرلماني المعروف بمرسوم الإصلاح الرابع سنة ١٩١٨ قبيل نهاية الحرب العظمى الماضية بقليل، وبه نالت المرأة الإنجليزية أهم حقوقها السياسية.

بينما نشأ بين الرجال شيء من الماسونية الحرة. بهذا التخصص في المهن والأعمال كسب كل من الجنسين عادات خاصة به. وإذا كانت مدنية المستقبل ستقود إلى اختلاطهما على قدم المساواة، فتعطي أحدهما مثل ما تعطي الآخر تمامًا من لبوس وحرف وتربية، فإن ذلك التفاوت العقلي بين الرجل والمرأة سينقرض أو يكاد.

هذا الرأي -إذَنْ- يذهب إلى أن الفروق الفطرية بين الجنسين سطحية غير عميقة. وما تبقى من الفروق فمنشؤه المران والتقاليد:

«إنه فرق في الاسم فحسب

والمرأة والرجل سيان.

وإذَنْ يا سيدي فتكوين المرأة،

أو لغز «أبي الهول» قد وجد في النهاية حلًّا».

وهناك نظرية ثانية تسلم بمقدمات الرأي السابق ولكنها تنكر نتيجته فهي تزعم أن هذه العادات المكتسبة تأصلت في كلا الجنسين فأصبحت الآن خصائص متوارثة. ذلك لأن العوامل التي أنتجتها قد تحكمت في تكوين الجنسين جيلًا بعد جيل. وممن كان يميل إلى هذا الرأي «دارون»، وقد فصّل القول فيه «لمبروزو» -العالم الإيطالي الإخصائي في مباحث الإجرام- لكن ليس هناك دليل على أن الخصائص المكتسبة تتوارث قط بهذه الطريقة، على الأقل إلى درجة محسوسة. وحتى على فرض أنها تتوارث ينبغي لنا أن نتساءل: لِمَ يورث الأمهات خصائصهن الأنوثية إلى البنات فحسب، مع أن الأبناء والبنات ينسلون من الجنسين معًا؟!

هناك تعليل ثالث رجحه «دارون» نفسه، ومال إليه أكثر، ذلك هو الانتخاب الجنسي، ففي الأزمنة الوحشية (على حسب ما نتصور) كان أقوى الرجال بأسًا من سكان الكهوف وأشدهم عدوانًا يأسر الأنثى ويغنمها، وكانت أكثر ساكنات الكهوف ملاحة وأشدهن حياء وإغراء تستحوذ على انتباه الرجل، فإذا كانت الخصائص الجنسية، أثناء انتقالها بالوراثة، قد استمرت في تميزها وانعزالها –حسب قوانين «مندل»– فمن السهل أن نفهم كيف بقيت القوة والعدوان خصائص الذكورة، وكيف تميزت الأنثى بالحياء والملاحة. ومن هذا ما يعلل به أحد الكتاب انحطاط ذكاء المرأة من أن صواحب الجورب الأزرق (العالمات المتحذلقات، المهملات لرقة الأنوثة) قلّ أن يتزوجن.

وثمّ نظرية رابعة –تقترن على الخصوص باسم «هربرت سبنسر»– تذهب إلى أن كلا الجنسين يرث تكوينًا جسميًّا متشابهًا. ولكن التغير الذي يطرأ عند البلوغ على الجهاز التناسلي في الأنثى يجلب معه وقوفًا مبكرًا في تطورها. وعلى هذا فالمرأة في رأي «سبنسر» نوع من الرجل الساذج أو ناقص التطور، وهي تبقى طول حياتها أشبه بالطفل وأقرب إلى الطبيعة المتوحشة.

أما النظرية الأخيرة –وهي التي نادى بها الأستاذان «جدس» و«تومسون»– فإنها أبعد غورًا من النظريات السابقة، ذلك أنها تزعم أن جسمَي الذكر والأنثى على طرفَي النقيض في خصائصهما الكيميائية. فالخلية المنوية عند الذكر صغيرة نشيطة، وهي عند الأنثى كبيرة ساكنة؛ وإذا عبرنا عن ذلك بلغة الكيمياء قلنا إن الأولى (كاتابولك) –أي

تصرف نشاطها. والأخرى (أنابولك)- أي تخزنه. والمفروض أن هذا الخلاف الجثماني في الخلايا المنوية يظهر بصورة أخرى في تقابل مماثل له يؤثر في المزاج وشكل الجسم؛ فالرجل مؤثر والمرأة قابلة؛ والرجل مبتدع والمرأة متبعة؛ والرجل يسير بعقله والمرأة بانفعالها؛ والرجل يُعنى بنفسه والمرأة بالأنواع وصغارها. وعلى هذا فالمرأة، كما يقول «تنسون»: «ليست رجلًا ناقص التطور ولكنها جنس مختلف»، وليس أحد الجسمين بأحط من الآخر في جسمه أو عقله، فكلٌّ مساو للآخر ومقابل له.

(٣) كانت آراء الباحث العلمي -إلى عهد قريب- مثل آراء الرجل العادي تقوم في الغالب على الاستنتاج النظري، وربما انضمت إلى ذلك الفروض الفلسفية أو البيولوجية. ولكن علم النفس الحديث يؤثر أن يعرض هذه النظريات على محك التجربة المحدودة؛ فنحن نستطيع الآن -بمعونة الاختبارات المقننة- أن نقيس الفوارق العقلية في يسر وإتقان. وقد اختبر ألوف الأولاد والبنات، ومئات الرجال والنساء، وحللت النتائج تحليلًا دقيقًا بوساطة الطرق الإحصائية المضبوطة.

فهلم نأخذ المستويات العقلية السفلى أولًا، بادئين منها بالحركة البسيطة: ليس هناك خلاف في وجود الفرق بين الجنسين من حيث القوة العضلية الخالصة؛ فقد دلت البحوث الأولى التي قام بها «سير فرنسس جولتن»(١) منذ خمسين سنة على أن الرجل المتوسط ضعف

(١) جولتن (Sir Francis Galton) يحتل من نهضة علم النفس في إنجلترا مكانة شبيهة بمكانة فونت في ألمانيا، فقد جال في نواح سيكولوجية كثيرة محاولًا أن يعالجها على أساس التجربة.=

المرأة المتوسطة في القوة. ولكن هناك ظاهرة أخرى لها دلالتها، ذلك أنه منذ كثر اهتمام البنات بالحياة الخارجية من لعب ومسابقات تضاءل الفرق في القوة بين الجنسين تضاؤلًا ملموسًا. أما من حيث سرعة الحركة فالفرق غير كبير. وإذا نظرنا إلى الجنسين من وجهة المهارة العضلية –وتلك وظيفة أعلى وأكثر تعقدًا من سابقتها– وجدنا الفرق أقل، وهو يختلف حسب اختلاف الأعمال. والفكرة السائدة أن النساء في هذه الناحية أرجح، إلا أن هذا من غير شك تعميم لا مبرر له. وكل ما هنالك أن النساء منهن ناصحات الثياب وموشياتها ومطرزاتها، ومنهن المختزلات والكاتبات على الآلة الكاتبة، وقد جر هذا إلى افتراض أن النساء لا بد أن يكون في فطرتهن موهبة خاصة في حركات الإصبع السريعة الماهرة.

حقيقة أن الاضطراب في ضبط الحركات العضلية الدقيقة أكثر ندرة في النساء والبنات؛ فالتلعثم واضطراب الكلام والعَسَر والحول أكثر شيوعًا بين الأولاد والرجال. ولكن تجارب المعمل أثبتت أن الأولاد والرجال يرجحون في معظم الاختبارات العملية التي لا تعتمد

= وأول عمل علمي نشره هو دراسته في (العبقرية الوراثية) سنة ١٨٦٩، ثم نشر بعد ذلك كتابه (الوراثة الطبيعية) في سنة ١٨٨٩. وجذبته دراسة السلالات البشرية، فتقدم في سنة ١٨٨٣ بمقترحات لتحسين النوع كانت أساسًا قامت عليه مجلة «بيومتركا» سنة ١٩٠١. وفي سنة ١٨٨٣ أيضًا نشر دراسته (مباحث في الملكة الإنسانية). ومن أهم أعماله تجاربه على الصور الذهنية الحسية وعلى أجهزة الحس ووظائفها. وقد تناول في هذه التجارب الإنسان والحيوان معًا. وأهم ما شغل «جولتن» من ميادين علم النفس ميدان الفروق الفردية. فإذا كان «فونت» قد أدخل التجربة في علم النفس العام، فإن «جولتن» أقام دعائم علم النفس الفردي على أساس تجريبي.

على مران أو تدريب.

والآن لننتقل من الحركة إلى الإحساس ولنبدأ كما بدأنا من قبل بالمستويات البسيطة؛ فحساسية اللمس تكاد تكون ضعفها عند الرجال، وربما كان اللمس هو الاستعداد الوحيد الذي يتفوق فيه الأطفال والهمج على المتمدينين، فلدينا هنا –إذَنْ– مثل حي تشبه فيه الأنثى كلا من الطفل والرجل المتوحش. أما في الحاسة العضلية –حاسة الحركة والمركز والوزن– والتي كثيرًا ما تخلط بحاسة اللمس –فلا ريب في أن الرجال أكثر دقة من النساء.

والآراء في شأن الألم متعددة، فأطباء الأسنان والجراحون وممرضات المستشفيات يكادون يجمعون على القول بأن النساء يتحملن الألم في صبر يفوق صبر الرجال. ولكن هذا من غير شك ينبعث من الاختلاف في التأثر الانفعالي أو من التعود أكثر مما ينبعث من فارق أساسي في الحساسية الخالصة؛ فإن تجارب المعمل تشهد أن المرأة أكثر حسًّا بالألم كما أنها أكثر حسًّا باللمس. والنساء يحتملن البرد أكثر، إلا أن سر ذلك جثماني لا نفساني، فحاجتهن إلى الثياب أقل لأن أبدانهن مكسوات بثوب صفيق هو الشحم الطبيعي.

والشم والذوق حسان أرقى في التطور مما سبق من الحسوس، والفروق فيهما يسيرة: فالنساء في الواقع لسن خبيرات في ذوق الخمر، ولا في وظائف اختبار الشاي وتصنيف العطور، وقلّ أن يستخدمن في أرقى الأنواع من الطبخ؛ ولكن العامل الأساسي هنا قد يكون مجرد العرف أو الفرص. ويظهر من تجارب المعمل أن النساء أسرع في تعرف

وجود الروائح والطعوم، في حين أن الرجال أدق في تمييز صفاتها.

أما في أرقى الحواس وهما السمع والبصر فالفروق أقل من سابقتها؛ فالنساء أبرع في تمييز الأصوات والألوان، ولكن الرجال يفوقونهن في تمييز الأشكال أو الهيئات. ومن النساء عدد أكبر يحتاج إلى المناظير –وإن كن (كالسيدة التي يتحدث عنها «هنري جيمس» في قصته المحزنة) يأبين أن يشوهن وجوههن بلبسها، وعمى البصر أكثر ما يصيب الرجال، ولكن هذا آتٍ من كثرة تعرضهم للحوادث والأمراض. وعمى الألوان يكاد يكون وقفًا على الذكور، فنسبة المصابين به بينهم واحد في الثلاثين، على أنها قلما تصل واحدًا في الألف بين النساء.

ولعمى الألوان هذا نظام في الوراثة مفيد في دراسته؛ فإذا تزوج رجل مصاب به بامرأة طبيعية النظر فإن بناتهما لا يكون فيهن هذا النقص. ولكن إذا تزوج هؤلاء البنات من رجال طبيعي النظر، فقد يظهر عمى الألوان في مَن ينجبون من الأولاد، وهذا يذكرنا بقوانين «مندل» في الوراثة المرتبطة بالجنس، وربما كشف لنا عن السر في أن الخصائص الجنسية تنتقل إلى واحد من الجنسين دون الآخر.

والآن لندع الحس جانبًا، ولننتقل إلى الدرجات العليا من الذاكرة والخيال: هنا يمتاز النساء في كل أنواع اختبارات الذاكرة تقريبًا، وهن في متوسطهن خير من الرجال في التعلم إذا كان لا يحتاج إلى أكثر من استذكار آلي. أما من حيث الصور الذهنية فالنساء –كالأطفال– واضحات الصور البصرية، ويغلب بين الرجال ذوو الصور السمعية والحركية. ويميل التفكير عند الرجال إلى أن يأخذ مظهر الكلام

الداخلي أكثر من مظهر الصور العقلية. وإذا نظرنا من وجهة الخيال الابتكاري -لا سيما في الاختراع- وجدنا الرجال من غير شك أكثر إنتاجًا. وفي هذا شرح للظاهرة المشاهدة كثيرًا من أن النساء أكثر تقبلًا للحقائق، والرجال أكثر ابتكارًا؛ فمن حيث العمل الرتيب الذي يتطلب صبرًا وتطبيقًا وذاكرة حاضرة ترى سوق النساء أروج، أما الرجال فلهم انتصارات أكثر -يحق لهم أن يفخروا بها- فيما يتطلب كشفًا وبحثًا. حتى في الميادين الخاصة بالنساء تجد معظم الأجهزة المنزلية الجديدة من آلات الخياطة والنسج، والعدد الموفرة للجهد واللازمة للمطبخ والمنزل، لم يخترعها النساء ولكن اخترعها الرجال.

ننتقل أخيرًا إلى أعلى الخطوات كلها، وهي عمليات الذكاء والتعليل، أما رأي الرجال هنا فهو قاطع لا تردد فيه، وقد عبر عنه طبيب الأسنان في رواية (You Never Can Tell)[١]؛ إذ يقول للبنت التي وقفت للدفاع عن حقوق المرأة: «إن الذهن خاصة من خواص الذكور». ولكن طبيب الأسنان هذا كان حدثًا غُمرًا، وقد تبين له خطؤه قبل أن يسدل الستار. فما هو الحكم الذي تنطق به اختبارات العالم النفساني؟ إن الاختلاف الفطري في الذكاء والتعليل على درجة من الضآلة بحيث لا يمكن رؤيته. وقد يظهر النساء في الحياة العادية أقل منطقيّة من الرجال؛ غير أن هذا لا يرجع في أساسه إلى عدم القدرة على النظر الفكري، ولكن إلى الاضطرابات التي تجلبها العوامل الانفعالية، وحب الاعتماد على البصيرة المتخيلة، والاستجابة لأثر المشاركة الوجدانية

(١) إحدى روايات «جورج برنارد شو».

العاجلة. وقد وجد في كل اختبارات الخطوات الذهنية الراقية التي تعتمد على الاستعداد الفطري أن متوسط الجنسين يكاد يكون واحدًا. أما الذين يعارضون هذه النتيجة فإنهم في العادة يستمدون حقائقهم من التاريخ، فهم يقولون: انظر في معاجم التراجم الوطنية، وعدّ الألف الذين يتمتعون بأعظم شهرة في تاريخ الدنيا فإنك لن تجد من بين هؤلاء الألف إلا اثنتين وثلاثين امرأة، معظمهن مشهورات في ميدان واحد، هو القصص الخيالي أو الآداب الرفيعة (Belles Lettres)، أما الباقيات فالفضل في شهرتهن للصدفة العارضة من نسب أو جمال. ولكنَّ هنا خطأين منطقيين خطيرين: أولًا –أن الدور الصغير الذي لعبته المرأة في العلم أو التاريخ يسهل تعليله بأنها حرمت الفرصة المناسبة. ثانيًا –أن من الجور أن تحكم على مجموع بأحد طرفيه فقط، فالرجال في العادة يختلفون فيما بينهم أكثر من اختلاف النساء وعلى هذا فإنك تجد من الرجال عددًا أكثر في كلا طرفي التوزيع.

فلو أنك ذهبت إلى دور الأمراض العقلية وإلى السجون لبان لك أنه إذا كان بين الرجال العدد الأعظم من محبي الإنسانية ومن ذوي النبوغ العقلي، فإن بينهم أيضًا العدد الأوفر من المجرمين والبله والمجانين. فأضمن طريقة لكشف الفرق في الاستعداد الفطري هي تطبيق اختبارات سيكولوجية خاصة على مجموعات كبيرة ممثلة لكلا الجنسين، والنتائج التي أدت إليها هذه الطريقة تدل دلالة مطردة على أن الفروق بين الجنسين –من حيث الذكاء العام– صغيرة كل الصغر.

ولكن نتائج اختبارات المعارف المكتسبة تختلف عن هذه؛ فالبنات

يمتزن عادة في الموضوعات الأدبية من قراءة وتهجٍّ وإنشاء وما إليها، والأولاد يفضلونهن في الرياضيات. أما في الحساب فالبنات عادة أدق في النواحي الآلية حيث يطلب حفظ القواعد والجداول واستذكارها، والأولاد أمهر في حل المسائل والمعضلات. ويختلف الجنسان من حيث الدراسات اللغوية فالأولاد يتفوقون في اللغات القديمة والكلاسيكية، والبنات في اللغات الحديثة، لا سيما في ناحية العمل الشفوي. والأولاد أحسن قليلًا في الجغرافيا، والبنات في التاريخ. والأولاد يمتازون في العلوم الطبيعية والكيميائية وفي الهندسة، على حين يمتاز البنات في علوم الأحياء لا سيما النبات. وما يشاهد من ذلك في فصول المدرسة يتكرر عادةً في الجامعة. ولكن مدار الاختلاف في كل هذا إنما يتوقف على اختلاف أنظمة التربية، فحيثما كان الأولاد والبنات ينشؤون معًا في مدارس التعليم المشترك، على نظام واحد ومنهج متشابه، وجدت الفرق بين الجنسين صغيرًا. وفي الحقيقة يظهر أن أي تفرقة جوهرية في هذا لا بد راجعة إلى الميل ووجهة النظر العقلي أكثر من رجوعها إلى المقدرة الفطرية. فالمسألة –باختصار– ترجع إلى المزاج أكثر من الاستعداد.

وإذا عرجنا على الناحية المزاجية وجدنا الفروق الجوهرية فيها أصعب تمييزًا. حقيقة إذا حكمنا بمقتضى التعابير الظاهرة بدت لنا المرأة أكثر وجدانية؛ فنقطة الغليان (كما يسميها «أرنولد بنت») تبدو أكثر انخفاضًا عند النساء، فما أسهل ما يذبن، وما أسرع ما يتدفقن في كلام أو دموع. أما إذا حكمنا من الناحية الداخلية فانفعالات الرجل

غالبًا أعمق وأطول مدى. فمشاعر الرجل -إذَنْ- أشبه التيارات السفلية، عميقة رزينة لا تكاد تُحس، ووجدانات المرأة أشبه بالفقاعات والموجات الصغيرة، فهي حادة فجائية ظاهرة ولكنها سريعة التغير دانية الغور. على أن الفرق في الواقع أكثر في مظهره منه في حقيقته.

إن أساس المزاج والخلق قائم على الغرائز الإنسانية المشتركة، ومن الظاهر هنا أنه لا واحد من الجنسين يرث غرائز محدودة لا يرثها الجنس الآخر؛ ولكن غرائز العدوان أميل إلى الغلبة في الذكور، وغرائز المنع أو الكتم أقوى عملًا في الإناث. وهذا صادق حتى على الحيوانات الدنيا. كتبت بنت صغيرة مرة موضوعًا على «المزرعة» قالت فيه: «إن أكثر أنواع البقر توحشًا هو -دائمًا- الثيران» وأيّد نتيجتها هذه «**Dr. Syntax**» إذا قال في معرض البحث عن زوجة له: «إن الفرس الشهباء خير الجوادين وهي تَحْكم من طريق لباسها رداء الطاعة». والعنفوان والزعامة، وغرائز التجوال في الأرض والصيد والبناء، وغريزة الاستطلاع (إلا حيث يكون منصبًا على الأشخاص) كل هذه تبدو أقوى في الرجال.

أما الحزن (على الأقل بمعنى الميل إلى ذرف الدموع) والخوف، والعمل من وراء الستار، والغريزة الوالدية، وغريزة الخضوع، والاستعداد الفطري للتقزز فكلها تبدو أقوى في النساء. ومن الصعب التعميم فيما يتعلق بالغريزة الجنسية. فهذا «مستر برنارد شو» -مثلًا- في رواية (الإنسان والإنسان الأعلى) قد حاول -فيمن حاولوا- أن ينقض الخرافة التي ذاعت في القرن التاسع عشر زاعمة أن الذين صادوا الجنس الآخر كانوا ذكورًا ولم يكونوا إناثًا. والفكرة السائدة الآن بين علماء النفس

الطبيين أن المرأة ذات الشهوة الجامحة أقوى في شعورها الجنسي من أكثر الرجال إحساسًا بجنسه، وأن أقل النساء شعورًا بالجنس أكثر فتورًا من أقل الرجال إحساسًا بالجنس. فهنا –على الأقل– مثل من الميادين التي تجد فيها الأعداد القريبة من طرفي التوزيع أكثر بين الإناث. وربما كان في هذا أساس التمييز الذي رسمه الشاعر في قوله:

«إن الفرق بين الرجال –في أبعد حدوده– كالفرق بين الثريا والثرى»، «ولكن الفرق بين النساء –خيرهن وأردئهن– كالفرق بين الجنة والجحيم».

وإذا نظرنا من حيث الصفات الأخلاقية وجدنا تناقضًا ظاهرًا يلاحظه كثير من الناس؛ ذلك أن النساء أكثر انصياعًا وتقى لسلطان الضمير، ولكنهن في الوقت نفسه أكثر تعرضًا للرياء. على أن هناك موازنة سيكولوجية يظهر أنها تتجلى في كل قطر وكل قرن وكل مرحلة من مراحل الحياة؛ ذلك أن نسبة الإجرام في الذكور تبلغ خمسة أمثالها في الإناث، وهذا من غير شك راجع في الغالب إلى النزعة العدوانية في المذكر. هذا إلى أنه ربما لم تتحْ للنساء والبنات في الماضي فرصة انتهاك القانون.

وإذا بحثنا من الوجهة الاقتصادية وجدنا أن شعور المرأة بواجبها وقدرتها على التكيف، واستعدادها لقبول الحياة الجلوسية، كل أولئك مزايا لها قيمتها في بعض الأعمال. إلا أن الخصائص الجنسية عند المرأة قد تكون عقبة أمامها في بعض النواحي، فاعتمادها الوجداني على الرجل، وتعرضها لتعقد مشكلات العاطفة والإحساس وضعف الإقدام

والقوة المنظمة عندها، ونقصها في نواحي الاختراع والابتكار وإعداد الوسائل، كل هذه (إلا حيث يقلبها دهاء المرأة مزايا) تعوق المرأة في نجاحها في ميادين التجارة. غير أن وجوه النقص في الخلق -ولا كذلك نواحي النقص في العقل- يمكن أن تغير أو تغلب. وعلى هذا فليس من المحتم أن تكون هذه العقبات دائمة، وحملها إنما يقع على عاتق بعض النساء، لا على كل امرأة من حيث هي امرأة. إلا أن العوائق الجثمانية أبعد من هذه عمقًا، فالقوة المحدودة عند المرأة، وعدم قدرتها على بذل الجهد العنيف الدائم، وتعرضها للضعف اليسير الذي يعتاد صحتها حين وبين آخر، كل هذه تبرر أن يطلق على النساء اسم «الجنس الأضعف» ومهما يكن، فهذه النقائص المزعومة أقل -في الحياة المتمدينة منها في غير المتمدينة- عرقلة وتأثيرًا، وكثير منها يستطاع المزيد من تخفيفه بتحسين في وسائل التربية، أو في العادات والتقاليد الجديدة.

إن الأحوال لتتغير بسرعة؛ فقد أصبحت الأمومة -وهي الوظيفة التي لن تنفك عن المرأة- مرحلة قصيرة مختصرة، وأصبح الإشراف على الأطفال يعهد به إلى المدرسة، وانتقلت مهمة الوقاية من الذكور إلى البوليس، وصارت بعض الواجبات المنزلية يقوم بها منظفون أو متعهدون محترفون، وبُسِّط باقيها بتحسين العدد والآلات، وبدأت المرأة تُولي وجهها شطر مرافق جديدة؛ فهي لا تسوق العربات فحسب، ولكنها تخرج لصيد الحيوانات الكبيرة، وتقود الطائرات في طيرانها البعيد، وتحترف الطب، وتترافع أمام المحاكم، وتدير بنفسها مصالح وأعمالًا كبيرة. وليس العهد ببعيد على وصول باخرة روسية

ربانها امرأة إلى ميناء لندن. وقريبًا يجيء الوقت الذي سنضطر فيه إلى التساؤل: أهناك شيء يعوق المرأة عن محاولة تلك النواحي التي تحد من عقلها وإرادتها؟ ولو أن «**Rip Van Winkle**»(١) ذهب إلى مخدعه في سنة ١٨٨٣ ثم استيقظ في سنة ١٩٣٣ بعد أن لبث في نومه خمسين سنة لكان أعظم شيء رائع يصادفه هو الانقلاب العجيب الذي جد على مركز المرأة. أما ما سيشاهد بعد نصف قرن آخر فذلك ما نتركه لمحترفي التنبؤ بما سيجيء به الغد.

(٤) والآن فلنقف قليلًا فنلخص نتائجنا المحاضرة: أما أن بعض الفروق الجنسية الخاصة فطرّية فذلك ما لا يُستطاع إنكاره، ولكن من الظاهر أنها أقل قوة مما يُظن، وهي أصغر في العقل منها في الجسم. وفي المقدرة الذهنية منها في الانفعال والمزاج وإذا نظرنا إليها من جهة العقل رأيناها أعظم ما تكون في المستويات العقلية السفلى: في الحركة والحواس البسيطة كاللمس، وهي عظيمة نوعًا في العمل الآلي كالاستذكار المحض، ولكنها تأخذ في النقصان بالتدريج حيث نرتفع إلى الخطوات العليا من العقل. وحيثما وجدنا فرقًا عقليًّا، يبدو لنا أنه يرجع لا إلى فرق فطري في العقل ذاته، ولكن إلى فرق في التدريب والتقاليد، أو فرق في الجثمان، كخصائص العضلات، وأعضاء الحس، ثم الغدد -وتلك أهم الجميع. لقد رأينا سابقًا أن غدد الإفراز الداخلي (ومن أمثلتها الغدد الجنسية والغدة الدرقية، والغدد الأدرنالية «الكاوية»

(١) «رب فان ونكل» شخصية روائية في قصة بهذا الاسم ألفها الكاتب الأمريكي «واشنطن إيرفينج» (١٧٨٣ -١٨٥٩).

وما إليها) لها تأثير عميق على الغرائز والوجدانيات. فمما يستطاع تصوره -إذن- احتمال أن تكون الفروق الغُدِّيَّة بين الجنسين سببًا في إحداث ميول جنسية في المزاج الوجداني، وهذا بدوره قد يغيّر حتى من طبيعة العمليات الذهنية الخالصة.

على أن هناك نقطة كثيرًا ما يهمل اعتبارها؛ ذلك أن الفروق التي ذكرتها إنما تُبنى على متوسطات حسابية. فإذا درسنا الأشخاص الذين أخذت منهم هذه المتوسطات -كلًا على حدة- وجدنا أن الفروق بين الأفراد من العظم بحيث تتضاءل بجانبها الفروق بين المتوسطات؛ فالفرق بين رجل وآخر، أو امرأة وامرأة، أعظم من الفرق بين متوسط الرجال ومتوسط النساء. وعلى هذا فالجنس من حيث هو جنس إنما يتسبب عنه جزء صغير من الفوارق التي تلاحظ بين الناس.

من هذا ندرك أن العامل الأهم -الذي يجب اعتباره في تقرير نوع التربية أو الوظيفة المناسبة لأي طفل- ليس هو جنس الطفل، ولكنه السجايا والمواهب الخاصة فيه. وإن مستقبل تطور الحياة العقلية عند المرأة سوف يتأثر بالخصائص النفسانية الفطرية لجنسها إلى حدّ ما، ولكنه سوف يتأثر أكثر وأكثر بالضرورات الاجتماعية وبالمثل الفردية.

* * *

الفصل الثاني عشر

سيكولوجية الشعوب

لقد بحثنا الفروق العقلية بين الجنسين، ووجدنا أنها -من ناحية- تنبعث من فروق فطرية، ولكنها في الأغلب ترجع إلى النشأة والتقاليد. والآن فلنتجه إلى الخصائص العقلية للأنظمة الاجتماعية الأخرى، فنرى إلى أي حد هي فطرية أم مكتسبة.

هناك كثيرون ممن يعتقدون أن عمل العقل يختلف في الأجناس المختلفة والطبقات المختلفة، وأن التعاون الحقيقي -وطنيًّا كان أو دوليًّا- إنما هو أحلام نائم. ولقد سمعنا منذ أقل من عشرين سنة قائلًا يقول: «إنك لا تستطيع أن تقضي على المثل الأعلى البروسي إلا إذا قضيت على البروسيين أنفسهم». وسمعنا قول الشاعر:

«الشرق شرق والغرب غرب»

«ولن يلتقي الاثنان أبدًا».

فما هو المصير إذَنْ؟ لو اجتمع الفرنسيون والألمان، والصينيون واليابان، والإيرلنديون والإنجليز، والرأسماليون ونقابات العمال –

وكلهم أناس ذوو أصول ومصالح متغايرة- وجلسوا جنبًا إلى جنب في مؤتمرات يبحثون فيها -بشكل جدي- الأزمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تهدد العالم بالفوضى، فهل هناك أي فرصة لنجاحهم؟ إن المسألة في أساسها نفسية، ولكن جوهر البحث ينصب على الأسباب أكثر من الحقائق؛ فما من أحد يستطيع أن ينكر أن الشعوب والأجناس والطبقات الاجتماعية والاقتصادية تختلف في وجهات النظر العقلية. ولكن المعضلة التي نحاول حلها هي: أمثل هذه الخلافات أساسية غير قابلة للتغيير؟ وما الذي يبقيها قائمة؟ وهل هي مثلًا ناجمة عن مزاج موروث ولشيء كائن في دم كل إنسان لا تستطيع الجهود البشرية أن تغيره؟ وهل هي تابعة لنوع من الشعور الجمعي يوجد بالإضافة إلى الشعور الفردي لكل شخص على حدة، ويقود ذلك الشعور الفردي ويحكمه بسلطة غير منظورة؟ أم أنها لا تعود إلا لظروف انفصال عارضة ولحواجز تاريخية أو جغرافية أو اجتماعية سمحت لكل جماعة في الماضي أن تنمي لها وجهة نظر وتقاليد خاصة بها، وأن مثل هذه الفروق لا بد مختفية سريعًا في المستقبل بزيادة الأسفار والتبادل التجاري في أنحاء العالم وبتأثير الإذاعة اللا سلكية التي تذرع الكرة الأرضية؟

هاكم ثلاث نظريات في تعليل هذه الفروق أدلى بها المفكرون في أزمنة مختلفة فلننظر أيها حق:

(١) الشعور الجمعي:

لنبدأ بالرأي الذي يبدو أبعد عن المعقول في نظر الرجل العادي، ولكن تمسك به كثير من علماء النفس والفلاسفة في أواخر القرن

الماضي، وهو رأي جميل جذاب يذهب إلى أن مجموعة من الناس قد يكون لها روح ووعي خاصان بها؛ فنحن نتكلم أحيانًا عن روح الجماعة وعن إرادة الشعب وعن قطر بأكمله يعمل كرجل واحد. هذه العبارات -في نظر هذا الرأي- ليست مجرد مجازات حماسية، ولكنها حقائق واقعية.

وأهم البراهين التي سيقت لتأييد هذه النظرية قائمة على موازنات مستمدة من الحياة الحيوانية أو الفسيولوجية. انظر -مثلًا- إلى الطوائف الاجتماعية التي تجدها بين الحيوانات الدنيا كالمرجان الوردي أو الإسفنج الأصفر؛ فكل من هذه الكائنات التي تحيا في البحر ليس حيوانًا واحدًا ولكنه مجموعة من الحيوانات، ومع هذا فالمجموعة تتصرف كأنها مخلوق واحد. وقد ذهب «هربرت سبنسر» إلى أن الجماعة الإنسانية يصح أن ينظر إليها كأنها كائن معقد من هذا النوع، إذ تسلك سلوكًا موحدًا مثل المرجان أو الإسفنج. وإذا صح هذا فلِمَ لا نخطو خطوة أبعد، فنقول إن ذلك الكائن يجب أن يكون له عقل واحد؟ كذلك راقب سربًا من الطير يشق أجواز الفضاء أو جماعات من النحل تطن في سيرها حتى تستقر على غصن قريب، تجد كلًّا من هذين المجموعين يبدو منسجمًا في سلوكه متفقًا في شعوره، كأن فكرة واحدة تصرفه، أو غرضًا واحدًا يدفعه. وإذ كنا نتكلم عن مجموعة من الناس كأن لها جسمًا ونقول إن أعضاءها يتصرفون كرجل واحد فلمَ لا نعلل عملهم هذا بأن الجسم له روح؟

يحدث أحيانًا -وأنت تفلح حديقتك- أن تقع فأسك على دودة

فتشطرها شطرين فيتلوى ذانك الشطران كأنهما مخلوقان منفصلان. ولقد اعتاد البستاني أن يخبرني وأنا طفل صغير أن هذين الشطرين أحيانًا يتصلان ويصبحان مرة أخرى دودة واحدة لا اثنتين، وأنه قطع مرة عشر دودات ووصل ما بين أجزائها فبدت كأنها دودة واحدة طولها اثنتا عشرة بوصة.

فأنت إِذَنْ حين تشطر الدودة شطرين تقسم شعورها نصفين منفصلين وعلى ذلك فمن الممكن أن نتصور قياسًا على هذا –على الأقل– أنه كما يصح شطر شعور واحد نصفين يمكن كذلك ضم شعورين وجعلهما واحدًا. وإذا صح هذا في اثنين فلمَ لا يصح في مائة أو مليون؟

ويفترض بعض الكتاب أن كل خلية في المخ وكل كرة من كرات الدم إنما هي حيوان دقيق قائم بنفسه، له شعوره الخاص به، وأن الشعور العام للفرد كله –أنا أو أنت مثلًا، ينتج– كمعجزة –من تضام هذا الشعور المتناثر المستقر في خلايا أجسامنا.

فقياسًا على هذه الفكرة يقال إن شعور شعب ما هو نوع من الشعور الجمعي الذي يضم في طياته شعور كل أفراد ذلك الشعب. وعلى هذا فالأربعون مليونًا من النفوس الذين يقطنون بريطانيا العظمى قد ينصهرون أو يتحدون معًا بطريقة خفية ليكونوا عقلًا بريطانيًّا واحدًا. والحق أنه لا حد لحجم المجموعة التي يمكن أن يكون لها شعور خاص بها. وسنرى عندما نتحدث عن سيكولوجية الدين أن كثيرين افترضوا إمكان تصور الإله نوعًا من الشعور العالمي مما قد يُسميه

القائلون بوحدة الوجود –من أمثال «شيلي» و«إمرسون»– روحًا أعلى يملأ كل نواحي الوجود.

فهل هناك –إذَنْ– رُوح عليا خاصة بكل شعب وبكل طائفة اجتماعية؟ هذه نظرية يتعذر نقضها. ولكنْ هناك صعوبتان ظاهرتان: أولهما أنه يجب –على مقتضى هذه النظرية– أن يكون لدينا عدد هائل من الأرواح، فمدينتا «برمنجهام» و«ليدز»، ومدرسة «هارو» وجامعة «أُكسفورد» وفريقا الكرة في «نيو كاسل» و«أرسنال»، وكل نقابة عمال، وكل لجنة وكل مجلس قروي وكل حشد في الشارع، كل واحد من هذه يجب أن يكون له شعوره الخاص به، وما أعرضها من دعوى! ثانيهما، أننا –حين نفترض هذا الفرض– ننسى أن الجسم، لكي يكون جسمًا حقيقيًّا، يجب أن يكون وحدة مادية، وأن تكون هناك رابطة عصبية فعلية بين أجزاء مخه المختلفة، حتى «التوءمان السياميان»[(١)] لهما عقلان لا عقل واحد. وإخال البستاني الذي تحدثت عنه سابقًا قد ظن أن ديدانه العشر قد أصبحت واحدة لما عاشت معًا في سلسلة حية واحدة. ونحن في العادة لا نزعم وجود شعور واحد إلا إذا كانت أعضاء الجسم متصلة اتصالًا فسيولوجيًّا.

لست أدعي أن أي هذين الاعتراضين يهدم وجهة النظر التي ذكرناها، ولكن النقطة الجوهرية في الموضوع هي: ألا يمكن تعليل الحقائق وشرحها شرحًا أكثر سهولة من دون هذه النظرية؟

(١) رجلان مشهوران من «سيام» وُلدا مرتبطين برباط غضروفي وعاشا من ١٨٠١ –١٨٧٤. ويستعمل التعبير مجازًا في الشخصين اللذين لا يفترقان.

هناك شيء يستحق تحليلًا أدق، ذلك هو خصائص سلوك الجماهير الذي يوحي لأول وهلة بوجود شعور جمعي أو إرادة جمعيّة. فمعظم هذه الخصائص إذا تدبرته وجدته منبعثًا من خطوتين نفسيتين لا شك في وجودهما: إحداهما تُعرف أحيانًا باسم «المشاركة الوجدانية الفطرية»، ويصح أن تعتبر لحد ما تقليدًا وجدانيًّا لو لا أن لفظة التقليد قد تعطي فكرة التشبه المتعمد بدلًا من الاستجابة الفردية العمياء. والحقائق الأساسية في هذا الصدد هي: أنه في معظم الحيوانات الاجتماعية يكفي مجرد تعبير عضو واحد من القطيع عن غريزة ما لاستثارة تلك الغريزة في سائر القطيع. خذ الطيور مثلًا فالعادة أن تُستثار فيها غريزة الهرب عند ظهور كائن غريب خطير، ظهورًا مفاجئًا كقط يسترق الخطى أو صائد يحمل بندقية. ولكن هذه الغريزة نفسها قد تستثار في الطيور التي لم ترَ العدو بمجرد رؤية الطيور الأخرى هاربة. وإذا صاح غراب ورفرف بجناحيه، حذت بقية الغربان حذوه. وبنو الإنسان يخضعون لنفس الظاهرة. ابتسم للرضيع يبتسم لك وابكِ تره يبكي معك؛ تثاءب أو اسعل ترَ جيرانك يتثاءبون ويسعلون. وإذا كان أمامك -لا فرد واحد- بل مجموعة من بضع مئات، رأيت التعبير الوجداني يسري جيئة وذهابًا من كل وجه، والتأثر ينتشر انتشار النار في البرية ويزداد قوة وشدة في سريانه.

وفي هذا بعض أسرار خطابة الجماهير وعدوى الجماعات؛ فإذا ابتدأت طائفة من المشايعين والمأجورين تهتف وتصفق للخطيب، رأيت باقي الحاضرين يصفقون؛ وإذا ابتدأ أحد الناس يضحك شاهدت الباقين تنفرج شفاههم عن الابتسام دون أن يكونوا قد سمعوا النكتة أو

فقهوها. ويظهر الممثل الهزلي على المسرح فيقص حكاية ليست بذات بال، فتهتز لها جوانب المكان، ويضحك لها النظارة ضحكًا عاليًا، فإذا ما أخذت هذه الحكاية نفسها وقصصتها على صديق بمفرده، وقعت على مسمعه عادية هادئة لا تَهُزُّ ولا تثير! وزعيم الجماهير المحنك – كالممثل الخبير– يعرف كيف يستغل هذه الميول المُعْدية، فتراه يبدأ بإثارة الانفعالات التي يشترك فيها كل سامعيه، وما هي إلا لحظات حتى تشتد المشاركة الوجدانية، فلا تلبث أن تجد مئات الرجال والنساء في القاعة قد أصبحوا شخصًا واحدًا. والذعر وتدافع الجماهير يخضع لمثل هذه الظاهرة، فإذا شبت نار في ملهى ما، واندفع قليل من الجالسين في البهو نحو الخارج في جلبة وانزعاج، سرى الرعب سريعًا في جمهور الطبقات العليا من المكان، دون أن يكونوا قد رأوا بعدُ دخانًا أو لهيبًا، واندفعت الجموع إلى الأبواب يدوس بعضها بعضًا. كذلك الحروب والثورات وتخطف الأرواح والأسلاب تنبعث عادة من مثل هذه التأثرات حيث يهيج أعضاء الجماعة بعضهم شعور بعض. وهذا الميل التقليدي يعمل عمله أيضًا –بطريقة أقل ظهورًا– في تقويم لوازمنا الفردية، فيجعلنا نتشابه في الملبس وفي التفكير، ونعتنق نفس الأفكار والمثل العليا، حتى لنتوافق في اللهجة والعبارات. وإذَنْ فلسنا بحاجة في تعليل سريان الشعور إلى زعم وجود روح واحدة تتملك الجماعة. بل يكفينا أن نفترض أن تعبير أحد أفرادها عن انفعال ما يثير في الباقين هذا الانفعال.

فالمشاركة الوجدانية الفطرية تكفي إذَنْ في تعليل وحدة العمل

في المستويات العقلية الدنيا -لدى الحيوانات الاجتماعية وفي خليط غير منتظم من الرعاع. فإذا ما صعدنا إلى مستوى أعلى وجدنا أثر عامل آخر، هو الشعور الذي ينشأ في كل عضو عن الجماعة التي ينتمي إليها. فالطيور لا تنظر إلى سربها من حيث إنه سرب، والأفراد المزدحمون لا ينظرون إلى جمهرتهم من حيث هي جمهرة. ولكن الأفراد في مدرسة أو في جيش أو في شعب ما، لديهم فكرة واضحة عن المجموعة المنتظمة التي تضمهم -فذلك المجموع في نظرهم له مثل عالٍ أو غرض محدود، وهم معنيون به، ولهم به هوى وإعجاب، وهم يحرصون على سعادته وبقائه، يعطونه اسمًا ويتحدثون عنه فيما بينهم، وينمو عندهم حبه والولاء له. فحب المرء لوطنه قد يغلب حبه لنفسه، حتى إن البطل ليضحي بحياته من أجل ذلك الوطن. هذه العاطفة أو الشعور بالعطف نحو الجماعة، هي التي يبني عليها ما يُسميه الناس إرادة الجماعة. فعندما نتكلم -إذَنْ- عن الجماعة تستخدم إرادتها إنما نعني في الحقيقة أن أفرادها يستخدمون إراداتهم المختلفة في اتجاه واحد ولصالح المجموع. وهم إنما يستطيعون هذا لأن كل فرد يشعر بالهيئة التي ينتمي إليها ويعتبر أغراضها أغراضه هو نفسه. وعلى هذا فالتعبير بالشعور الوطني أو الإرادة الوطنية لا يفهم منه أن الشعب في مجموعه كائن شاعر له عقل خاص أو روح خاص، بل يتضمن أن لكل من أفراده شعورًا بالشعب الذي يكونونه.

هنا -إذن- اتجاهان يحدوان نحو غاية موحدة، فهل هناك ظروف قابلة للتحديد يجب توفرها قبل أن يصل كل من هذين الاتجاهين إلى

غرضه؟ إن المبدأ الثاني يستلزم -على الأقل- المقدرة على تفهم الأفكار المجردة، إذ إن فكرة الوطن ليست إلا تجريدًا. وهو يستلزم أيضًا قدرًا خاصًّا من الاتحاد بضم المجموع كله، لا يمكن من دونه أن ينظر إلى المجموع باعتباره كلًا واحدًا. هذه الوحدة -من ناحية- تنبعث من الغريزة الاجتماعية التي تجمع الأفراد وتبقيهم معًا؛ ولكن تحققها في شكل أوسع يجب أن يعتمد -لحد ما- على محاسن الصدف في التاريخ والموقع الجغرافي. فالأمة مجموعة تحتل مساحة معينة من الأرض، تتكلم لغة واحدة، وتخضع لحكومة واحدة، ولها ذكرى مشتركة من المحن والانتصارات، وتمجد نفس العظماء من رجالها. إلا أن كل هذا يتوقف على شرط أعمق منه هو تجانس الأعضاء. فالحظيرة التي تضم حية ونمرًا وفيلًا وزنبورًا لا يمكنها أن تعمل متحدة كقطيع من الجاموس أو الذئاب، ومع ذلك فلكل فرد من أفراد هذه الحظيرة شعور خاص به، فلمَ لا تمتزج كل هذه الأنواع من الشعور؟ ظاهر أنه ليس بينها مصالح مشتركة أو غرض موحد أو وسائط للاتصال. أما قطيع الذئاب فيمكنه أن يتحد ضد عدو مشترك. وكذلك الشرذمة من المتوحشين يمكنها أن تكون من أنفسها قبيلة. فواضح على هذا أن الشرط الأساسي لوحدة العمل ليس إمكان وجود الروح العام، بل الصفات المشتركة المبنية على السلالة المشتركة.

* * *

٢- وراثة الأجناس:

لنختبر -إذَنْ- هذا التفسير الثاني الذي يرجع الطابع الوطني في الحقيقة -لا إلى شعور وطني بالمعنى الحرفي- بل إلى وراثة وطنية، أي إلى تركيب عقلي خاص يشترك فيه كل عضو من أعضاء الجنس.

فأولًا -ما الدليل على أن هناك وراثة جنسية؟ إنه ما من أحد ينكر أن الأجناس تختلف في جثمانها وأن الفروق الجثمانية لا تنمحي، لأنها فطرية. تمشَّ قليلًا في شوارع أي مدينة كبيرة: ذلك الرجل الصغير الخفيف ذو الأعين الخمصاء واضح أنه من اليابان، وذلك الشاب المليح العنبري اللون لا شك أنه طالب هندي، وهذا الزنجي ذو الصوت العميق، وذلك الصيني ذو الوجه المستدير كالقمر، وذلك اليهودي بلثغته الخفيفة، كل أولئك تعرفهم أول ما تراهم. حادثهم واحدًا بعد واحد تجد أنهم يختلفون في طبعهم كما يختلفون في جثمانهم؛ فالزنجي السريع التأثر، والصيني الصموت، والتاجر اليهودي بحبه للنقود والموسيقى -كل أولئك يبدو كأنه يحمل في عقله وجسمه على السواء طابع الجنس الذي انحدر منه.

لنقصر أنفسنا لحظة على أوروبا لنرى إلى أي حد يمكن أن ترجع الخواص السيكولوجية لكل شعب إلى فرق في التركيب الجنسي. هنالك أنواع عدة من الشواهد تبعث في مجموعها على القول بأن سكان أوروبا اليوم ينسلون من ثلاثة أجناس متميزة، وهذه -من غير شك- تنقسم فروعًا وتتشابك أنواعًا لا عدد لها. وقد قامت الأدلة حديثًا على أن الثقافة لا تتطابق دائمًا والتفرع الجنسي مطابقة تامة كما كان يظن في

الماضي. ولكن لنأخذ تفسيرًا بسيطًا من تفسيرات هذه النظرية الثلاثية، ونسائل أنفسنا إلى أي جد يمكن أن نستعين بها.

أ- إذا صرفنا النظر عن الأفراد القلائل الذين يُزعم أنهم من أعقاب إنسان العصر الحجري الأول، نجد أن أول وأقدم جنس أوروبي موجود يظهر أنه كان يتألف من أقوام قصار القامة سمر البشرة، ذوي رؤوس طويلة ضيقة ووجوه بيضاوية مستطيلة، بلغ من سمرة لون شعرهم وأعينهم وبشرتهم أن سُموا أحيانًا «الجنس الأسمر». مثل هذه الأنواع توجد الآن بكثرة في جنوبي إيطاليا وإسبانيا. ومن ثم كثيرًا ما أطلق عليهم اسم «جنس البحر الأبيض المتوسط»، وربما كان أبسط من هذا تسميتهم بالجنس الأوروبي الجنوبي. وأفراد هذا الجنس يشبه تركيبهم الجثماني في كثير من الوجوه تركيب أفراد العصر الحجري الجديد، الذين خلفوا وراءهم عددهم الحجرية المصقولة وهياكلهم القصيرة وجماجمهم الطويلة المدفونة في نجاد أو مصاطب طويلة. ولقد كانت التواريخ الإنجليزية القديمة تُسمِّي أهل هذا الجنس «إيبيريين» ويظهر أن سلالتهم تكون اليوم العنصر الرئيس من سكان إنجلترا الذين يتكلمون اللغة «الكلتية»، وهم في بريطانيا موجودون على الخصوص في الغرب في مقاطعات «كورنول» و «ويلز». وفي الجهات النائية من إيرلندا واسكتلندا. والمظنون أن أسلافهم هنا وفي مقاطعة «بريتاني» قد تركوا تماثيل ضخمة من الحجر غير المسوي –تلك الكتل والدوائر الحجرية الغريبة التي ترى في «ستون هنج».

ب- خلف من بعد هؤلاء السكان الأولين جنس ثانٍ ليسوا في

درجة هؤلاء من القصر أو السمرة، يمتازون على الخصوص برؤوسهم العريضة المستديرة ووجوههم العريضة المربعة، وأجسامهم البدينة وميلهم الظاهر إلى السِّمن. وهناك بعض قرائن تدل على أن قبائل رحالة من هذا النوع كانت تتجول تجوال إبراهيم بقومه في طلب الخصب والمرعى جلبت معها العلم بالغلال والحيوانات المستأنسة واستعمال البرونز إلى غربي أوروبا. وقد تكون هذه القبائل نزحت من آسيا المغولية مدفوعة بالقحط وقلة الماء؛ وفي الحق أن وجوههم العريضة لتذكرك لأول نظرة ببعض الأجناس المغولية. وقد استقر هؤلاء في موطنهم الجديدة يفلحون الأرض، وهم يتمثلون في صورة «جون بول» الفلاح الخشن. وإن الصور التي ترسمها الصحف الهزلية للرجل البروسي أو الروسي ذي الرأس الكروي أو الجمجمة القائمة على استقامة العنق لتمثل الملامح المميزة لهذا النوع، مبالغًا فيها إلى حد «الكاريكاتور». أما ممثلوهم اليوم فإنك واجدهم حول الألب –في ألمانيا وعلى الخصوص نحو الجنوب، وفي أواسط فرنسا، وفي الجزء الأكبر من روسيا الأوروبية. وربما كان الحيثيون القدماء، واليهود المحدثون بعض فروع هذه الشجرة. ويظهر أن بعض هؤلاء الغزاة شقوا طريقهم إلى هذه الجزر (البريطانية) وجلبوا معهم اللهجة (الغالية) الأولى من اللغة الكلتية وعلموها السكان الأولين، ثم بادوا هم أنفسهم. وإنك لتجد جماجمهم المستديرة مدفونة في مصاطب مستديرة وغالبًا ما تجد معها سيفًا من البرونز في شكل ورقة الشجر وبجانبها كأس شراب تحتوي زادًا للأرواح في رحلتها إلى العالم الأخير. وهكذا تستطيع

على الرغم مما بين عوائد الأجناس المختلفة من تداخل وتشابك أن تقول -بصفة عامة- إن هؤلاء الأقوام ذوي الرؤوس المستديرة هم رجال العصر البرونزي، وهم يُعرفون بأسماء مختلفة كالألبيين والكلت والكات السلافيين. ولكن يظهر أن أفراد هذه الأجناس الثلاثة الرئيسة قد تكلموا يومًا ما نوعًا من اللغة الكلتية، ولذا ربما كانت أحسن تسمية لهم «أجناس أوروبا الوسطى».

وأخيرًا جاء -في موجات متعاقبة من الغزو- أقوام طوال، صهب الشعر، زرق الأعين، ذوو رؤوس طويلة ضيقة ووجوه ضيقة كذلك، ويقال إنهم كانوا أول قوم استأنسوا الخيول، وقد خلفوا بركوبهم إياها ذعرًا وارتجافًا في قلوب القبائل الأصلية، تمثلًا في أقصوصة «السنطور» ذلك المخلوق الخرافي المتوحش الذي له من الإنسان رأسه وجزعه، ومن الفرس جسمه وقوائمه. ولقد انحدر هؤلاء الأقوام في أسراب من براري روسيا الجنوبية، وغزوا بلاد اليونان، واستوطنوا -في أزمنة تاريخية متطاولة- سهول أوروبا الشمالية والأقاليم الشاطئية المحيطة بالبلطيق. وهم يشبهون شعوب البحر الأبيض في أن لهم رؤوسًا ضيقة، ولكنهم يختلفون عنهم في أنهم شقر الألوان لا سمرها. لهذا يزعم بعض الباحثين أن شعبة من جنس البحر الأبيض ساحت في الأرض شمالًا، فأصبحت شقراء بعد أن كانت سمراء، كما يتجول الدب الأسمر فيصير أبيض في الجهات القطبية. ويقال إن من بين هؤلاء الصهب الشعور رؤوسًا قادوا المهاجرين الكلتيين -كما يسمّون- إلى الجزائر البريطانية، وجلبوا معهم اللغة السمرية (Cymric) أو الكلتية

المتأخرة وبعضًا من المعارف عن استعمال الحديد. ونستطيع أن نقول على الإجمال إنهم هم أهل العصر الحديدي الأول. ولقد ذكرهم «يوليوس قيصر» ووصفهم بأنهم مردة غلاظ صُهب الشَّعر. وسماهم الكتاب المتأخرون (بريطون)، وهو اسم لا يزال البريطانيون يحتفظون به في فخر وإعجاب. ومن نسل هذا الجنس الحربي الطويل القامة السكسون، والدنماركيون، والإسكندناويون، والفرنك واللومبارديون، والنرمان، والقوط الشرقيون والغربيون. وقد اكتسح هؤلاء كل أوروبا وألجأوا الأجناس القديمة إلى الاعتصام بالمرتفعات السحيقة وأشباه الجزر المنعزلة. أما أنقى ممثليهم في العصر الحاضر فإنك تجدهم في بلاد السويد والنرويج؛ فلو أنك وضعت سويديًّا بجانب إسباني لتجلى لك التباين في الحال: فالاثنان يتفقان في طول الرأس والوجه، ولكن السويدي طويل أشقر والإسباني قصير أسمر. أما في إنجلترا فإنك لا تزال تجد رجالًا من النوع الطويل الأشقر الشعر في الشرق والجنوب. على أنه يظهر أن أقوامًا يشبهون هؤلاء جسمًا قد هاجروا بطريق الماء إلى مقاطعة (كمبرلاند) في أيام «الفايكنجز»[١] واستوطنوا هناك التلال وجوانب البحيرات. كل أولئك شعب من الجنس النوردي أو التيوتوني. وإذَنْ فربما كان أبسط اسم لهم هو «أجناس شمال أوروبا».

هذه –إذَنْ– صورة تقريبية مبسطة للأجناس الرئيسة الثلاثة التي استوطنت القارة الأوروبية: جنس شمال أوروبا، وجنس الجنوب،

(١) الفايكنجز: قبائل الشمال الذين انحدروا من إسكندناوة في القرون الميلادية الثامن والتاسع والعاشر، واتخذوا الإغارة على شواطئ أوروبا الغربية ديدنًا لهم.

وجنس الوسط. ويظهر أننا في هذه الجزائر (البريطانية) منحدرون في الأغلب من الجنسين الأولين. أما «جون بول» وذوو الرؤوس المستديرة فيظهر أنهم قد انقرضوا تقريبًا. ونحن في الأغلب قوم ذوو رؤوس طويلة وذوو وجوه طويلة كذلك، أقرب إلى الطول والشقرة في الجنوب والشرق، وإلى القصر والسمرة في الغرب والشمال، ولقد شهدت القرون الحديثة كثيرًا من التنقل والارتحال، حتى إن الإنسان ليتوقع أن يؤدي تزاوج الأجناس المختلفة إلى الامتزاج التام بين العناصر الأولى، مما يترتب عليه زوال الفروق الجنسية، إلا في الجهات النائية غير المطروقة. غير أن هناك قرائن تدل على أنه –حتى عند تزاوج جنسين أشقر وأسمر تميل الخصائص المميزة إلى أن تنفصل أحيانًا طبقًا للقوانين «المندلية» في الوراثة: ففي أول جيل تتغلب في العادة صفات الشعر الأسود، وهي الصفات الآخذة الآن في الازدياد في المدن (وربما كان لذلك أسباب أخرى)؛ أما في الأجيال التالية، فقد وجد أن النوعين يتميزان تمامًا. فليس من الضروري –إذَنْ– أن يترتب على الزواج اندماج النوعين وامتزاجهما في الأحفاد والأعقاب.

غير أن السؤال الذي يعنينا في مقامنا هذا هو: هل تجلب هذه الفروق الجسمية معها فروقًا عقلية بينة؟ إن صح هذا أمكن –إلى حد كبير– تعليل التفاوت ين شعب وآخر. فلننظر أولًا إلى الفروق العقلية. لقد طبقت اختبارات الذكاء على مجموعات ممثلة لكل جنس من الأجناس الأوروبية تقريبًا، وهذه الاختبارات يقصد منها أن تقيس الخصائص الفطرية أو الوراثية. غير أن اختلاف اللغات يجعل الموازنة بين النتائج

عسرة (إلا في الأحوال التي استعملت فيها اختبارات عملية غير لفظية). وقد يختلف علماء النفس في طرائقهم، فهذا يستعمل طريقة وذاك أخرى. ولكن يظهر أن البحوث -على وجه الإجمال- متفقة في النتائج. فاختبارات الجيش الأمريكي مثلًا تدل على أن المجندين الإنجليز أحسن من ناحية الذكاء (وتلك تزكية نزهى بها من غير شك!)، ويتلوهم الإسكتلنديون فالهولنديون فالألمان فالدنماركيون فالإسكندناويون على هذا الترتيب؛ ويجيء في أسفل القائمة البولنديون والإيطاليون واليونانيون والروسيون والبلجيكيون والإيرلنديون. فإذا اعتبرنا طوائف المجندين المختلفين نماذج ممثلة تمثيلًا عادلًا لأوطانهم الأصلية، كان لنا أن نستنتج أن الأجناس الطويلة الصهباء الشعر هي الأذكى، وأن الأجناس القصيرة السمراء الشَّعر أقل ذكاء. ولكن هذه التعميمات التي تشغف بها بعض الجهات لتفضيل ما يسمونه الأجناس الآرية على السامية، والشعوب البيضاء على الصفراء والسوداء لا يمكن الأخذ بها على علاتها. حقيقة إن ذكاء الزنجي المتوسط في الاختبارات التي طبقت إلى الآن لا يبلغ إلا تسعة أعشار المتوسط من الشعوب البيضاء، ولكن الصينيين واليابانيين لا يقلون عن مستوى الغرب. وقد قام اثنان من طلبتي باختبارات أثبتا بها أن ذكاء اليهود أعلى من ذكاء غيرهم، -ونتائج بعض الباحثين في الولايات المتحدة تؤيد هذا- فهل نقول في تعليل ذلك إن قرونًا من الاضطهاد قد اقتضت ألا يبقى من هذا الشعب إلا أذكاه وأنجبه؟

على أن هذه الفروق بين الأجناس مهما تميزت وتحددت فإنها ليست قط على درجة من العظم؛ فما لاحظناه قبلُ بين الذكور والإناث ينطبق هنا

أيضًا على الأجناس المختلفة. فالفروق الواسعة في الذكاء بين الأفراد المنتمين إلى شعب واحد أوسع وأبعد مدى من الفروق بين شعب وآخر. فإذا أردنا فروقًا بينة بين قوم وآخرين فلنبحث عنها في الطبع أو المزاج.

وهنا لا نجد مقاييس علمية نستعين بها، ولكننا نعتمد على الملاحظة وما تكوّنه من فكرة عامة، وهما دليلان غير مأمونين. وعلى هذا فلنرجع إلى ثلاثة الأجناس الأوروبية العظيمة. إن السائح الإنجليزي لتبدو له هذه الفروق المزاجية واضحة رائعة: فأولئك الأجناس الجنوبيون ذوو الشعر الأسود قوم سريعو التأثر محبون للاجتماع كثيرو الكلام قليلو التريث مندفعون يفيضون حركة وحسن بديهة. وهم -بدورهم- إذا وصلوا إلى إنجلترا قالوا إنه يخيل إليهم أنهم أتوا إلى شعب من التماثيل الشمعية، فالشمالي ذو الشعر الأصهب يبدو لهم مخلوقًا أبكم بلغمي المزاج مستقلًّا متحفظًا. والمادح الراضي -بالطبع- يصفنا بأننا رجال عمل أقوياء صامتون إلى حد ما، فإذا ما استثيرت نفوسنا صدرت عنا أعمال قوية عظيمة. وإذا عبرنا عن هذه التفرقة في لغة علماء النفس الحديثين قلنا إن الجنوبي منبسط (Extravert) والشمالي منطوٍ أو منقبض (Introvert)[١]: فالأول يظهر ما بباطنه، ميال للتفتح، سريع

---

(١) هذان الاصطلاحان (Introvert و Extravert) من وضع العالم السيكولوجي «يونج» الذي يقوم مذهبه على تقسيم الأشخاص إلى صنفين سيكولوجيين: أحدهما منبسط أو متجه بفكره واهتمامه إلى الخارج، والثاني منقبض أو منطوٍ على نفسه، ينبع تفكيره من الداخل ويتجه اهتمامه إلى الباطن. وقد توسع «يونج» في تفصيل هذين الصنفين حتى أصبحا ثمانية أصناف تمثل سلسلة متفاوتة الدرجات في الانبساط والانطواء. ويمكنك أن تجد أمثلة هذه النماذج بين الشعراء والعلماء والفلاسفة وغيرهم من طوائف الناس.

الاستجابة للعالم الخارجي؛ والثاني يكبت انفعالاته ويبدو مشغولًا بنفسه، مركزًا تفكيره فيها.

ويبدو لك هذا الفرق واضحًا في الآداب والفنون: انظر –مثلًا– إلى التباين الظاهر بين معبد إغريقي أو روماني وبين الكاتدرائيات القوطية في منشستر وشارتر؛ وبين شعر «سوفكليس» أو «دانتي» أو «راسين» وشعر «شكسبير» أو «جوته» أو «بيرن». ثم ما أبعد الفرق بين موسيقى «جونو» أو «جلوك» وألحان «بيتهوفن» أو «فاجنر»! وما أكبر اختلاف صور «روفائيل» و«بيروجينو» و«بوسان» و«إنجرس» من صور «رمبرانت» أو «دورر» أو «ترنز» أو «بليك»! وفنون الرسم والبناء والشِّعر والموسيقى تميل –في كلتا إيطاليا وفرنسا– نحو النوع الكلاسيكي، أما في ألمانيا وإنجلترا فتغلب على هذه الفنون الناحية الرومانسية. ففنون المجموعة الأولى شكلية عقلية ذات تقاليد، تعبر عن نفسها في وضوح واتزان وهدوء؛ أما الثانية فجامحة غير متزنة، تقوم على التأمل الباطني، وتتدفق في ثورة ومبالغة. وفن الأولى فن عام، فن قوم يعبرون عن شعورهم لغيرهم في طلاقة وصراحة؛ أما فن الثانية فخاص فردي متصوف متمرد أحيانًا في غير نظام على القيود الاجتماعية. وفن إيطاليا صافٍ مشمس كمناخها؛ ولكن فن الشمال مثل جو الشمال معتم متقلب. والواقع أن الكثيرين يعتقدون أن جو الممالك المختلفة ومناخها مسؤول عن أمزجتها وطباعها.

أما الأجناس ذات الرؤوس المستديرة في أواسط أوروبا فلها شأن خاص ولقد قيل –وبعض القول موضع للمناقشة– إن ميل هؤلاء الأقوام

ليس إلى الفن والأدب قدر ما هو إلى التنظيم والعلم. وربما كانوا في خلقهم وسطًا بين الجنسين الآخرين: فبينما أجناس الشمال ذوو الرؤوس الطويلة والوجوه الشقراء مخاطرون محبون للتمكين لنفوسهم جوالون مستعمرون من الطراز الأول، إذا أصحاب الرؤوس المستديرة أقوام ثقال محبون للاستقرار صبر مقتصدون، مهرة في التنظيم يهتمون بالنقود وما يمكن أن يُشترى بها، وهم إلى التقليد والخضوع أميل منهم إلى الابتكار والحرية.

ويمكن لمن يحبون الضوابط الموجزة أن يلخصوا هذه الفروق المزعومة بأن يقولوا: إن رجل شمال أوروبا مخلوق عملي، ورجل الوسط مخلوق نظري، ورجل الجنوب مخلوق وجداني؛ الأول يتجه إلى العمل، والثاني إلى الحقيقة، والثالث إلى الجمال؛ والصنف الأول يؤلف شعبًا من أرباب المتاجر، والثاني من الفلاسفة، والثالث من الفنانين.

ولكن العالم المدقق لا يكاد يسمع مثل هذه الدعاوى العريضة حتى يبدو عليه القلق والحذر، فإن حقائق الطبيعة الإنسانية قلما تخضع لمثل هذا التقسيم الحاد. نحن لا نشك في أن هناك فروقًا عامة، ولكن من غير الراجح أن تتطابق هذه الفروق وتلك الأقسام تمام التطابق. فالآراء التي لخصتها هنا ليست إلا آراء فرضية لا يصح أن تؤخذ على أنها حقيقة، ولكني أعرضها أمثلة لنظريات نادى بها علماء النفس في وقت ما. فلا تستنتجوا مما ذكرت أن شعبًا من الشعوب يتصف كل أفراده بهذه أو تلك من السجايا والصفات، أو أنه يمكنكم أن تحدسوا حدسًا صائبًا

عن المزاج الموروث عند الرجل من مجرد الملاحظة لشكل رأسه أو لون شعره.

مثل هذه الآراء التي ذكرتها كانت رائجة كثيرًا قبل الحرب العظمى الأولى: ففي فرنسا مسيو «جوبينو» وأتباعه وفي ألمانيا «مستر هوستون تشمبرلين» وآخرون كانوا يقولون إن الفروق في وجهات النظر القومية، وما يترتب على ذلك من نجاح دولة أو فشلها، يمكن أن يتنبأ به من النظر في تركيب أجناسها القاطنين بها. والمدنية -في زعمهم- تدين بكل شيء للآريين، وبلا شيء لليهود؛ فكل ما هنالك يرجع إلى شعوب «جافا» البيضاء وإلى الشعوب الهندو -أوروبية في الشرق والغرب؛ ولا شيء مطلقًا يرجع الفضل فيه إلى الأجناس الحامية السوداء في الجنوب، والقليل -أو ما يشبه العدم- يرجع إلى الأجناس الصفراء في الصين واليابان، وأقل من لا شيء يرجع إلى الأجناس السامية في فلسطين وبابل ومصر(١). ومن المعلوم أن الألمان -من بين الشعوب الآرية- قد برهنوا لأنفسهم برهانًا يرضونه على أن «التيوتوني» أنبل الناس جميعًا، وأن النجاح ميراثه، وأن قومه الشعب المختار، وأنه خلق لينتصر ويُخضع اللاتيني الهزيل الخنث في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا. ولعلكم تذكرون

(١) هذه المصطلحات القديمة في أسماء الأجناس لا تجلب إلا الفوضى والاختلاط في محاولة تقدير الإنتاج الاجتماعي؛ ذلك لأنها مبنية على اللغة أكثر من بنائها على الجنس، فاليهودي الحديث -مثلًا- أميل في خصائصه إلى الشبه بالحثيين منه إلى السياميين ويبدو أقرب إلى شعوب الألب. والحاميون ليسوا جنسًا أسود -ولو أنهم كثيرًا ما يختلطون بالزنوج، وهم في الحقيقة أقرب إلى شعوب البحر الأبيض المتوسط. وذهب بعض الباحثين حديثًا إلى أن المدينة السومرية (ميزوبوتاميا) كانت سامية حامية، وأنها كانت أسبق من كل ثقافة آرية مزعومة، حتى في الهند.

كيف يسخر المستر «هليربلوك» من هذه العقيدة في قوله:

«أي بني! راقب رجل الشمال،

وكن مثله قدر المستطاع.

إن ساقيه لطويلتان وإن عقله لبطيء،

وإن شعره لخفيف مصنوع من الشمع.

وهناك يوجد جنس الألب،

آه، ما أعرض وجهه وما أقساه!

ولكن أحط هؤلاء جميعًا

يُسمَّى جنس البحر الأبيض المتوسط».

والحق أن الفكر الإنجليزي كان دائمًا في شك من أمر الخصائص الجنسية الفطرية. فنحن في هذه البلاد قد ملنا نحو الرأي المعارض، واعتقدنا في قوة التنشئة والتقليد أكثر من الوراثة والجنس.

(٣) التقاليد الاجتماعية:

والآن وصلنا إلى الأخير من الشروح الثلاثة التي ذكرتها في مستهل كلامي. ذلك أن العلة الأساسية في الفروق بين الشعوب إنما هي العادات والتقاليد التي تتوارث من الماضي على ممر العصور فتشكل جيلًا بعد جيل، بوساطة المنزل والمدرسة والأدب القومي وكل العوامل الدقيقة في الحياة اليومية. ولقد صرح «لوك» عالم النفس البريطاني القديم -مثلًا- أن كل طفل يولد مرنًا كقطعة من الصلصال اللين، قابلًا

لأن يتشكل بالتربية والبيئة المحيطة به، وليس له طابع محدود خاص به. وقد جاء «ميل» والكتاب الأولون الذين توسعوا في هذا المذهب فأرجعوا كل الفروق العقلية إلى أثر البيئة الاجتماعية. وأرجعها «بكل» في كتابه العظيم (تاريخ الحضارة) إلى البيئة الطبيعية: فالإسكتلنديون أشداء نشيطون؛ لأنهم يعيشون في الجبال، والزنوج كسالى مبذرون؛ لأنهم يسكنون المناطق الحارة الوفيرة الخيرات. وقد لاحظ المؤرخون مرة بعد أخرى أن آراء هؤلاء الفلاسفة البريطانيين –التي اعتنقت في صراحة قليلة أو كثيرة– قد لعبت دورًا كبيرًا في تقرير السياسة البريطانية نحو الأمم غير المستقلة لا سيما الهند وشعوب الشرق.

والآن أظن أن النقطة التي نستطيع التسليم بها هي أنه لا الجنس وحده، ولا البيئة الجغرافية وحدها، بمستطيعة تعليل التفاوت البيّن بين المدنيات المتعاقبة. فيكفي أن تتذكر كيف غلبت اللغة والعوائد الرومانية على نصف ممالك أوروبا لنرى كيف تنتشر خصائص الشعب الواحد وراء الجنس أو البقعة التي أنبتتها. وإلا فهل يصح –لمجرد أننا نستعمل في إنجلترا كلمات لاتينية وتخضع لقانون روماني –أن نستنتج أننا منحدرون من الكتائب المغيرة التي جلبها هنا «يوليوس قيصر»؟ لا ضرورة لمثل هذه الفروض الجامحة. فهناك عمليات أبسط تلعب دورها، والناس يشبه بعضهم بعضًا، لا لأنهم تحدّروا من أصول واحدة فحسب، ولا لأنهم اشتركوا في وطن أو مناخ واحد، بل لأنهم أيضًا قلد بعضهم بعضًا، أو اقتدوا بمثل عال مشترك.

غير أن «التقليد» كلمة تشتمل ميولًا مختلفة كثيرة، فهي في أبسط

مظاهرها كما رأينا تعتمد على نوع واحد من المشاركة الوجدانية الأولية التي يمكن اعتبارها -إلى حدّ ما- غريزية. فلنستعملها هنا، طلبًا للاختصار، في كل تلك العمليات التي تنطوي على محاكاة فرد أفكار فرد آخر أو مشاعره أو أعماله. والتقليد بهذا المعنى شرط أساسي لكل حياة عقلية جمعية، فالفرق الرئيس بين الإنسان والحيوانات العليا هو أن مقدرته على التعلم أعظم كثيرًا من مقدرتها، وأنه بهذا الاستعداد يستطيع أن يتعلم، لا من تجربته هو فحسب بل من تجارب الآخرين أيضًا. وهو يفعل هذا من طريق القبول اللا شعوري لنموذج ما، أكثر من القبول الشعوري لبرهان ما. وهكذا -شيئًا فشيئًا- عن طريق تشرب التقاليد المحيطة، يكوّن سكان المساحة الواحدة المحدودة جماعة متجانسة، ويتقدمون معًا في المعرفة والاختراع، ويتعودون عادات متجانسة من الأعمال.

وتتضح لنا جيدًا أهمية مثل هذه الخطوات إذا تصورنا ما يحدث لو جرى تبادل عام بين السكان؛ افرض -مثلًا- أنه على إثر حرب عالمية جديدة نقل كل أطفال إنجلترا إلى ألمانيا حيث يدرجون بين الأنظمة الألمانية يتكلمون اللغة الألمانية، ويقرؤون الكتب الألمانية ويحاطون بالمؤثرات الألمانية من كل جانب؛ وهب كل طفل ألماني أرسل منذ ولادته إلى بلادنا هذه (إنجلترا) لينشأ على ثقافة إنجليزية خالصة! يخيل إليَّ في هذه الحالة أنه -رغم الفرق الجديد في المزاج الجنسي الفطري- لن يكون هناك تغيير مفاجئ يمكن أن يلاحظ في العادات أو وجهة النظر العقلية؛ فالأطفال الألمان يقلدون آباءهم الجدد من الإنجليز؛

وخصائصهم القومية الموروثة لا تبدو إلا في مظاهر بسيطة تافهة، وكل تغيير يجدّ على البلاد نتيجة لهذا يكون بطيئًا تدريجيًّا لا سريعًا أو انقلابيًّا. فوزن التقاليد يرجح في المبدأ تأثير الدم أو التكوين العقلي الجديد، ولا يكشف الثاني عن آثاره الصغيرة المتجمعة إلا خلال قرن أو قرنين.

إن الحيوانات لم تتطور إلى طوائف مختلفة اختلافًا بيِّنًا إلا عن طريق تغيير طبيعتها الموروثة، وهذه طريقة من طرق التقدم بطيئة جدًّا. أما الإنسان فقد كان تقدمه أسرع وفي اتجاهات مختلفة: كان ذلك عن طريق التغيير والزيادة في مجموعة المعتقدات والأفكار والعادات التي توارثها بالتقليد جيل بعد جيل. وعلى هذا فالفروق الموجودة بين الممالك الآن تعتمد في أساسها على هذه العناصر التي ترجع إلى التقاليد، فإذا أخذ شعب ما مدنية جزء آخر من أقاصي العالم -كما أخذ اليابانيون مثلًا ثقافة الغرب وأمريكا- استطاع، ولو في الظاهر أن يغير خصائصه تغييرًا كليًّا.

غير أن هناك حدودًا لمثل هذه التغييرات، وهذا هو الموضع الذي يبدو فيه الأثر الدقيق لمزاج الشعب الموروث. وإنك لتستطيع أن ترى هذا واضحًا كل الوضوح في الأنظمة السياسية والدينية: ففرنسا -مثلًا- قد أصبحت جمهورية، ولكنَّ الفرنسيين لم يظهروا تحت ذلك النظام الجمهوري إلا قليلًا من الابتكار وإبراز الذات اللذين تراهما ظاهرين ظهورًا قويًّا في جمهورية الولايات المتحدة؛ وعندما رفعت فرنسا عن كاهلها نير الملكية لم تتخلص من نظامها المركزي في الحكومة، ذلك النظام الذي بلغ حد الكمال في عهد لويس الرابع عشر ونابليون. أو

خذ مثلًا من الدين يغرم علماء النفس بإيراده: ذلك أن الديانة البوذية أصبحت في حكم المنقرضة في مسقط رأسها -وهو الجهات الواقعة على جوانب نهر (الجنج) - وحلت محلها بالتدريج الديانة الإسلامية، التي تقدمت من الشمال الغربي حتى البنغال، والتي يخبرنا كبير من علماء الإنسان أنها أكثر تمشيًا مع طباع الهندوس ومع اعتقادهم في القضاء والقدر. أو انظر -مثلًا- إلى الفرعين العظيمين اللذين انقسمت إليهما المسيحية في غرب أوروبا: البروتستانتية المستقلة استقلالًا حيًّا متحفزًا، والكاثوليكية الرومانية وما يصاحبها من طاعة للسلطان وحب للألوان والموسيقى، وانظر كيف يجري هذا الانقسام طبقًا لتوزيع الأجناس الأوروبية وانقسامها إلى شماليين وجنوبيين.

نحن -إذَنْ- مضطرون للاعتراف بنصيب من الحقيقة لكل من النظريات الثلاث التي ناقشناها: فالوراثة الجنسية والتقاليد العامة والوعي الاجتماعي الذاتي كل هذا يلعب دوره في إعطاء الشعب أهم مقوماته.

ويمكننا الآن أن نلخص مجرى التطور القومي فيما يلي: لا شك أن فروقًا عقلية توجد بين شعب وآخر، والموروث من هذه الفروق غالبًا دائم غير متغير وهي فروق صغيرة نسبيًّا، إلا أنها على صغرها لا بد أن تكون قد لعبت دورها في تقرير الاتجاهات العامة المتباينة التي سارت فيها الثقافة والعادات. ثم -عندما أخذت الهجرة والسفر والتبادل الدولي تجلب معها أذواقًا وأفكارًا جديدة من البلدان الأخرى- ابتدأ نوع من الانتخاب الطبيعي يعمل عمله فتشرب كل شعب ما وافق مزاجه

الخاص، ورفض أو عدّل ما لا يلائمه.

إن العرف والأنظمة والعادات التي يتخذها قوم ما -لأنها تنبعث من طبعهم الأساسي أو تلائمه- تأخذ هي بدورها في التأثير على ذلك الطبع وتقويته وتدعيمه عن طريق التقاليد المتجمعة. وأخيرًا عندما يشعر الشعب بوجوده يبدأ في تحديد أغراضه الخاصة به والتحدث عنها. وبهذا المعنى يصبح العقل القومي واعيًا وشاعرًا بنفسه معًا. إلا أن هذا الشعور ليس له محل إلا في الأفراد الذين يكونونه، فليس يلزم عليه أن تكون هناك شخصية جمعية أو روح وطنية، ولكنه ككل أنواع الجهد الشعوري يقود إلى أسرع طرق الرقي والتقدم.

وإذا صحت هذه النتيجة ترتبت عليها بعض آثار عملية: فمن الواضح أن ذكاء الأجناس ومزاجها قد يفرضان على كل مجموع إنساني بعض القيود الصغيرة؛ ولكن ليس هناك من سبب يمنع الثقافة والعادات من أن تُغَير أو يعاد تنظيمها داخل دائرة هذه الحدود المفروضة. فكما أننا في هذه الجزر البريطانية مزجنا اثنتين -إن لم يكن ثلاثًا- من الفصائل الإنسانية المختلفة وكوّنا منها شعبًا واحدًا، فكذلك في أوروبا بل في الكرة الأرضية كلها قد نستطيع أن نجمع كل السكان في نظام متحدٍ ونعطي ذلك النظام طابعًا أو صفة خاصة به. وهكذا نصل في النهاية -لا إلى شعور قومي فحسب، ولا إلى مثل عالٍ خاص بكل وطن على انفراد- ولكن إلى شعور عالمي وإلى مثل عالٍ ينتظم الجنس الإنساني كله.

الفصل الثالث عشر

سيكولوجية السياسة

لقد استعرضنا تطور الشعوب في الماضي، فما الذي ينتظر لتقدمها في المستقبل؟ سأبدأ هنا بسؤال شخصي أصل منه إلى بيان العوامل السيكولوجية في هذا الموضوع، وهو: كيف أعطيت صوتك في الانتخاب الماضي؟ وما الذي جعلك تنزع هذا المنزع في التصويت؟ ستقول إنك –من مطالعتك في الصحف ومن اتصالك برفاقك في النادي أو الاتحاد –قد درست المسائل التي يدور عليها الانتخاب، وأحطت بها علمًا، وأنك بعد تفكير طويل قد قررت أن الحقائق كلها تشير إلى حل واحد ظاهر، هو ما عرضه المرشح الذي أحرز صوتك. فبواعثك كانت منطقية محضًا، وتفكيرك علميًّا بمعنى الكلمة!

وبعد فما شأن الذين صوتوا للجهة المعارضة؟ لا شك أنهم يدّعون ما تدعيه من إحاطة بالموضوع وإعمال للعقل ليس دون إعمالك أنت لعقلك. ولمن حججهم بالطبع لم تتولد إلا مؤخرًا، فقد كان في مقدورك ومقدوري أن نتنبأ من قبل بالكيفية التي سيصوتون بها: «لأن

«براون»[1] و«روبنسون» بكل بساطة متحيزان بمزاجيهما، فالأول مثالي رقيق القلب، والثاني ثوري قاسي القلب، والميل الوجداني لكل منهما يصبغ تفكيره السياسي. و«سمث» يصوت كشأنه بمحض العادة فهو لا يزال طول حياته مخلصًا لهذا الجانب يفضله تفضيلًا أعمى. أما «هوبز» و«نوبز» و«هجنز» فإنهم يؤيدون الحزب الذي يعالج مشكلاتهم أو يحافظ على مصالحهم الخاصة؛ فمنهم مَن يصوت للمرشح الذي يعد أن ينقص ضريبة الدخل لمصلحة «نوبز» الموسر ومنهم من يؤيد المرشح الذي يقترح زيادة ضريبة الدخل ويخلق عملًا «لهوبز» و«هجنز» العاطلين عن العمل منذ أزمان.

من الواضح إذَنْ أن المزاج والعادة والحنق والآمال والمخاوف الشخصية وعوامل أخرى تشبهها لها من الأثر ما ليس للمعرفة المباشرة أو النظر الفكري المبني على الشعور بالواجب. وظاهرٌ أن منظم الحزب الذي يعمل على كسب الأصوات يجب أن يصبح عالم نفس، وأن يدرس البواعث غير المنطقية لكل أولئك الذين يذهبون إلى صندوق الانتخاب. وفي الحق لقد بدأ منظمو الأحزاب يعملون هذا، فلقد أدخل بعض الصحافيين الأمريكيين حديثًا كلمة جديدة يصفون بها داعية الانتخابات فسموه الرَّاقي –أو الساحر (Spell– binder)؛ لأن عمله يستلزم اللعب على مشاعر الجماعات وخداعهم لأغراضه الخاصة. والحق أن تقدم المدنية قد جعل تطبيق التفكير المنطقي على

(١) «براون» و«روبنسون» وما بعدهما أسماء شائعة بين الإنجليز أراد المؤلف بها هنا مطلق الأشخاص دون تعيين كما نستعمل نحن زيدًا وعمرًا وأشباههما.

المعضلات السياسية أكثر -لا أقل- صعوبة، وذلك نتيجة حتم لما طرأ على الدولة المدنية الحديثة من زيادة الحجم والتعقد؛ فقد تزايدت المسائل السياسية عددًا واشتباكًا، حتى لقد أصبح من الصعب على أي شخص بمفرده أن يحيط بالموضوع من أطرافه، ولو خصص له كل وقته. والناخب العادي -بالضرورة- أقل قدرة على امتلاك زمام الحقائق والصدور في تقريرها عن المنطق. إن الطريقة القديمة في النظر السياسي كانت سهلة الفهم على رجل الشارع، ولكن الطريقة الحديثة -وهي تصفية المعلومات الكثيرة تصفية دقيقة، وتحليل النتائج بالطرق الإحصائية- تحتاج إلى عقل الإخصائي المدرب. ومن هنا كان على السياسي الذي يريد أن يؤثر على دائرته الانتخابية أن يُبَسط منهجه، وأن يستعير الوسائل التي تُستعمل في الإعلانات التجارية؛ فهو يستخدم حيلًا نفسانية متعددة يلعب بها على قابلية الناخبين للاستهواء، ويعامل فيهم كائنات تتأثر ميولها بالكلمات المعسولة والتنبيه الوجداني أكثر من مواطنين منطقيين على درجة كبيرة من العلم والمعرفة.

إن هذه الحقيقة -وهي كون السياسة ليست في الواقع سوى علم نفس تطبيقي- قد أدركها -صراحة أو ضمنًا- كل مفكر عظيم عالج هذه المسائل العميقة. وكلمة السياسة نفسها قد عرفت تعريفًا عامًّا بأنها «علم الحكم وفنه»؛ ولكنها في أصل استعمالها كانت تدل على فلسفة الدولة، ولم تكن تعتبر مجرد طائفة الأنظمة والأشخاص الذين يُسيرون دولاب الحكومة، ولكن كل مجموعة المواطنين. فالدولة في جوهرها طائفة منظمة من العقول الشاعرة. وعلى هذا فعلم النفس -وهو الذي

يبحث في العقل- يجب أن يكون أقرب العلوم إلى الفيلسوف السياسي. إن «أفلاطون» و«أرسطو» و«لوط» و«روسو» و«بنتام» و«بوزانكيت» و«سبنسر» و«سورل» -وجميع من كتبوا في السياسة ابتدأ كل منهم بافتراضات سيكولوجية، ومنها استنتج نظريته في الدولة.

ولكن يحدث أحيانًا أن يعجز الفيلسوف السياسي عن أن يدرك تمام الإدراك أن مفترضاته تتضمن مسائل سيكولوجية، وأنها تتطلب البحث العلمي، فكثيرًا ما يعتبرها بديهيات ظاهرة، وهكذا -بالمبالغة في تبسيط الحقائق- يقع دائمًا في خطأ منطقي أو مبالغة عمياء. وفي الحق إنه لعجيب كيف تجاهل الفلاسفة والسياسيون في الماضي الحقيقة الواضحة من أن كلا الناخب ورجل السياسة، وكلا المواطن والحاكم -وهم ليسوا إلا بشرًا- خاضعون لا محالة للانفعالات بجانب اتصافهم بالعقل والمنطق. إن الطبيعة الإنسانية معقدة كل التعقيد، وكثير ممن يبحثون في فلسفة الحياة الاجتماعية معرضون لتوجيه كل اهتمامهم إلى ناحية واحدة من نواحيها المتناقضة مغمضين أعينهم عن النواحي الأخرى. نعم إن الفيلسوف السياسي مصيب في اعتباره إيانا أفرادًا اجتمعوا ليكونوا دولة واحدة، ولكن يصعب عليه أن يعطي كلتا الناحيتين ما تستحق من العناية: فكاتب يؤكد جانب الدولة، على حين يؤكد آخر جانب الأفراد منعزلين. ولذا تكون النتيجة دائمًا نظرية متحيزة إما إلى الناحية الفردية وإما إلى الناحية الجمعية. فإن كانت الأولى مالت إلى جانب مذهب الحرية (Liberalism) وإن كانت الثانية فهي إما محافظة (Conservative) وإما -في هذه الأيام الحديثة- اشتراكية (Socialistic).

ولعلكم تذكرون قول الجندي الحارس في أوبرا «أيولانت»[1]:

«كل مولود حي

ولدًا كان أو بنتًا

فهو إما حر صغير

وإما من المحافظين».

ولو أنه قال: «فهو إما فردي صغير وإما جمعي» لكان أكثر صوابًا من الوجهة السيكولوجية. ولكن النقطة التي يرمي إليها نقطة ذات مغزى، فهي تشير إلى أن ميل المرء نحو أحد الرأيين المتعارضين قد لا يكون سببه مجرد العادة أو المصلحة الذاتية أو المشكلة التي تشغله، بل قبل كل ذلك طبعه الخاص.

خذ المثاليين الألمان في القرن التاسع عشر مثلًا تجدهم جميعًا عظّموا شأن الدولة. فهم -حسب النظرية التي شرحناها- قد اعتبروها أشبه بكائن سامٍ روحي له شعور وإرادة خاصان به، أو أشبه بمخلوق هائل (Leviathan) ذي روح. فالدولة في نظرهم صاحبة السلطان، وهي فوق الجميع؛ ومصالح الأمة فوق الاعتبارات الخلقية، وأهم من مصالح الأفراد ومن مصالح أي أمة أخرى، بل العالم أجمع. ذلك الرأي سرعان ما يجر إلى أخطار القومية الضيقة، ولا يقف عند إثارة الاضطهاد داخل الدولة فحسب، بل يؤدي إلى إشعال نار الحرب خارجها.

ومع ذلك فلهذا المذهب نصيب من الحقيقة؛ ذلك أنه يؤيد قيمة

(١) إحدى أوبرات «جلبرت» و«سليفان».

العمل الجمعي؛ ولهذا السبب –وذلك غريب– ترى مبادئه يستند إليها حزبان غالبًا ما يعتبران في نظرنا متعارضين، المحافظون من جهة والاشتراكيون من جهة أخرى؛ على حين ترى في الخارج فاشستية إيطاليا وشيوعية روسيا كلتاهما تفضل الجماعة أو الأمة على الفرد.

ليس من شأننا هنا أن ننتقد هذه المذاهب السياسية المختلفة، ولكنا نحاول فقط أن نتفهم المبادئ السيكولوجية التي تقوم عليها هذه المذاهب دون أن نناقشها. وأظن أنه لا حرج علينا في أن نتفق –في حدود المعنى الضيق الذي شرحناه في الفصل السابق– على أن الدولة المتحضرة تستطيع أن تصل إلى نوع من شعور المجموع، غير أن هذه السيكولوجيا تخطئ حين تفترض أن الدولة هي النظام الوحيد الذي يكون له شعور اجتماعي من هذا الطراز، فهناك أنظمة أخرى قد يكون لها مثل هذا الشعور. خذ العالَمَ مثلًا: فهو الآن –أو كما يصح أن يكون– جماعة منظمة شاملة واسعة النطاق، وقد بدأنا نحن نبتهل إلى الضمير المشترك للعالم المتمدين كله. ليس هذا فحسب ولكن في داخل المجموع الذي نسميه شعبًا مجموعات أصغر قد يكون لها نوع من الروح الجمعي. فالأسر والمدن والمعابد ونقابات العمال وهيئات أصحاب المهن والمجالس المحلية أو البلدية، كل أولئك قد يُكون له شعورٌ جمعيٌّ خاصٌّ به. وقد يجيء على هذا الشعور وقت يتطلب فيه ولاء أقوى مما يتطلبه الآن. غير أن هناك نقطة جوهرية، المثاليّ فيها مصيب كبد الصواب، تلك أن الإنسان إن لم يكن دائمًا مواطنًا فهو دائمًا عضو في مجموع، فليس في العالم أفراد يعيشون بمعزل تام مثل «روبنسن كروسو».

ولكن الشعور الجمعي كما رأيناه لا يمكن أن يوجد إلا في شعور هذا الفرد أو ذاك على حدة، في شعور أشخاص مثلي ومثلك. وهذه هي الناحية التي يؤكدها الفرديون الإنجليز، فهم ينكرون السلطان المتحكم للدولة، ذلك الذي يجعل منها روحًا علويًّا ساميًا، وهم يؤكدون الحاجة الماسة إلى الحرية كشرط أساسي لنمو الشعور الفردي نموًّا كاملًا.

لو أنك مشيت في أزقة «هندن» منذ أكثر من مائة سنة لقابلت محاميًا شيخًا غريبًا يمشي مسرع الخطى تتبعه قطته العزيزة، وفي الكلية التي أكتب فيها الآن (يونفرستي كولدج) يمكنك أن ترى هيكله جالسًا على كرسي ممسكًا بعصا من الطراز القديم، مغطى الوجه بقناع من الشمع، عليه ملابس من طراز سنة ١٨٣٠. ذلك الرجل هو «جرمي بنتام» المفكر الذي أثر في السياسة الإنجليزية أكثر من أي كاتب آخر. فبينما كان «هيجل» في ألمانيا يبشر بمبدأ السلطان المطلق للدولة، كان «بنتام» في إنجلترا يخرج رسائله المطولة الحافلة بالألفاظ الطويلة التي اخترعها يقرر فيها أهمية الفرد التي لا تُنازع.

يبدأ بحث «بنتام» بجملة مشهورة تعلن الأساس السيكولوجي الذي قامت عليه نظريته؛ وتلك الجملة هي: «لقد وضعت الطبيعة بني الإنسان تحت سلطان سيدين آمرين هما اللذة والألم». ويرى «بنتام» أن كل أعمالنا تصدر عن هذين الباعثين الأوّليين، فكل مَن أراد منا أن يقوم بعمل ما، يبدأ بوزن نتائجه ويحصي -كما يحصي الكاتب قائمة الحساب- مقدار الزيادة المحتملة للذة على الألم. وعلى مقتضى هذا الحساب يقرر اتباع السلوك الذي يساعده على تحاشي كل ألم ممكن،

والحصول على أقصى ما يستطاع من اللذة.

هذه السيكولوجيا تبدو لا غبار عليها للنظرة الأولى، إلا أنها أبسط من أن تكون صحيحة. ولكن «بنتام» كان همه أن يقضي على التصورات الميتافيزيقية الغامضة التي قام عليها التفكير السياسي القديم، تلك النظريات التي وصمها هو بأنها «هراء على عكازات»؛ وكان حريصًا الحرص كله على أن يصل مباشرة إلى ما سماه «المنفعة»، فأقام على أساس مقدماته البسيطة ضابطه المشهور وهو «أعظم سعادة لأكبر عدد من الناس». كان هذا في رأيه هو الهدف الذي يتجه إليه السياسي والمحكّ الذي يعرض عليه كل قانون قديم وكل تشريع جديد، وكان معظم أتباعه في مذهب المنفعة هذا من الأحرار أو الاشتراكيين، -الاشتراكيين الفلسفيين كما كانوا يلقبون إذ ذاك -وهم الذين اتخذوا قاعدة «بنتام» شعارًا لهم، وكانوا الوساطة في سنّ كثير من الإصلاحات البعيدة الأثر، فعدلت القوانين ووسع نطاق التصويت العام وقرر التعليم للجميع. مثل هذا المبدأ كانت له قيمة عملية بينة في الوقت الذي كان فيه مجموع من يعيشون عيشة راضية في معظم البلاد المتمدينة لا يكاد يبلغ نصف السكان، وأقل من هؤلاء من كانت لديهم الفرصة لتنمية قدراتهم الكامنة. غير أنه لما طبق على معضلات الحياة الصناعية المعقدة تداعى أساسه القائم على البواعث الفردية، ولم يكن عجبًا أن نسمع «ماكولي» يرد بقوله: «إن من المستحيل أن تستنتج على الحكم من مبادئ الطبيعة الإنسانية».

على نفس هذا الأساس النفعي قام علم الاقتصاد الحديث، وهو

علم إنجليزي في طابعه. ولكن كان من السهل هنا أن يرى المفكرون أن الفردية ربما تُجَرُّ سريعًا إلى عدم الاكتراث وإلى الهاوية أكثر مما تَجَرُّ إلى الإصلاح. إن الفردية تبدأ بافتراض أن كل إنسان يعرف أين يجد سعادته، وأنه سيجدّ وراءها بنفسه، في نشاط لا يعدله نشاط أي فرد آخر يطلبها له. فما الذي يترتب على هذا الافتراض؟ النتيجة المنطقية لهذا هي سياسة عدم التدخل (laissez –faire) ومعناها «اترك كل فرد وشأنه ودع الأمور تجري في أعنتها». وإذا صح هذا فأين مكان الدولة؟ ليس للدولة على هذا الرأي إلا مجال قليل، فيكون عملها في المباراة الاقتصادية عمل الشرطي أو الحَكَم وتتحاشى القيام بأي عمل إنشائي، وتكف عن أن يكون مثلها مثل الشخص الذي يتعلم عدة حرف ولا يجيد واحدة منها، وعن أن تلعب دور السيدة الأرستقراطية في كل قرية، أو الشخص الطُّلَعة في كل منزل[١]، بل تقصر نفسها على أن تكون حارسة الميدان، تاركة تمام الحرية للجهود الفردية؛ فحرية التجارة وحرية المسابقة اعتبرتا أساسيتين من الوجهة السيكولوجية، وكل تدخل في المعاملات الاقتصادية بين شخص وآخر كان يعتبر –دون تردد– لا خطأ وأمرًا غير مرغوب فيه فحسب، بل عديم الجدوى وغير مناسب، إذا إن قوانين العرض والطلب الحديدية الصارمة سرعان ما تبطله.

ولقد يدهشك أن تلاحظ كيف تغير التفكير النظري والسياسة

---

(١) (Jack –of all –Trades) و (Lady Bountiful) و (Paul Pry) تعابير إنجليزية مشهورة، فالأول منها مثل يطلق على الشخص الذي يستطيع أن يقوم بأي عمل. والثاني يطلق على السيدة العظيمة في بقعة ما، والثالث مأخوذ من رواية هزلية من تأليف (John Boole) ويطلق على كل شخص كثير الاستشراف والتطلع والتحسس.

العملية في أعوام قليلة؛ فيكفي في الناحية العملية أن تنظر إلى تفتيش المعامل الحديثة وإلى الإصلاح الصحي الحديث، وإلى قوانين مجالس التجارة، وإلى قوانين التأمين ضد البطالة وقوانين المعاشات، لترى كيف اضطرت الدولة مرة أخرى أن تتدخل. أما من الناحية النظرية فإن كثيرًا من مبادئ مذهب المنفعة قد عُكست تمامًا، وإن تطور الحوادث قد زعزع من قيمة الحاجة إليها. ولقد انقرضت -أو كادت- رأسمالية القرن التاسع عشر التي كانت قائمة على التزاحم، وأخذت تحل محلها تدريجيًّا رأسمالية القرن العشرين الاحتكارية. لهذا ترى الاقتصادي الحديث يعير جانبًا كبيرًا من الأهمية -لا لسياسة عدم التدخل كقاعدة أساسية- بل للأحوال المستثناة منها، وقد تحوَّل اهتمامه من جانب إنتاج الثروة وتداولها إلى جانب استهلاكها.

ومن المفيد هنا أن نتذكر أن أوائل الذين عارضوا المبادئ «البنتامية» لم يكونوا سياسيين أو علماء، وإنما كانوا رجال أدب، من أمثال «ماكولي» و«رسكين» و«ديكنز» و«كارليل». وكان نقدهم إياها من الوجهة السيكولوجية. وقد ساعد «رسكين» -رغم تهويلاته الطنانة- أكثر من أي كاتب آخر على إقصاء فكرة «الرجل الاقتصادي» المعنوي وعلَّمنا «أن الشخص الوحيد الذي يعتبره علم السياسة هو الرجل كاملًا -الرجل بكامل انفعالاته وفي كل علاقاته الاجتماعية. والحق أنه ليس من العجيب أن يكون المؤرخ والروائي وعالم الأخلاق قد نفذوا ببصيرتهم إلى الطبيعة الإنسانية أعمق مما نفذ إليها راهب كريم «كبنتام» أمضى أيامه في عزلة هادئة في «فورد أبي» يدرب الفئران على تسلق

رجليه، وأكل فتات العيش من حجره.

تعالوا نمعن النظر الآن لنعرف أين أضلت دعاوى الفرديين أربابها. لقد كان أحد معتقداتهم التي تعصبوا لها أن كل إنسان إنما جاء إلى هذا العالم بعقل هواء وجسم عار، وأن نفسه تشبه قطعة بسيطة من الشمع يمكن التربية أن تشكلها وتبلغ بها درجة الكمال. وهكذا أنكر هؤلاء الوراثة العقلية بتاتًا. أما من الناحية العلمية فإن الضربة الفاصلة التي وجهت إلى هذه النظرية إنما جاءتها من «دارون» في كتابه «تناسل الإنسان»؛ فقد كانت النتيجة المباشرة لوجهة النظر البيولوجية أن يعتبر الإنسان -مهما تكن نواحيه الأخرى- حيوانًا قبل كل شيء، وهو كسائر الحيوانات يرث ميولًا خاصة فهو يأتي ومعه عند ولادته -أولًا- ذخيرة من غرائز قوية غير مهذبة، -وثانيًا- كميات مختلفة من الذكاء والمقدرة العقلية تحد من تلك الغرائز.

٣- والنتيجة المباشرة لهذا الرأي إنكار أن يمكن اعتبار الكائن الإنساني مجرد آلة عقلية، فأعماله -على الأقل في المبدأ- لا يقودها البحث المتعمد عن اللذة، أو العزم الشعوري على تحاشي الألم؛ وإنما هي نتيجة بعض انفعالات فطرية تدفعه إلى أن يتصرف في طريق معينة، دون أن تدع له مجالًا للتفكير في المنافع الخاصة التي ستترتب على عمله. وكلما نما تحولت هذه الغرائز، بما يطرأ عليها من تعديل، إلى ميول ثابتة أو عادات. ولكن بواعثه تظل طول حياته قائمة، لا على تأمل شعوري واضح، بل على دوافع بنت ساعتها، أشبه في طبيعتها بالاستيقاظ في الصباح أو أكل وجبة الطعام عندما تحضر. هذه النظرية أحدث، ولكن

نرى هنا أن عالم النفس في خطر من أن يتطرف إلى الناحية الأخرى، فيصور بني الإنسان أقل عقلية مما هم عليه. ومع ذلك فلا نزاع في أن هذه الغرائز موجودة، وأنها عميقة الأثر في حياتنا الاجتماعية، وربما تدخل العقل -كما سنرى قريبًا- ليعدل فيها أو ليهذب في مجراها.

ما هي -إذَنْ- طبيعة هذه الدوافع التي نحن جميعًا مزودون بها؟ أولًا، يرث جنسنا -كما ترث الأغنام والذئاب أو النحل والنمل -غريزة خاصة لا شك أنها تضطرنا لأن نعيش معًا في مجموعات، وهي تُسمَّى عادة غريزة القطيع. تصورْ السجين رهن سجنه المنفرد، أو الملاح انقطعت به السبل على جزيرة منعزلة، ثم تصور السرور الفياض يتدفق من يافع سليم الجسم حين ينطلق من مكان عمله ليزحم الألوف بمنكبيه في جمهور يشهد لعب كرة القدم. إنك لترى حينئذ أن الناس إذا خافوا العزلة وتجمعوا معًا في مجموعات، فليس ذلك نتيجة تأمل هادئ أو خطة حازمة أحكم التفكير بها ولكنه بكل بساطة مظهر من مظاهر ميل أعمى لا تفكير فيه. فنحن نعيش معًا في جماعات بالطبيعة لا نتيجة التدبير. وفي الحق إن المرء -بعيدًا عن رفاقه من الناس- لا يكون إنسانًا. والدولة على هذا لا يمكن أن تشرح بأنها نوع من شركة تضامنية محدودة تعاقد أعضاؤها على تبادل المعونة والوقاية. فقد انبعثت الدولة -لا نتيجة تواضع مصطنع بل نتيجة نمو طبيعي. وهي -بالاختصار- تقوم على غريزة اجتماعية لا على عقد اجتماعي.

ومتى احتشدت الحيوانات الجمعية معًا ظهرت فيها -عاجلًا- بعض ميول شبه آلية، ففي أغلب الكائنات الاجتماعية -ونحن من بينها- تظهر

غريزتان أخريان: إحداهما غريزة الزعامة، والأخرى غريزة الخضوع. أما الأولى فتتمثل في حب القوة. وهذا الحب -سواء أكان نافعًا أم ضارًّا -باعث قوي دائمًا عند السياسي. وأما الثانية فتؤدي إلى الوداعة والطاعة، وهي إلى حد كبير توضح السبب في أن الناس -محتشدين- أكثر استعدادًا لقبول الظروف المحيطة بهم. ما هو السر في أن الجماهير في كل بيئة مستعدون أن يطيعوا الإشارة التي تصدر من أفراد قليلين سواء أكان هذا الفريق ممثليهم أم غيرهم؟ إن رضوخ الأنصار والأتباع لزعمائهم لغز سيكولوجي قد حيّر الفلاسفة الاجتماعيين جميعًا؛ فمن التعليلات التي كثر ترديدها بينهم الخوف، وفي أيام هوبز -عندما كان التفكير السياسي محفوفًا بالمخاطر حتى لقد يضطر الشخص إلى الهرب من لندن إلى باريس سنة، أو من باريس إلى لندن في السنة التالية- كان الخوف أظهر الانفعالات ذكرًا على لسان الفيلسوف، غير أن التجارب السيكولوجية الحديثة قد أثبتت أن الأفراد في الجو الاجتماعي السليم يحتاجون إلى درجة من التخويف أقل مما كان يُظن؛ فمن خمسين عامًا كان المدرس في حجرة الدراسة يعتقد أن حكمه قائم على الخوف وأن من الخطل في التدبير أن يترك مجموعة من الأطفال دون إشراف، يُنتظر منها أن تلزم جانب السلوك الحميد وتقبل على عملها. أما في المدارس الحديثة، حيث انقضى حكم العصا، وحل محله التهذيب الحر، فقد أصبح ذلك من المشاهدات اليومية. وإذا كان الجو السائد في الجماعة جوًّا صالحًا، حل النظام الداخلي محل الهيمنة المفروضة من الخارج. ولقد بدأ شيء من هذا الجنوح للثقة بدلًا من الإجبار يسري في حياتنا

الاجتماعية، فأسوار كثير من الحدائق قد أُزيلت، والبضائع تُعرض في حوانيتها دون كثير مراقبة، ومنزل الإنجليزي لم يعد كما كان في القديم قلعة موصدة.

وليس رجل الاقتصاد بمضطر الآن إلى افتراض أن البالغين لا يعملون إلا إذا أُجبروا، سواء أكان هذا الإجبار من طريق التهديد المستتر بالموت جوعًا، أم من طريق التشجيع المباشر بالمكافأة المادية. إن انتشار الإرهاق في العمل قد جعل كثيرًا من الناس يظنون أن العمل في كل صورة ثقيل على النفس. وفي الحق إن العمل الممل، والعمل القذر، والعمل الخطر، كلها تستلزم قدرًا أكبر من التعويض. غير أن غريزة الاقتناء ليست هي الباعث الوحيد فغرائز الإنشاء والبناء أيضًا تحاول أن تأخذ بنصيبها من العمل؛ فالكبار –كمعظم الأطفال– أسعد ما يكونون إذا كانوا مشتغلين بعمل سار. ولقد يبدو متناقضًا أن نقول إنهم يجدُّون ويكدحون –لا جريًا وراء لذات بعيدة– بل لأن الجهد الطبيعي لذيذ؛ غير أنه من الثابت أن أحسن ما ينتج في ميادين العلم والفن والعمل والاختراع لا يُنجز تحت تأثير النفع المادي، بل لأن المقدرة على هذا أو ذاك من العمل تجلب معها رغبة شديدة ملحة في أدائه. وحق ما لاحظه «برنارد شو» من أن «الإجازة الدائمة قد تكون تعريفًا جيدًا للجحيم».

ميولنا الأولية –إذَنْ– ليست أنانية ولا ضيقة ولا باعثة على الكسل؛ بل ربما كانت أعجب غرائزنا هي ما تُسمَّى أحيانًا الغريزة الوالدية أو غريزة الحماية، وهي الأصل الذي يتفرع منه كل سلوك يرمي إلى نفع

الآخرين. لقد عجز المفكرون السياسيون في الماضي عن إدراك أن السلوك غير الأناني -كالسلوك الأناني- له أساس غريزي؛ ففي طبيعتنا رعاية الضعيف والحدب عليه، لا إهماله أو إثقال كاهله. ولو أن الناس كانوا بفطرتهم محض أنانيين باحثين عن نفعهم الخاص، كل يجري وراء لذته الخاصة، فما الذي جعل ذوي السلطة والحكم يقترحون في كثير من الأحيان قوانين إنسانية ربما كانت في الواقع ضد مصالحهم الخاصة؟ إن تحرير الرقيق مثلًا في جزر الهند الغربية البريطانية قد كلف الشعب الإنجليزي عشرين مليونًا من الجنيهات لم تُكسب إلا بعرق الجبين. وفي المسائل الأقل شأنًا، كثيرًا ما يجد الخطيب السياسي أن اللعب على عاطفة الجمهور وشعورهم بالمشاركة الوجدانية يثير فيهم ما لا تثير الحملات العنيفة أو الوعود بالمغانم الخاصة.

هذه الغرائز وأمثالها إذَنْ هي المصادر الأصلية، إن لم تكن الوحيدة، لكل نشاط إنساني. وهي تملي الغايات التي سيسعى إليها الناس دائمًا في جماعاتهم المنظمة. غير أنه من السهل أن يبالغ الإنسان في قيمة العوامل الوجدانية وغير المنطقية كما أن من السهل المبالغة في قيمة العقل والتفكير المجرد. هذه الغرائز الموروثة أقل تحددًا وأكثر مرونة في الجنس الإنساني مما هي في بني عمومتنا من الحيوان، فالتجربة لا يمكن أن تُعدّلها، وبالتدريب يمكن أن تهذبها أو نمسك بعنانها، أو نُحكم فيها العقل. ويمكن توضيح هذه العملية على أحسن وجه بغريزة أخرى قام حولها في السنوات الحديثة كثير من المناقشات، تلك هي غريزة العدوان (**Puguacity**)، فقد قرر كثيرون أن الحرب لا مفرّ منها

من الوجهة البيولوجية، وأن الجنس الإنساني محكوم بتنازع البقاء ويجب أن يظل كذلك؛ وهذا سبنسر -مثلًا- قد جره مثل هذا التفكير إلى معارضة كل أنواع المعونة الحكومية للفقراء وكل أنواع الجهد الجمعي لصالح المأزومين. وقد احتج ذوو الروح العسكرية بمبدأ الانتخاب الطبيعي في تبرير الحروب بين الدول المتمدينة. ومنذ قرنين أو ثلاثة كانت أمثال هذه الحجج تساق للدلالة على أن قتال الشوارع والمبارزة وقتل النفس لن تختفي قط. ومع ذلك ففي القرن العشرين لا تجد واحدًا منا يتقلد سيفًا، وإن كان القليلون منا يحملون أسلحة نارية صغيرة. وسيلازمنا دائمًا الغضب والسخط والتنابز؛ إلا أن هذه -كالغرائز الأخرى- ستميل مع تقدم المدنية إلى أن تجد لها منافذ أسمى وأقل ضررًا، وستبحث لنا عن منافذ توافق -أكثر مما تخالف- روح الاجتماع وبعبارة أقصر تصبح مُعلاة.

أما الطرق التي تُنَفَّذ بها هذه التغيرات فإنها أكثر تعقدًا من أن نتناولها هنا بالتفصيل. فهي، من ناحية، نتيجة لعمل المثل العليا العقلية الشعورية التي هي غالبًا من صنع عظماء الرجال في العالم؛ وهذه المثل تتسرب إلى الجماعة كلها عن طريق التربية والأدب وعن طريق الصحافة والمنبر والمسرح، ثم عن طريق الإذاعة والسينما في الأزمنة الحديثة؛ ومن ناحية أخرى هي نتيجة عمليات غير شعورية كالإيحاء والتقليد، وما هو أهم منها وهو العادة التي تشبه عجلة الاتزان في الجماعة. إلا أن الذي يعدل الغريزة أو يسيطر عليها على أي حال هو الذكاء.

هذا يصل بي إلى الخدمة الثانية المهمة التي أداها علم النفس

للنظرية السياسية، وتلك هي دراسة الذكاء الفطري. فلقد بدأ الناس أخيرًا يتساءلون: هل حقق مبدأ المساواة في التصويت ما كان يُرجى منه؟ وهذا الامتعاض من نتائج الديموقراطية قد أثار شكوكًا خطيرة في ذكاء السكان الديموقراطيين –فهل من العدل أن نقتصر على عدد الرؤوس بلا وقفة للنظر في محتوياتها؟

لنلقِ الآن نظرة على أهم الآراء التي قيلت في هذا الصدد سابقًا. إن أول الآراء وأقدمها ذلك الذي يفترض أن السكان ينقسمون إلى طبقتين أو أكثر تتمثل في الطوائف الاجتماعية أو الاقتصادية، وأن واحدة فقط من هذه الطبقات تصلح لتولي الحكم، بينما الطبقات الأخرى غير جديرة بالتصويت العام بل بالحرية أيضًا. والرأي الذي جاء بعد هذا ينكر كل فرق في المنزلة الطبيعية، ويقرر أن الناس جميعًا متساوون، لا في الحقوق فحسب، بل في الذكاء، وأن مواهبهم الكامنة لا تحتاج في تنبيهها وإيقاظها لشيء سوى التربية. لقد رأينا كيف نادى «بنتام» وأتباعه بهذا المبدأ قائلين إن الفروق العقلية تنبعث، لا من الوراثة أو التكوين الفطري، بل من قلة الثروة أو الفُرَص أو التدريب وما إلى ذلك. ولقد قامت الجمهورية الأمريكية رمزًا لتخليد مبدأ المساواة بين الناس. والجميع يذكرون كيف سخر «كارليل» من هذا المبدأ الذي صوره هو هازئًا في قوله «كل إنسان ند لكل إنسان آخر– والعبد الزنجي ند لسقراط أو شكسبير».

هنا –إذَنْ– معضلة لعلم النفس لا ريب فيها؛ وقد حلها علماء النفس حلًّا لا ريب فيه: فقد قاموا حديثًا بتطبيق مجموعة من المقاييس العقلية

الدقيقة على مساحات كاملة من البلاد، وقد أثبتت نتائج تلك المقاييس أن كلًّا من الآراء التي ذكرناها في صورتها التقليدية خاطئ؛ لأن كلًّا منها مبالغ فيه؛ فليس هناك من شك في أن متوسط الذكاء للطوائف الاجتماعية مختلف. ولكن هذا الفرق بين المتوسطات أصغر كثيرًا من الفرق بين الأفراد. أما الكشف الحديث المهم فهو ذلك المدى الهائل الذي يبدو فيه الذكاء الفطري لأعضاء كل طبقة اجتماعية وللسكان على العموم، فقد وجد في المتوسط أن ١ ٪ من سكان معظم البلاد المتمدينة ضعيفو العقل وأن ١٠ ٪ أغبياء أو متأخرون[١]. هذا وتدل الدلائل على أن مثل هذا الضعف أو النقص لا يرجع إلى نقص التربية فحسب، كما كان يتوهم سابقًا بل هو إلى حد كبير فطري، ولذا لا يستطاع التخلص منه. وهنا معضلة سياسية جديدة: هبنا وجهنا لضعاف العقول عناية خاصة، وزودناهم بتعليم خاص في مدارس حديثة خاصة، وصقلناهم صقلًا ظاهريًّا، ثم ألقينا حبالهم على غواربهم في الحياة، فماذا يحدث؟ إن هؤلاء بسبب نقص ذكائهم وعدم قدرتهم على ضبط النفس سيتناسلون أكثر من المتوسطين والأذكياء؛ وإذا استمر هذا أجيالًا فستكون النتيجة

(١) الجدول التالي يبين توزيع الذكاء في شعب كإنجلترا أو أمريكا:

النسبة المئوية	النوع
١	عبقري – نابغة
٥	فائقون جدًّا
١٤	فائقون
٦٠	متوسطون
١٤	بلداء – أو أغبياء
٥	بين الغباوة وضعف العقل
١	ضعيف العقل أو ناقصه

المحتومة أن يطغى ضعاف العقول في العدد على مَن سواهم. ولدينا الآن ما يحمل على الاعتقاد بأن المستوى المتوسط للذكاء في المجموع كله آخذ فعلًا في الانحطاط.

أما علاج هذه الحالة فيبدو -لأول وهلة- واضحًا؛ فقد سنَّ البرلمان قوانين تمكننا من أن نميز ضعاف العقول، ونُلزمهم معاهد خاصة لا يبرحونها. فليس علينا إلا أن نوسع مدى هذه القوانين ونطبقها. غير أننا لا نستطيع أن نعمل هذا مع الطائفة التي تقع على حدود الضعف العقلي، والتي سميتها طائفة الأغبياء أو المتأخرين. والواقع أن عدد هذه الطائفة من الكبر بحيث ينحدر منها معظم المتسولين والمجرمين والمقصرين عن إدراك النجاح. ومع ذلك فوسائل تحسين النسل قد أصبحت الآن ضرورية وجوهرية. ولعلكم تذكرون الصورة التي رسمها خيال «آلدس هكسلي» للعالم في مؤلفه: (العالم الجديد الشجاع): إذ جعل الطلبة يدخلون فرقًا في «محل الإفراخ الإنساني»، ويحدقون النظر في أنابيب الاختبار وفي أجهزة الإفراخ، حيث يرون أطفالًا، من نوع راق جدًّا، من الذكور والإناث يربون على مبادئ ظلت إلى الآن مقصورة على تربية النَّبات والخيل والكلاب الأصيلة. غير أن معرفتنا بالوراثة العقلية في الوقت الحاضر أقل من أن تكفي لإصلاح شامل، فليس من علماء النفس في بريطانيا، إلا القليل ممن يظهرون استعدادهم الآن للمناداة بفرض الوسائل الإجبارية لتحديد النسل، كالتعقيم أو حتى عزل مجموعات كبيرة من الناس، ولكن هذه احتمالات نحن لا شك

مضطرون أن نختبرها في المستقبل القريب[١].

لننتقل الآن إلى النهاية العليا من السلم. لقد وجد علماء النفس أن الذين فوق المتوسط يساوون في العدد من دونه، وأن هناك من العمالقة في العقل عددًا يضارع عدد الأقزام في العقل أيضًا. فالتوزيع هنا - إذَنْ- توزيع متناسب لا تجد مثله في توزيع الثروة أو الدخل. والطبيعة تجيء هنا بنظام تام الصنع مما كان يُسمَّى قبلًا «أرستقراطية المواهب». ولكن الموهبة كانت -إلى عهد قريب- تُظَن وقفًا على الأرستقراطيين. حقيقة إن الاختبارات السيكولوجية تدل على أن متوسط الذكاء عند أصحاب المهن الراقية أعلى شيئًا منه عند طبقات العمال غير المدربين كالأجراء اليوميين مثلًا. وفي هذا ما يبدو للنظرة الأولى مبررًا للتقسيم القديم للدولة إلى طوائف وطبقات اجتماعية متميزة. ولكن التقسيم على أساس الذكاء لن يطابق قط التقسيم على أساس المنزلة أو الثروة أو حتى نوع العمل؛ فقد رأينا أكثر من مرة على صفحات هذا الكتاب أنك مهما توازن من جماعات -رجال ونساء، بيض وسمر، أغنياء وفقراء، أميين ومتعلمين- تجد الفرق بين الأفراد أعظم على الدوام من الفرق بين متوسطات كل من هذه الطوائف؛ فقد يندر أن يفوز بالجوائز المدرسية أحد من أُسَر عمال المواني، ولكن يحدث فعلًا أن يفوز بها

(١) منذ كتابة هذه السطور قرر مجلس الضبط (في بريطانيا) تأليف لجنة تبحث شؤون التعقيم. وسنت حكومة النازي (في ألمانيا) قانونًا يقضي بتعقيم الأشخاص المصابين بأمراض وراثية؛ ويدخل في ذلك ضعف العقل الموروث وأنواع خاصة من الجنون. وقد يكون من الطريف أن نرى هل تكون تلك القوانين أنجع أثرًا في ألمانيا من مثيلاتها التي أدخلت في كثير من الولايات الأمريكية منذ أعوام. (المؤلف).

أناس منهم؛ وقد يندر كذلك وجود ضعفاء العقول في أسر المعلمين والأطباء والمحامين، ولكنهم موجودون أيضًا. ولقد كان بالطبع من المجازفة أن تُبنى المساواة في الحقوق السياسية على ما زعم من مساواة بين الناس في الأدمغة والذكاء. فالنتيجة قد تكون معقولة في التطبيق، ولكن مقدمتها قد لا تزيد على وهم من أوهام باحث نظري. والحق أن من أحسن الحجج للمناداة بالمساواة السياسية أن المساواة بين الجميع في الفرص تكشف بسهولة عن أيهم أحسن. وهؤلاء الأفضلون سوف لا تجدهم في طبقة واحدة ذات نسب أو مركز اجتماعي واحد، ولكنك ستجدهم منتشرين في كل طبقة من طبقات الهيئة الاجتماعية انتشار «الزبيب في طبقات الفطير».

* * *

وبعد فهل نستطيع أن نطمئن إلى أن أولئك الأفضلين سيطفون دائمًا إلى القمة؟ إنهم من بني الإنسان فليس بهم من حاجة إلى أن يطفوا، ولكن عليهم أن يتسلقوا؛ وعلى الدولة في الحقيقة أن تقيم سلمًا مزدوجًا يصعد عليه الأذكياء إلى مكانهم من الذروة وينحدر عليه الأقل ذكاء –أيًّا كان وسطهم– إلى مستواهم الحقيقي. وبهذا يستطيع الفرد أن يخدم الأمة كما تخدمه هي؛ فإن عالم النفس يرى أن التضاد القديم بين الفرد والأمة، أو بين الفرد والدولة إنما هو مقابلة خاطئة، فلن يستطيع أحدهما أن يعيش بدون الآخر، ولن يستطيع أحدهما أن يحيا الحياة الكاملة إلا بمعونة الآخر.

الفصل الرابع عشر

سيكولوجية الفراغ

قام علماء النفس ببحوث لا عداد لها في مسائل العمل، ولم يَهَبوا لمسائل الفراغ إلا القليل من اهتمامهم. ولكن الحال تغيرت في الحياة الحاضرة، فقد أخذ العمل يقل شيئًا فشيئًا، على حين أخذ الفراغ يزداد -لا في مقداره فحسب- بل في كيفيته وفي تنوعه أيضًا.

إذا نظرت في هذه اللحظة إلى سكان بريطانيا وجدت -من بين الخمسة والأربعين مليونًا- حوالي ثلاثة ملايين من العاطلين، يمكنك أن تعتبرهم -كمجموع- أكبر طائفة من طوائف الفراغ في تاريخ هذه البلاد. ومع ذلك فقد بدأ الفراغ منذ وقت طويل قبل الأزمة الاقتصادية الحاضرة يمتد إلى عدد أكبر من الأشخاص ويشغل عددًا أكبر من الساعات. وهذه الزيادة جاءت نتيجة لأسباب منوعة، بعضها صدفة وبعضها مقصود. وأهم هذه الأسباب هو استخدام الآلات وقيامها بالأعمال التي كان يقوم بها الرجال والنساء من قبل. وهكذا جاء الانقلاب الآلي على أثر الانقلاب الصناعي؛ فنحن اليوم نسافر ونصنع

ونزرع ونغزل ونخيط ونصبغ ونكتب بل نحسب أيضًا بوساطة الآلات؛ وجاء الفراغ إلى حدّ ما نتيجة غير منتظرة من نتائج هذا التغيير، وهو -كأشباهه من النتائج غير المقصودة- عرضة لأن يحقر بل أن يطرح جانبًا.

ليس هذا فحسب؛ ولكن في الوقت نفسه، ومن نواحٍ أخرى، بدأ الناس يطلبون -وهم بذلك شاعرون- نصيبًا أوفر من الفراغ: فالعمال الآن يُضرون طلبًا لساعات أقصر، والرأي العام يميل الآن إلى الفكرة القائلة بأن لكل شخص -عاملًا كان أو غير عامل- الحق في نصيب معقول من الفراغ، محتجًّا بأنه إذا توقف الشخص عن العمل فترات مناسبة يستأنف بعدها عمله، كان ذلك أدعى إلى تحسين إنتاجه. وعلى هذه النظرية يمكن أن يقال إن الفراغ إنما يوجد لأنه ضرورة من ضرورات العمل، على حين تجد آخرين ممن يشتغلون في أعمال غير لذيذة يدّعون أنهم إنما يعملون طلبًا للفراغ.

وهبنا مُنحنا الفراغ فماذا نحن صانعون به؟ أكبر ظني أننا مضيعوه. فالظاهر أن معظمنا يعتقد أن الوقت الوفر إنما يعتبر وفرًا لأننا نستطيع أن نوفره.

أترى إن أخذنا لذّاتنا بصورة جدية، شاغلين كل لحظة من لحظات فراغنا حيث تجيء، أفلا تكون النتيجة ضياع هذه اللذات! ألسنا نرحب بهذه الفترات الفارغة لمجرد أنها غير مملوءة؟ إنه لا شك -إذَنْ- في وجوب الاحتفاظ بهذه اللحظات للراحة، والاستجمام الهادئ! فلو أننا -مثلًا- لم نسترحْ في فراشنا، حيث نتيه في غيبوبة تامة ثماني ساعات

من كل أربع وعشرين ساعة لناءت أجسامنا وعقولنا وأعياها الكلال!

أنا مستعد الآن لأن أعترف بأن الجسم في حاجة إلى فترات نوم، ولكني لست مستعدًّا أن أستنتج من هذا أن العقل في حاجة إلى فترات إضافية من البطالة. فإن لدى بعض الناس صورة عن العقل كإناء مجوف يحتوي كمية محدودة من الطاقة العقلية، وهم يفترضون أن هذه الطاقة العقلية تأخذ في النفاد شيئًا فشيئًا أثناء قيام الشخص بالعمل، ولذا يجب في عرفهم أن يقف العقل عمله في فترات منظمة يزوَّد فيها من الطاقة زادًا جديدًا. قد يكون هذا صحيحًا على العموم من وجهة النشاط الجسمي، ولكن ليس هناك من الأدلة الكافية ما يحملنا على الاعتقاد بأن لدينا أيضًا مقدارًا من الطاقة النفسية يمكن أن يدخر ويستنفد ثم يملأ من جديد كما تملأ صفائح البترول.

ولقد أُجريت حديثًا بحوث مدهشة، تدل على أن الإعياء العقلي الحقيقي قلما يحدث، ونحن إذ نشكو إجهادًا عقليًّا فليس الذي أجهد أو استنفد هو طاقتنا، بل ميلنا، ولا نكون حينئذ في حالة إعياء بل حالة ملل. فقد يرجع أحدنا يومًا إلى المنزل معلنًا أن دماغه قد بَلِيَ من التعب، ولكنه لا يكاد يبدأ قراءة رواية بوليسية أو لعب شيء من الورق (البريدج) حتى يجد ذهنه على أتم ما يكون يقظة وحيوية. إنه لا شك في أن هناك نوعًا ما من التعب الحقيقي في معظم الحالات، ولكن ما تحسبه تعبًا عقليًّا، إذا حللته وجدته في الغالب تعبًا جثمانيًّا، يرجع من ناحية إلى تجمع السموم داخل الجسم، ومن ناحية أخرى إلى ما يصيب العضلات (لا الطاقة العقلية) من إعياء.

إني أعترف أن الكلل العقلي قد يكون عقوبة الإرهاق الزائد، ولكنه ليس نتيجة تعب عقلي أو إرهاق في المخ (كما يحسب الكثيرون)، بل هو إما نتيجة للمعيشة غير الصحية التي تترتب في العادة على العمل العقلي، وإما نتيجة قلق واضطراب فكر وشعور بخيبة، وهذا هو النوع الغالب؛ أي أنه بالاختصار نتيجة لأسباب وجدانية أكثر منها عقلية.

إذَنْ فالفكرة القديمة التي ترى أن المبرر الوحيد للفراغ هو أن يعطينا فترة راحة نسترد فيها نشاطنا العقلي، إنما هي فكرة مبنية على تشبيه خاطئ؛ فليس من اللازم أن تكون المسامحات خلوًّا من العمل، ولا أن تخصص نهاية كل أسبوع للنوم. إن أحسن طريقة للاستجمام ليست في الوقوف عن العمل، بل في تنويع العمل العقلي؛ وما العقل المستريح بتاتًا عن العمل بمستفيد، ولكنه معرض للضرر، فهو في الحقيقة أقرب إلى أن يصدأ منه إلى أن يستجم.

على أن الفراغ لم يتغير في مقداره فقط، بل في طبيعته أيضًا؛ فمخترعات العلم لم تقصر ساعات العمل فحسب، ولكنها أوجدت مصادر جديرة للتسلي في فترات الفراغ؛ فالعربة والسينما والحاكي والراديو كل أولئك وسائل للتسلية والتحرر من الجهد، لم يحلم بها آباؤنا وأجدادنا. ولقد أخذت الدولة –في طريقة مباشرة أو غير مباشرة– تساعد هذه الظاهرة؛ فلدينا الآن مكتبات عامة، وملاعب وحمامات عامة، ومعارض فنية، ومتاحف وفرق موسيقية، وهيئة للإذاعة قامت بتشريع من البرلمان؛ وكثير من الممالك الأوروبية بها مسارح ودور أوبرا تعضدها مالية الدولة. بهذا أصبح الفراغ أكثر من مجرد فترة جوفاء

بين مسافتين من العمل، وصارت جهودنا في طلب اللذة أشد وأكثر جلبة وتنوعًا، وأهدى سبيلًا في بعض نواحيها.

ما أثر هذا التغيير المزدوج إذَنْ؟ لقد تميزت المدنيات الراقية دائمًا بمنتجات فراغها، أكثر مما تميزت بمنتجات عملها. فهل هناك أي أمل في أن نصل في هذا العصر الديموقراطي من طريق الفراغ إلى مثل الثقافة الراقية التي وصلت إليها طبقات الفراغ المترفة في بلاد اليونان وفلورنسا وفرنسا؟

لنبدأ نحن علماء النفس فنبحث كيفية صرف الرجال والنساء الآن أوقات راحتهم؟ ما الذي يدفعهم إلى اختيار هذه المتعة أو تلك؟ إذا مضينا في بحث كهذا فقد نستطيع أن نتنبأ بالنتائج التي سيتمخض عنها هذا الانقلاب في طرائق حياتنا، وأن نعرف نوع الرجال والنساء الذين تخلقهم الظروف الجديدة لا في العمل فحسب ولكن في الفراغ أيضًا.

ما أعظمها من فائدة لو أننا استطعنا أن نقوم بإحصاء لأنواع ما يشتغل به الناس في ساعات فراغهم، على مثال إحصاء الأعمال التي تعتبر –رسميًّا– أعمال «كسب». ليس هناك من شك في أننا سنجد بعض الشواغل –إلى حد ما– تدخل تحت النوعين معًا؛ فما هو عمل عند فرد ما، قد يكون هواية عند آخر. وإنك لتجد أحيانًا أن ما يشتغل به بعض الناس في مسامحاتهم وفي أمسيتهم ليس إلا استمرارًا لما تفرضه عليهم تجارتهم أو مهنتهم. اقرأ حياة أي عصامي مشهور مثل «إديسون» أو «لنكون» أو «فورد» تجد أن هذا هو عين ما شغل به فترات الفراغ، وبذلك ترك الكسالى من ورائه، ووصل إلى قمة النجاح والمجد. على

أنك لو نظرت إلى شخص أقل من هؤلاء طموحًا وجدت أحب شواغل الفراغ إليه في الغالب ما كان مخالفًا لنوع عمله، لا ما كان استمرارًا له، ووجدت اختياره عبارة عن رد فعل يطلب فيه مهربًا من الحياة اليومية القاسية. فهو في ساعات راحته يجري وراء إشباع بعض قدراته الإنسانية التي لا يشبعها أثناء عمله في مكتبه أو مصنعه. وحيث يكون عمله ثقيلًا شاقًّا على جسمه غير شاغل لعقله، تجده يملأ لحظاته الحرة بوسائل من التسلية، ويشتري صندوقًا من السجائر لنفسه وآخر من الحلوى لرفيقه، ويستعد للاستمتاع بما يعرض عليه من أحداث مفاجئة ومغامرات تروع القلوب والألباب.

في الولايات المتحدة يذهب ١٢٠ مليونًا من الناس إلى دور الصور المتحركة كل أسبوع، ويصرف الجمهور الأمريكي من دخله السنوي ١٣٪ على الطُّباق، و ١١٪ على الحلوى، و١٠٪ على السينما، و٨٪ على الألعاب الرياضية (ويدخل في ذلك رحلات النزهة في السيارات)، و٥٠٪ على ما يسمونه المشروبات غير المسكرة، و٣٪ على الراديو، و١/ ٢٪ فقط على الكتب.

فما تأثير كل تلك المستحدثات على العالم الجديد؟ لنبدأ فنبحث أولًا آثارها في مختلف طبقات الهيئة الاجتماعية. إن أظهر أثر لها من تلك الناحية هو محو الفروق بين الطبقات؛ فوسائل التسلية التي كانت وقفًا على الأغنياء أصبح الآن أنواع رخيصة منها في متناول الطبقات الوسطى والفقيرة، حتى لقد صار عامل اليوم في الواقع يحظى من الألعاب ووسائل اللهو بأكثر مما كان يتمتع به الغني منذ قرنين. وهو

وإن كان استعماله لوقته خشنًا وغير مهذب، إلا أنه آخذ في الحرص على وقت فراغه وفي الإصرار عليه. وهو يطلب من المسامحات مثل ما يتمتع به صاحب العمل الذي يوظفه.

ولكن هناك نتائج أخرى لا تقل عن هذه وضوحًا: فلقد زادت سرعة السفر، وأصبح الكثير منه ميسورًا في ساعات من الفراغ قليلة، والمسافة التي كان الشريف يقطعها على ظهر جواده في يوم، أصبحت اليوم تقطع في أقل من ستين دقيقة في سيارات الأسفار الكبيرة. وقد نتج عن هذا أن كثر ذهاب الرجال والنساء من كل طبقة إلى الريف، ومشيهم في مناكب الأرض -على نمط السياح الأمريكيين؛ وهم في تجوالهم هذا يختلطون بالطبقات الموسرة على قدم المساواة؛ فكاتب المصرف يسافر إلى مكان عمله أو يذهب لمشاهدة الألعاب الرياضية مع البارون جنبًا إلى جنب، والفتاة العاملة في أحد المتاجر ترتدي ثيابها المسائية وتذهب بقطار تحت الأرض إلى المطاعم الفخمة في قلب لندن. وهكذا يستطيع الفقير أن يراقب الغني، وأن ينتقد الغني، وأن يقلد الغني. وهكذا أصبحت الملابس والآداب والعادات -في كل بلد وفي كل قطر متمدين- سائرة إلى التوحيد.

ولقد زاد ظهور السينما والراديو في هذا الأثر: فذو الكوخ الحقير يملك الآن جهازًا لا سلكيًّا لسماع الإذاعة، وأفقر الأسر تزور دار الصور المتحركة مرة كل أسبوع، وهم يرون على شاشة الخيالة سلوك الأغنياء (أو على الأقل كما يبدو ذلك السلوك لفن مخرج هوليود -أو كما يظن ذلك المخرج أن هذا هو السلوك الذي يتوقعه الجمهور). وبهذا

يتميز نموذج واحد غالبًا من التصرف، وتأخذ الفروق المحلية في الاضمحلال؛ وإن الراديو الآن لينقل موسيقى الرقص والأغاني والكلام الفصيح إلى أبعد الأكواخ، فلم يعد أسلوب النطق في مدرسة ما من المدارس العامة لهجة غير مفهومة للجماهير، ولم يعد يرى الناس فيها مجرد حذلقة وادعاء.

ليست الفوارق بين الطبقات فحسب آخذة في التلاشي، بل إن الفوارق بين الريف والحضر سائرة إلى هذه الغاية؛ فقد اضمحل أو كاد ذلك الفارق بين حياة القرى وحياة المدن، وقد اقتربت المدن من القرى والقرى من المدن، وليس في إنجلترا الآن من قرية صغيرة إلا بجانبها مدينة أو بلد ذو سوق، أو بندر كبير يمكن الوصول إليه بسكة الحديد أو بالسيارات العامة. تصور الحياة الريفية في قرية صغيرة في إنجلترا في أحد الأمسيات الشتوية منذ قرن أو قرنين من الزمان: أما الرجال فربما مشوا إلى حانوت القرية، وأما سائر الأسرة فقد تجمعوا في حجرة صغيرة مملوءة بالدخان تضيئها شمعة ذابلة أو فتيلة مصباح صغير، لا يستطيعون قراءة أو كتابة، ولا يجدون ما يتحدثون عنه إلا النزر اليسير. وإذا طالت عليهم أسابيع الملل لم يجدوا ما يسلون به الوقت إلا البحث عن العفاريت في ضوء الشفق. وكان الناس طوال القرن التاسع عشر يهجرون القرى إلى المدن جريًا وراء التسلية والابتهاج. أما الآن فقد انعكست الآية إذ انتشرت مستحدثات المدن في القرى، فأصبحت كل بقعة من الريف ضاحية لأقرب مدينة إليها. وإنك لتستطيع الآن أن تسمع حيثما كنت في أبعد الأماكن أحدث الروايات

وأحدث الأخبار والألحان الموسيقية، على اللا سلكي أو على شاشة الخيالة. والرجل الذي يعمل في مدينة ليدز أو ليفربول أو لندن يستطيع أن يعيش خارج البقعة الصناعية، وأن يسافر إلى مقر عمله جيئة وذهابًا بالترام أو القطار؛ وإذا اضطر أن يعيش بجوار عمله استطاع أن ينجو من الدخان والضوضاء بالخروج فترات محدودة في نهاية كل أسبوع للعب «الجولف» أو التجول على القدم إلى مسافات بعيدة.

إن النتائج المباشرة لكل هذا ظاهرة الوضوح: عقل أكثر حيوية عند الريفي، وجسم أصح لسكان المدن. ليس هذا فقط، بل إن العالم كله أخذ يتقارب بعضه من بعض من غير نظر إلى بيئة خاصة: فالغني والفقير والمتعلم وغير المتعلم والمدني والقروي كل أولئك يتقاسمون الآن لذات واحدة، يلهون بنفس الملاهي، وتجدّ لهم تبعًا لذلك أفكار ومعضلات مشتركة، فإذا تقابلوا فهِم كل منهم لهجة الآخر، لا بل اطمأن إلى وجهة نظره. وعلى هذا فقد بدأت تظهر روح جديدة من الأخوة. وإذا أراد العامل الآن أن يستعمل وقت فراغه في أغراض سياسية كان أكثر فهمًا لما يفعل، وأقدر على إفهام الآخرين؛ وإذا ارتقى ابنه في المنزلة الاجتماعية إلى درجة أعلى لم تكن الحياة جديدة غريبة عليه غرابة تُحرجه، فإن آداب السلوك اليوم آداب مجتمع قائم على المساواة؛ والاختلاط الاجتماعي قد صار في كل نواحيه أسهل وأحفل، وأكثر حرية، وأقل تعرضًا لأن تكدر صفوه التقاليد الضيقة والتحفظ وسوء الظن المتبادل.

ثانيًا– لنبحث الآن هذه التغيرات في الجنسين: لقد فتحت الآلة

الكاتبة والتليفون وكل الظروف الجديدة الصناعية والتجارية أبوابًا جديدة للنساء، وأعطتهن استقلالًا، وجعلت لهن إيرادًا خاصًّا. فالمرأة اليوم تغادر المنزل إلى مكان العمل، وهي بالضرورة تريد أن تغادر المنزل أيضًا بحثًا عن اللذة.

وليست المرأة التي تعمل خارج المنزل هي التي انتفعت وحدها بهذا التغير، فلقد كانت جداتنا يشكون من أن عمل المرأة لا ينتهي، وكان أزواجهن يجيبون بأن مكان المرأة هو المنزل. أما اليوم فقد قللت المخترعات الحديثة العمل في البيت كما قللته في المصنع؛ فالكهرباء تدفئ حجراتنا وتنيرها، وتطبخ غذاءنا، وتدير لنا المصاعد وآلات التنظيف. وقد قلّ عدد الأطفال وأصبح شراء الغذاء الجاهز المحفوظ في العلب أرخص من ذي قبل. فالزوجة أو الأم قد أصبح لديها –إذَنْ– بعد الحرب العظمى (الأولى) وقت أوسع، ولديها من الفراغ ما يعادل نصيب زوجها أو أخيها، وهي تطالب بقسط مساوٍ لهما من الحرية في استعمال ذلك الفراغ.

ما النتيجة الحتم لكل هذا؟ أولًا –مساواة بين الجنسين آخذه في الازدياد؛ وثانيًا، اختلاط بين الجنسين أكثر حرية: فالشبان والفتيات يذهبون الآن أزواجًا إلى السينما أو إلى المراقص الرخيصة. وقد ساعد اختراع الأقمشة الخفيفة وما جلبته معها من تغير في ملابس الجنس اللطيف على أن يأخذ النساء والبنات بقسط لهن من الألعاب، وعلى أن يشاركن المتجولين في الريف في تجوالهم الطويل. ومن هنا قل الاختلاف في وجهات النظر العقلية بين الجنسين، وأصبح الأولاد

والبنات يعرف بعضهم عن بعض أكثر مما كان يعرف آباؤهم.

وهكذا أصبحت الحياة بين الجنسين وبين الطبقات الاجتماعية المختلفة سائرة إلى مستوى عام متشابه. غير أن هناك ظاهرة أخرى لعلنا نستطيع تمييزها: ذلك أنك تلمح في داخل كل جماعة -بالرغم من أن المستوى أصبح أكثر توحدًا- عددًا من الأنواع أكثر، فإن الجماعات المختلفة لا تكاد تشرع في الامتزاج حتى تأخذ عاداتها وقوانينها الأخلاقية في التضارب، ويبدأ يمحو بعضها بعضًا؛ فليست فتاة المصانع اليوم بمجبرة أن تلبس اللّفاع وأحذية الخشب، وليست المرأة اليوم من أي الطبقات بملزمة دائمًا أن تلبس الثوب النصفي، وأن تمتنع عن لبس السراويلات الطويلة أو القصيرة. وترى الناس في كل أنحاء العالم قد بدأوا يغيرون أفكارهم وعاداتهم بالسرعة التي يغيرون بها ملابسهم، فهم يجربون أطعمة جديدة، ويطيرون إلى أماكن جديدة، ويفتشون عن مصادر للّهو لم تطرق من قبل؛ وترى في كل ناحية عادات قديمة تُنزع، وميلًا قويًّا إلى تجربة كل جديد.

لقد بحثنا الآن أمر الرجال وأمر النساء، فما شأن الأطفال؟ يخيل إليَّ أن أهم تغيير ذي بال في توزيع الفراغ هو زيادة الفراغ المسموح به الآن للطفل؛ فكثير من الأمثال التي كانت عزيزة على جداتنا من مثل: «ينبغي للطفل أن يُرى ولا يُسمع» و«إن الإقلال من العصا مفسدة للطفل»، قد طوى زمانها، وقلَّ أن يتمثل بها اليوم أحد. والطفل الحديث في المدرسة وخارجها يشجع الآن على الاسترسال في حبه الطبيعي للنشاط الحر الطليق. وقد قل الآن تكليف الأطفال بالعمل خارج

ساعات الدرس، من مثل بيع الجرائد والاتجار في الطرقات وتوزيع اللبن في الصباح. وقد ذهبت الآن إلى غير رجعة، تلك الأيام التي كان يكلَّف فيها الأطفال تنظيف المداخن، أو يعملون كالرقيق في المصانع. وما ساحات اللعب الآن وميادينه –من ملاعب «كريكيت» في الحدائق العامة، ومن أرض مخصصة للألعاب الرياضية خارج المدن –وما الإجازات الريفية للأولاد والبنات بعد انتهاء الفصل الدراسي، ما هذه وسواها من المستحدثات إلا دلائل على أننا نقدر حق القدر استعمال الطفل حريته واستمتاعه بها. ولقد تغيرت التربية نفسها بعد إدخال ما يُسمَّى طريقة اللعب في حجر الدراسة.

غير أن المواد الدراسية التقليدية –مهما أُتقنت طريقة تعليمها– ليست كافية في إعداد الطفل لمستقبله في الحياة، بل ربما كان هذا الذي أُدخل على الحياة المدرسية مغريًا للشباب على استثقال العمل حين يفرض عليه، وعلى التسكع والبطالة بعد انتهائه. وإذا كان الواجب كما يخبرنا الثقات أن تكون التربية للحياة، فقد وجب أن تشمل هذه التربية إعدادًا للفراغ بجانب إعدادها للعمل. ولقد خطت المدرسة في هذه السبيل أولى الخطوات إذ أخذت على عاتقها مراقبة وقت اللعب كما تراقب ساعات العمل، وأصبحت الألعاب المنظمة الآن جزءًا ظاهرًا في نشاط كثير من المدارس الحديثة. أما خارج المدرسة فإن أهم حركة ذات مغزى هي حركة الكشافة والمرشدات، وتلك ظاهرة لا تمثل الطريقة الجديدة في استعمال الفراغ فحسب، بل تمثل وجهة النظر الجديدة نحوه أيضًا. ولقد تحول الشعار القديم في هدوء فأصبح الآن:

«العب أثناء العمل، واعمل أثناء اللعب» –وتلك قاعدة سيكولوجية صحيحة، جديرة أن يعمل بها الراشدون أيضًا.

ولكن العامل الذي كان له أكبر تأثير في وقت الفراغ عند الطفل هو السينما، فما هو مبلغ أثرها في هذا العقل النامي؟ أهي تشجع الحَدَث على تقليد الجرائم التي يشاهدها على الشاشة؟ أهي تقوده إلى أن يظن أن المثل الأعلى للعيش هو تلك الحياة المرحة المستهترة التي يحياها نجوم السينما في هوليود؟ أم هي تعطيه صورًا حقيقية لهذه الدنيا العريضة، وتساعده على أن يتعمق إدراك ما علم في المدرسة، وعلى أن يفهم ظروف الحياة حوله فهمًا واضحًا، وبذلك تُعده لأن يأخذ مكانه الحق في الحياة رجلًا تام النمو؟

هذه الأسئلة وأشباهها ليست إلَّا جزءًا من معضلة أكبر يمكن تصويرها في السؤال الآتي: ما الذي يدفعنا جميعًا، رجالًا ونساء وأطفالًا إلى صرف أوقات فراغنا في هذا النشاط الذي يبدو عديم الجدوى؟ ليس هناك من حيوان آخر في الوجود كله يبذل مثل هذا المجهود وتلك الطاقة في عمليات مثل هذه غير ضرورية. فما الباعث على هذا؟ نحن في العادة ننسب هذا إلى البحث عن اللذة؛ ولكن هذه سيكولوجيا خاطئة فالذي تجدُّ في طلبه هذه المخلوقات ليس اللذة بل هزة الاستثارة، وليس السعادة بل نشوة الطرب.

إن الاستثارة لسهلة، وسبيلها تنبيه الغرائز الفطرية التي كانت تُشبع تمام الإشباع في الأزمنة الوحشية الأولى، في الجهاد اليومي للبقاء، من تصيد للطعام ومقاتلة للعدو وضرب في الأرض بحثًا عن المراعي

الخصبة. ولولا هذه الميول الفطرية ما عاش الإنسان ولا قبيلته. أما الآن -في حياة الجماعة المتمدينة- في المصنع أو المتجر أو المكتب، فلا حاجة إلى عمل هذه الغرائز؛ ومع ذلك فنحن لا نزال نتوارثها، ولا سبيل إلى محوها وستظل أقوى العناصر وأعمقها في تركيبنا العقلي، ومن هنا وجب أن يوجد لها منفذ في الفراغ واللعب.

وقد أصبح القيام على هذه الغرائز وإشباعها من أربح التجارات في الحياة الحاضرة، فلا شهوة تُهمل ولا ميل يُتجاهل: الحانوت والمطعم يستغلان حاجات الظمأ والجوع، ويحولانها إلى ضروب من تمضية الوقت؛ وصالة الموسيقى والمرقص والرواية الرخيصة كلها تحاول من طريق خفي أن تنبه الغريزة العامة -غريزة الجنس؛ كما أن المصارعة وكرة القدم والكريكت وسائر الألعاب التي تحتوي منافسة ومباراة إنما تنبعث في الغالب من غريزة العدوان؛ وغريزة حب الظهور تجد إشباعها في الملابس؛ أما غريزتا الاستطلاع والتجول فإنهما تجعلان منا جوّالين نضرب في الأرض ونملأ أعيننا من كل ما يصادفنا؛ وغريزة القطيع تدفع بنا زرافات إلى مشاهدات المباريات والسباق وما شابههما، أو على الأقل تجعلنا نذرع الشوارع المضاءة جيئة وذهابًا؛ والقمار والرهان وكسب جوائز الصحف كلها تتوقف على الاستثارة الشديدة لغريزة التملك، وإلى ما في توقع إشباعها إشباعًا دسمًا سريعًا من لذة بالغة. وهناك أخيرًا أشرطة السينما وما لها من مستقبل أوسع مما لأي منبه آخر، إذ تزودنا بأحلام يقظة جاهزة، نستطيع بها -طول عصر يوم أو مسائه- أن نتخيل أنفسنا أبطالًا مغامرين، أو بطلات فاتنات، أو أمراء أو

من ذوي الملايين، أو نجومًا مسرحية -على حسب أجناسنا وأذواقنا.

يمكن أن نقول -إذَنْ- إن كل ما نشغل به أنفسنا وقت الفراغ يحقق -في طريقة مصطنعة خيالية في العادة- تلك الرغبات الفطرية التي تبقى في ساعات العمل غير مشبعة، بل إلى حد ما مكتومة. والواقع أن نظام الحياة الصناعية الرتيب الممل يثير -بطريق رد الفعل- رغبة مُلِحة في المؤثرات الحسية، وهذه الملذات البدنية إنما تخدم تلك الرغبة. فكأن الاستثارة الوجدانية -لا السرور- هي التي تهيئ للعامل المتعب أنجع علاج طبيعي وأسرعه.

تُرى إذَنْ ماذا سيكون التأثير النهائي -لهذا الظمأ الجديد إلى الاستثارة- على الجيل الناشئ؟ وإلى أين يقودنا؟ أليس سينشئ لنا صنفًا من الناس هازلًا، غير أهل لتحمل المسؤوليات، يحاول أن يغرق متاعب العمل -ويتناسى قرب الحرب العالمية المقبلة- في عاصفة من اللهو والمرح؟ ألم نفقد بهذا تلك الصبغة العقلية الجادة التي امتاز بها العصر الفكتوري؟ ألسنا بهذا نرجع القهقرى إلى نوع من الحياة أكثر خشونة وإمعانًا في وادي الغريزة والفطرة؟

أظن أننا في غير حاجة إلى أن نحكم على الجيل الناشئ بعد الحرب الماضية حكمًا قاسيًا؛ فلو أننا استطعنا أن نرجع الذاكرة إلى نحو مائة سنة مضت، ونستعرض أنواع النشاط الفراغي فيها، لوجدنا نفس الغرائز ممثلة في معظم تلك الأنواع، في شكل قد يكون أقل رقة وتهذيبًا من الوقت الحاضر. وإلا فهل يُعتبر سباق الكلاب أحط في التسلية من قتال الديكة وإرسال الكلاب على الدِّبَبَة؟ وهل السينما أكثر

من الحانة إضعافًا للأعصاب؟

على أنه ما دامت الغرائز موجودة، فقد يكون أفضل أن تجد لها منفذًا آمنًا، من أن تكبت كبتًا. أضف إلى ذلك أن هذه الغرائز –كما أسلفنا– يمكن أن تُدرَّبَ وتُعلَّى، وكل ما نحتاجه في هذا هو دراسة أحسن طريقة لاستعمال الفراغ؛ فمعظمنا فاشلون في فنّ الحياة لأننا تعوزنا المعرفة والمران؛ وليست اللذات الرفيعة إلا أذواقًا كونت ثم هُذبت، وما التمتع بالموسيقى أو الرسم أو الأدب –عند مَن يتمتعون به– إلا شيء قد جاءهم من طريق الصدفة السعيدة. ولكن لِمَ نترك ذلك للصدف؟ إن الجيل الناشئ يجب أن يُعلم كيف يستعمل ساعاته الحرة التي لا تفتأ تتزايد. خذ مثلًا غريزة الإنشاء أو التركيب: إن هناك قومًا يجعلون شغلهم الشاغل في أوقات فراغهم الاتجاه إلى الإنشاء أو التركيب أو كسب المهارة الضرورية، ولكن ما السر في قلة عددهم؟ إن اللذات الرفيعة –لو عرفنا– أعظم اللذات إرضاء، وأكثرها ثمرة، وكثير من الأعمال العظيمة التي خلفها لنا الماضي كانت نتيجة لبعض لحظات من الفراغ. بل إن كثيرًا من عظماء الكُتاب، وأكابر العلماء، ومشهوري الرسامين والموسيقيين، إنما أنجزوا الأشياء التي اشتهروا بها في أوقات فراغهم؛ فقد كان «كيتس» (الشاعر) مساعد صيدلي، وكان «لام» (الأديب) كاتبًا في دواوين الحكومة، وكان «ماثيو أرنولد» (الشاعر الناقد) مفتش مدارس. وقد نظر معظم هؤلاء إلى ما نُسميه نحن عملهم فرأوا فيه –لا عملًا– ولكن شاغلًا مفيدًا لساعات فراغهم. ولعلكم تذكرون كيف أُعجبت الملكة (فكتوريا) بكتاب (أَليسْ في بلاد

العجائب) حتى لقد بلغ من شغفها به أن طلبت نسخة من الكتاب التالي الذي أخرجه مؤلفه بعد ذلك. وما كان أشد ارتياعها حين جاءها الكتاب فإذا عنوانه: (الكتاب الخامس من إقليدس بالطريقة الجبرية)، ولم يكن قد خطر على بال الملكة من قبل أن كتاب (أَليسْ في بلاد العجائب) لم يكن إلا تسلية تسلى بها في مسامحته كأستاذ جامعي في إحدى كليات أكسفورد، كان عمله الرسمي أن يُحضر طلبة الجامعة لامتحان الدرجة في العلوم الرياضية.

هناك الآن علائم تدل على أن الجيل الجديد قد بدأ ينظر إلى الأمور نظرة جدية؛ ففي ألمانيا وفرنسا –وإلى درجة أقل في إنجلترا وأمريكا– بدأت تظهر حركات للشباب –غير مفروضة من الخارج بل ينظمها الشباب أنفسهم[١]. وهذه الحركات تختلف باختلاف الأحوال؛ فبعضها يرمي إلى الرجوع للطبيعة –إلى حياة أصح وأهدأ وأبعد عن ضوضاء المدنية– وبعضها يرمي إلى الإصلاح الاجتماعي. أضف إلى هذا أن ما يحدث في المدرسة عند بدء إدخال النظام الحر محتمل أن يحدث في الطبقات الحديثة التحرير، وأول مرحلة في هذا إباحة ثائرة، وفوضى لا ضابط لها؛ ثم يعقب ذلك بحث وراء أنواع من النشاط أكثر إرضاء للنفس. وإني أعرف شابًّا بَنَّاء، أمنيته الوحيدة أن يجيد كتابة اللغة الإنجليزية ليستطيع أن يؤلف رسالة من الطراز الأول على موضوع البناء باللَّبِن. وأعرف كذلك سائق سيارة أجرة، أكبر آماله أن يجيد العزف على

(١) كتبت هذه المقالات قبل الثورة النازية في ألمانيا، ولكن هذه الحركة تعتبر إلى حد ما جزءًا من رد الفعل الذي نتحدث عنه. (المؤلف).

جميع الآلات الموسيقية. أَنا بالطبع لا أتخذ هذين نموذجًا، ولكنهما يؤكدان لي أنهما يجدان من اللذة والارتياح في هذه الهوايات الجديدة أكثر مما يجدان في لعب الورق أو حل ألغاز الكلمات المتقاطعة.

وعندي أن التفكير السيكولوجي لهذين أصح من تفكير بعض الناس الذين يظنون أنهم يستطيعون الحصول على اللذة من غير عمل في سبيلها؛ اللهم إلا أن يغمضوا أعينهم ويفتحوا أفواههم وينتظروا السرور أن ينزل عليهم، شأنهم في ذلك شأن الطفل في حفلة من حفلات عيد الميلاد. إن مشاعرنا تسير حسب قانون متناقض في ظاهره، ينص على أن اللذة في نفسها أقل إرضاء لصاحبها من العمل اللذيذ؛ فالتهام اللذات يشبه في الواقع التهام خمر النبيذ أو البراندي، وشأن الاستثارة العقلية شأن «الكوكيل» والكوكايين –سرعان ما تنطفئ جذوته، ويترك وراءه من السآمة والملل أكثر مما أراد أن يطرد، ويدع صاحبه في حاجة إلى مقادير منه أقوى وأكبر، حتى يقضي من المتعة أربه.

إن اللذة في نفسها ليست هدفًا، ولكنها طريق مسدود من أحد نهايتيه؛ وأضمن وسيلة إلى السعادة ألا تتجه نحوها مباشرة، ولا يمكنك أن تشتري السرور بالجنيهات والشلنات والبنسات كما تشتري المثلجات أو تذكرة السفر إلى (مونت كارلو)، وإنما يفيض عليك ويغمرك دون أن تبحث عنه وتتوقعه، وأنت منغمس في عمل آخر. فابحث إِذَنْ عن شواغل للفراغ تدرُّ عليك مقدارًا متزايدًا –لا متناقصًا– من الرضى والارتياح، وإنك واجد هذه الشواغل في كسب مهارة أو بناء أثر خالد من آرائك ومن نشاطك. إن أعظم الشواغل إرضاء لصاحبها

هي تلك التي تقوده من انتصار ضئيل إلى آخر، دون أن تصل إلى نهاية لا يمكن تخطيها؛ وتَعلم لعبة ما أبلغ في جلب السرور من مجرد مراقبتها؛ ومحاولة تذوق أنواع جديدة من الجمال بهجة لا حد لها. وأحسن من هذا كله محاولة خلق أنواع جديدة من الجمال: غير أن كل هذا بالطبع يستلزم عملًا وجهدًا متواصلًا -(لا كسلًا وتراخيًا)- عملًا تأتيه مختارًا خارج دائرة عملك الرسمي الذي تكسب منه القوت، ولكنه ليس مجرد إجهاد، بل هو عمل يتفق وما تهفو إليه نفسك وتلذه.

وهكذا، على ممر الزمن، قد يكون القسط الذي يقوم به الفرد نحو ترقي نفسه، أو نحو حياة الجماعة، لا نتيجة ساعات عمله، ولكن نتيجة ساعات فراغه. وهكذا يتسع الفراغ فتختفي الحدود بينه وبين العمل أو تكاد. فمتى وصلنا -إذَنْ- إلى المثل الأعلى في هذا، فسنجد أنفسنا في الجنة التي وصفها الكاهن المجنون «تلك الجمهورية التي يكون فيها العمل لعبًا واللعب حياة: ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة».

* * *

الفصل الخامس عشر

سيكولوجية الفن

إن سيكولوجية الفن تحتوي معضلتين كبيرتين: خلق الجمال، والمتعة بالجمال، أو بعبارة أخرى –سيكولوجية الفنان وسيكولوجية المتفرج. فلنبدأ من هذين بموضوع الفنان.

–١–

أ– لقد وُصف الفن بأنه «أرقى مظهر للروح الإنساني»، ووصف الفنان نفسه بأنه عبقرية ملهمة مرسلة من السماء، وأن درجته من أفضل درجات البشر. ومن هنا كان السؤال الذي يواجه عالم النفس في مستهل بحث كهذا هو: هل الميل الفني ملكة فردية وموهبة خاصة؟ أم هو مجرّد ثمرة تفرعت من الخطوات العقلية العادية ونمت نموًّا طبيعيًّا، وأن شيئًا منه موجود عند كل رجل وكل امرأة، وأنه مما يدخل في حياتنا ومعاملاتنا اليومية؟ واجه العلماء هذه المعضلة بأن درسوا طرق الفنان وبواعثه، متبعين في هذه الدراسة مناهج البحث العلمي؛ فدرسوا حياة «جوته» و«زولا» و«بيرن» و«كيتس» و«فاجنر» و«بيتهوفن» و«ترنر»

و«ليناردو» وكثيرين غيرهم، ووازنوا بينهم، ولم يهملوا شيئًا مما يمكن أن يلقي ضوءًا على النمو العقلي عند هؤلاء الفنانين، وعلى النواحي الخاصة التي نبغوا فيها. ولم يكتفِ عالم النفس بهذا بل استدرج الشعراء والمصورين إلى معمله ليقيس درجة تأثرهم ويخبر قواهم العقلية. كل هذه النواحي من البحث أدت إلى نتيجة واحدة: ذلك أن الفنان –من حيث ذكائه العام– ومن حيث موهبته الخاصة –رجل مزوّد بهبات فطرية نادرة. غير أن الفرق فرق في الدرجة لا في النوع، فالمقدرة على خَلق العمل الفني –كالمقدرة على تذوقه– لا تتوقف على ملكة إضافية منعزلة عن مجرى حياتنا اليومية، وهي في درجاتها العليا ليست إلا إحدى ثمرات الحياة العقلية الطبيعية.

ب– وقد يسهل فهم هذه المعضلة إذا حاولنا أن نتعقب الفن إلى مصادره الأولى ونرى كيف نبع. وهنا يستطيع عالم النفس أن يستمد شيئًا كثيرًا من الضوء من سجلات المظاهر الفنية الأولى عند الإنسان المتوحش وعند الطفل.

ويرى بعض الباحثين أن الفن –أيًّا كانت مظاهره– ليس في أصله إلا نوعًا من اللعب؛ فالرجل الذي يصنع لحنًا، والرجل الذي يستمع إلى لحن، كلاهما يشتغل بنوع من اللعب، كلاهما يلعب بانفعالاته. فالانفعالات قد وهبت لنا –لا من أجل نفسها– ولكن لما تثيرنا إلى الوصول إليه من الآثار العملية. إن كل وجدان وكل فكرة تميل إلى أن تحقق نفسها في حدث ما؛ فأحيانًا يكون ذلك الحدث نافعًا فنسميه عملًا، وأحيانًا يبدو مجرد حدث زائد عن الحاجة فنسميه لعبًا. على

هذه القاعدة يمكننا أن نعتبر جولة من جولات كرة القدم إنتاجًا فنيًّا؛ أما الرقص فمنزلة بين المنزلتين، فالراقص في إحدى صالات بعد الحرب لا يدري أهو مشترك في شكل قديم من الفن أم في شكل حديث من اللعب.

ووجه الشبه بين الاثنين هو أن كُلًّا من الفن واللعب يبدو عديم النفع رغم كونه مثيرًا حافلًا بالهوى والانفعال. وهذا هو السر في أن الجدات في العصر الفكتوري (في إنجلترا) كن ينظرن بغير عين الرضى إلى الفنانين وإلى مظاهر التسلية؛ فاللعب ليس عملًا، ومن هنا اعتُبر مضيعة للوقت؛ والفن ليس شغلًا، ومن هنا نظر إليه بعين الاحتقار. ولهذا لن تجد –على ما أعتقد– عصرًا كذلك العصر، جمع بين النجاح والأخلاقية والدقة العلمية، وبين الدمامة البالغة.

إن حجج أهل ذلك العصر وجيهة ومعقولة إلى حد ما؛ فأنت في اللعب وفي الفن تهيج غرائزك وانفعالاتك، ولكن لغير ما هدف عملي ظاهر. ويتضح التماثل أكثر إذا درسنا طائفة من كليهما في تصرف الطفل النامي.

هب أن كلبًا ألزاسيًّا ضخمًا انطلق يعوي خلف بنتك الصغيرة؛ إنّ حجم ذلك الحيوان وعواءه الصاخب سيثيران عند الطفلة غريزة طبيعية هي الخوف؛ وذلك الخوف يتجلى (في طريقة آلية) في الهرب وصراخ الاستغاثة. وظاهر أن الحركة والصراخ كليهما هنا نافعان؛ لأنهما يعينان على النجاة من الخطر. ولكن هبك تظاهرت بإخافة بنتك بأن دفعتَ دُميتها نحو وجهها، فمن المحتمل جدًّا أن تسرّ الطفلة بهذه الجرعة

القليلة من الخوف، وكلما قرّبت الدمية منها صاحت في انزعاج لذيذ: مرة ثانية يا أبي! ومن الواضح في هذه الحالة أن كليكما يلعب بالخوف؛ إلا أن هذه الدراما التي اخترعناها ليست مجرد تمضية للوقت، فالطفلة في تجاربها اللاعبة إنما تمرن نفسها للحالات الهامة التي ستعرض لها بعد في الحياة، وتتعلم كيف تضبط انفعالاتها وكيف تستعملها. وهذا -كما رأينا في فصل سابق- هو السر في أن الطبيعة تشجعنا على أن نلعب.

غير أنه ليس من الضروري لهذه الطفلة -ماري- أن تعتمد في إثارة انفعالاتها على أبيها أو على حيوان يخيفها؛ فقد يؤثر فيها صحو النهار وإشراق الشمس فتشعر بقوة الحياة وبهجتها، وتبدأ تقفز أو تترنم لنفسها، وبهذه الطريقة تتخلص من نشاطها الزائد. وهي إذ تقوم بهذا إنما تشد من عضلاتها النحيفة وتزيد في سرورها واغتباطها. وهذا المدّ والجزر في أحاسيسها سينسج من حركاتها وأصواتها نموذجًا خاصًّا من حركة تعبيرية ومن رقص وغناء. وهكذا -في هذه الحركات والأصوات اللاعبة، التي تنبعث حرة مختارة- نرى الأشكال الأولى للفن.

هذا هو شأننا على الخصوص حيث لا تجد وجداناتنا المتوقدة عملًا جوهريًّا تشتغل به، فتراها تصرف نشاطها في تمارين تعبيرية من هذا النوع. وهذه هي الحالة الطبيعية عند الطفل الصغير حيث يقوم الآخرون على حاجاته، وحيث يجد نفسه حرًّا يلعب هنا وهناك. فلنعد مرة أخرى إلى مثالنا الأول، إن «ماري» -التي تحررت لحظة من الرقابة الأبوية، ثم رجعت تعدو إلى المنزل وهي تلهث من الخوف صائحة:

«أبتِ! أبتِ! اقفل الباب، إن كلبًا يتبعني»- لم تكن فيما تقول لاعبة، ولا مشغولة بمجهود فني، وإنما هي تقرر حقيقة وتبعث بصيحة استغاثة. غير أن مخاوفها تعود إليها في المساء حيث يحتويها مخدعها، وحيث تعرف أنها بمنأى عن الخطر، فتبدأ تقص مخاطراتها من جديد؛ وهذا القصص في الحقيقة يخدم غرضين: الأول أن يزيل ما بقي عندها من خوف وفزع، والثاني أن يعيد إليها ذلك التأثر، ولكن في جو آمن مريح فتسر وتتمتع به. هذا القصص -إذَنْ- يقرب كثيرًا في طبيعته من العمل الفني، وهو كما يقول ورد زورث: «التعبير عن الانفعال مستعادًا في هدوء»[١]. ولا يمضي طويل وقت حتى تظهر ميول نفسية أخرى عند هذه الطفلة وتنضم إلى الميل الأول. فمن ذلك غريزة إظهار النفس (حب الظهور، محاولة الفرد توجيه اهتمام الآخرين إلى أحواله)، والغريزة الاجتماعية (الرغبة في التعاطف -نزوع الفرد إلى إيصال تجاربه إلى الآخرين)، وغريزة البناء أو التركيب (التلذذ بتركيب شيء جديد أو إنشائه). فترى الطفلة -في طريقة لا شعورية غالبًا- تصقل حواشي مخاطرتها الفعلية فتقول: «لقد كان الكلب يقرب في عِظمه من الفيل»، و«كانت عيناه تبرقان كأنهما مصباحان». وربما كانت الحادثة كلها أحيانًا من اختراعها. إلا أنه سواء أكانت القصة حقيقية أم مجرد خيال، فإن الباعث عليها واحد، ذلك هو تصريف المقدار المتجمع من الخوف. فألفاظ الطفلة في هذه الحالة ليست طلبًا للنجدة ولكنها وسيلة

---

(١) هذه عبارة مشهورة للشاعر الإنجليزي الناقد «ورد زورث» ترد في معرض كلامه عن الشِّعر وطبيعته في المقدمة التي قدم بها لمقطوعاته الغنائية (**Iyrical Ballads**).

لتخفيف الضغط الانفعالي، في نوع من التعبير الخارجي. ووظيفتها -كما يخبرنا «أرسطو»- أن تطهر العقل من وجداناته المتعبة. ولو أن الطفلة لم تهز مخاوفها في طريقة كهذه لكان من المحتمل أن يضايقها في تلك الليلة كابوس ثقيل.

إن الفنان في صالته والشاعر أمام مكتبه لا يختلفان عن الطفل في منزل الطفولة، فكلاهما في إنشائه لفنه يُنفس عن وجدان زائد لم يجد إشباعًا كافيًا في عالم الواقع. وكذلك القارئ والمتفرج والسامع كلهم يُروح عن نفسه بمعونة ما عند الفنان من مهارة فائقة. فليس الفنان إذَنْ ولا الشاعر بمعنِيٍّ مباشرة بحقائق الحياة كما هي، ولا هو محاول رسم خطة لشيء نافع في الغد، ولا هو يحاول كذلك تسجيل حوادث اليوم. وهذا هو السر في أننا أحيانًا نُسمِّي العمل الفني عمل الخيال. وقد يكون أحسن أن نُعَرض أنفسنا لتناقض ظاهري فنسميه عمل اللعب.

جـ- ومع هذا فاللعب الفني -شأنه شأن كل أنواع اللعب- قد يؤدي خدمة غير مباشرة، فهو -من طريق خفي- ينبعث من الماضي، ويعبر عن رغبة مبهمة نحو المستقبل. وهو نوع من التعويض لشيء هفت إليه نفوسنا، ولكنها عجزت أن تُحصله. وهو يهيئ منفذًا لانفعالاتنا الهائجة، ويعيننا في الوقت نفسه على أن نضبط هذه الانفعالات وننظمها، وذلك بأن نستخدمها في أحوال خيالية. نحن الآن نعتقد -كما يعرف كل مدرس- أنه حتى ألعاب الأطفال تقوم بوظيفة أساسية في تربيتهم الوجدانية. والفن كذلك -سواء منه التعبير الفني عن النفس أو التذوق الفني- ينبغي أن يُعطى مكانًا ظاهرًا في منهاج المدرسة كوسيلة لتنمية

الميول الصحية وتهذيب الوجدانات الخشنة. أنا لا أقول إن هذا هو الباعث الوحيد على إدخال الفن، ولكني أقرر بكل ما أملك من قوة أنه من المهم سيكولوجيًّا أن نربي كل نواحي الإنسانية فينا –أن نربي حاسة الجمال مع حاسة الخير والصدق. وأنا أرى أن التربية الفنية –التي من شأنها أن تساعد في تكوين الخلق– متمم لا بد منه للتعليم المدرسي، الذي يغلب عليه في حالته الحاضرة أن يكون لغويًّا أو علميًّا أو عمليًّا.

فمن دراستنا للطفل –إذَنْ– نصل إلى النتيجة المثمرة التالية وهي: أن الفن في جميع مظاهره يرجع إلى بعض انفعالات قوية لم تجد لها منفذًا طبيعيًّا في حياتنا اليومية وضروراتها الحيوية أو العملية. وهذا يوصلنا إلى نقطة ثانية أسفرت عنها الدراسات الحديثة للإنسان الراشد المتمدين، تلك هي أن الفن في كثير من نواحيه ليس إلا تمنيًا أو تحقيقًا خياليًا لرغبة لم تحقق في الواقع؛ فمن أمثلة ذلك أنك تجد سكان لندن يعلقون على جدرانهم صورًا من رسم «كونستابل» أو «ليدر»؛ ذلك لأنهم إذ ينظرون إلى هذه الصور يستطيعون أن يقضوا بعض لحظات في جوار الريف. وما «جنة الحب» التي رسمها «روبان» ولا «جزيرة سيذرا» من رسم «واطو» ولا «الحجاج يؤمون إيطاليا» –حيث السماء «صافية الأديم» من رسم «ترنر» إلا دعوات يوجهونها إلينا لنشد رحالنا إلى الأرض التي تهفو إليها قلوبنا. إذَنْ نستطيع أن نصرح أن الصورة أو القصيدة أو الرواية ليست في الغالب إلا تحقيقًا لحلم من أحلام اليقظة نريه الآخرين، أو نصوره على صفحة من الورق أو القماش.

إن الدراسات التي قام بها علماء التحليل النفسي على الأحلام

وأحلام اليقظة قد ألقت جانبًا كبيرًا من الضوء على عمل العقل عند الفنان؛ فالعمل الإنشائي الذي يقوم به الفنان يكون في الغالب –مثل حلم اليقظة– نتيجة عملية لا شعورية، وما يبدو للعيان مجرد لمحة من الإلهام أو ميلًا إنشائيًّا فريدًا، إذا أنت فحصته بَدَا لك في طبيعته المعقدة منبعثًا من ميول عدة، تعمل عملها في الأعماق تحت سطح الشعور. هذه الميول تستمر في عملها اللا شعوري ما بقيت مكبوتة، وتبقى آثارها بسيطة وغير مفهومة ما بقيت مصادرها خفية. ولكن متى تحقق الناس أن العقل –حتى في مشكلاته العادية– يقوم بسلاسل من النشاط اللا شعوري، تكشفت لهم ألغاز الإنتاج الفني كل التكشف.

هذا –في الواقع– هو الشرح الذي يعطيك إياه الفنان؛ يقول «ستيفنسن»: إن الكاتب المنشئ العظيم يعرض علينا أحلام اليقظة –التي تجيش في أذهان الناس– في صورة محققة خالدة؛ وقد تكون حكاياته ممزوجة بشيء من حقائق الحياة، ولكن غرضها الحقيقي أن تشبع في القارئ عددًا لا يحصى من الرغبات والأهواء، وأن تخضع للقوانين التي تسير عليها أحلام اليقظة. «ويروي «ستيفنسن» في موضع آخر كيف بدأ هو يكتب تلك القطعة الفنية البديعة قصة (دكتور جيكل ومستر هَيد)، فهو يقول في وصفه لتلك العملية في الفصل الذي عقده «عن الأحلام»: «إن العمل الحقيقي يقوم به مساعد غير منظور أبقيه أنا داخل حجرة عليا مغلقة.. يقوم به أولئك الناس الصغار –في الدماغ– الذين ينجزون لي نصف عملي وأنا مستغرق في نومي، وربما أنجزوا النصف الباقي وأنا مستيقظ تمام اليقظة، حيث أظن أني أنا القائم بالعمل. وكثيرًا ما يعنُّ

لي أن أعتبر نفسي -(ما أُسميه أنا ذاتي الواعية، ذلك الرجل ذا القبعة والحذاءين، ذلك الرجل ذا الضمير وصاحب الحساب المتناقص في البنك)- كثيرًا ما يعنُّ لي أن أعتبره غير فنان بالمرة، بل مخلوقًا شأنه شأن بائع الجبن أو الجبن نفسه». هذه الصورة المستملحة تؤيدها إشارات من كتاب آخرين، فهذا فولتير -وقد جلس مرة في إحدى مقاصير المسرح يشهد تمثيل رواية من رواياته- يصيح متعجبًا: «أحقًّا أنا الذي كتبت ذلك!». وهذه «جورج إليوت» -التي لم تكن تميل بها فلسفتها إلى الاعتقاد في قوى نفسية غير طبيعية- تصرخ أن قد خيل إليها أثناء كتابتها (Adam Bede) «أن عقلًا آخر قد استحوذ على قلمها وسيّره». ويقال إن «كوليردج» نظم أشهر قصيدة له وهو تحت تأثير الأفيون، وأن «بليك» أعدّ هياكل أعظم صوره وهو في حالة نوم نشيط. ويزعم «جوته» أنه كتب أحسن رواية له وهو في غيبوبة حالمة يُشبّهها هو بحالة النائم الماشي.

وإذا أردنا دليلًا من الكتاب الأحياء، فهذا بروفيسور «هوسمان» يخبرنا عن الطريقة التي كتب بها قصائده إذ يقول: «أنا أظن أن إنتاج الشِّعر ليس عملية فاعلة (active) قَدْرَ ما هي قابلة (Passive) وغير اختيارية». وهو يشرح كيف هبط عليه الإلهام في كتابه (The Shropshire Lad) فيقول: «ربما شربت كأسًا من الجعة مع غذائي -والجعة مسكنة للعقل، وحالتي الذهنية على أقلها في أوقات بعد الظهيرة- ثم خرجت للمشي، وسرت وأنا لا أفكر في شيء خاص، فلا يلبث أن ينبثق في ذهني -انبثاقًا فجائيًّا مقرونًا بشيء من الانفعال لا

أعرف مأتاه- شيء من الشِّعر قد يكون بيتًا أو بيتين أو قطعة «**Stanza**» بتمامها، ويصحب ذلك -لا يسبقه- فكرة غامضة عن القصيدة كلها؛ ثم تعقب ذلك في العادة فترة ركود، وربما تفجر الينبوع مرة ثانية - وأقول تفجر لأن ما يصل إلى المخ يبدو كأنه صادر من الأعماق»؛ وهو يضيف إلى ذلك -في دعابة- أنه يظن أن مصدر ذلك الينبوع هو «جوف المعدة». كل هذا يتفق ودراسات المحلل النفسي. ولهذا لن نتردد في أن نقبل النتيجة الرئيسة التي وصل إليها التحليل النفسي وهي أن خير القصائد وخير الحكايات وخير الصور إنما هو إنتاج العقل الباطن. مثل هذا ربما حدا بالقارئ أن يظن أن هذه النتيجة ليست إلا تعبيرًا آخر عن الاعتقاد الذي شاع منذ القدم من أن العبقرية والجنون رضيعا لبان. وفي الحق أن هناك تشابهًا كبيرًا بين أوهام الرجل المجنون وبين الخيالات الهائجة التي يتكشف عنها عقل الفنان. غير أنه ليس معنى ذلك أن كل عبقرية جنون؛ وأنا أبعد ما أكون عن القول بأن الفنان ليس إلا حالم يقظة مضطرب الأعصاب.

إن الانفعالات في الأنواع الرفيعة من الفن تبدو غير شخصية وغير متحيزة. وليس كذلك شأن الأهواء الذاتية التي تبعث فينا أحلام اليقظة السقيمة، والتي تقوم عليها الأفلام الرائجة بين سواد الشعب، والروايات الرخيصة. وليس هناك من شك في أننا نستطيع أن نميز في الأعمال الفنية العظيمة انصرافًا ظاهرًا عن الحاجات العاجلة التي نجدها في أحلام اليقظة نصف الشعورية، غير أنه انصراف علت درجته وسما مجاله، ففي ركن من أركان الوجود تنجذب عين الفنان إلى ضوء أو لون راقص،

فترى في الأشياء وفي تواريخها وفي ذاتها ولِذاتها معنى أعمق، وهذا الاستغراق في تأمل المعاني العميقة للأشياء هو ما يجعل الفنان أحيانًا يبدو ذاهلًا شارد اللب مطلق العنان غارقًا في الأحلام والرؤى الأثيرية.

ومع ذلك فهذا المعنى العميق الذي يُتطلب لا لرغبات ذاتية، ولا جريًا وراء عملٍ ما، هو الذي يجدُّ في تحصيله الفن الرفيع؛ فالشجرة في نظر الفنان ليست مجرد قطعة من الخشب تقطع وتباع بثمن ما، وليس غروب الشمس مجرد ظاهرة كونية يُتنبأ منها عن حال الجو في غد، وإنما لكلٍّ منهما –وهو شيء منظور– قيمة في نفسه يحاول الفنان أن يظهرها ويؤكد معناها. وهو في سبيل ذلك ربما فعل بها ما فعلت «ماري» في قصتها عن الكلب، فغيّر فيها أو عدّل منها أو ألبسها صورة من عالم المثال؛ فتراه يُبَسط خطوط صورته ويظهر ظلالها ونواحي الاتساق فيها. وإذا سألته: لمَ فعل هذا؟ فقد يهز كتفيه قائلًا: إنه لا يعرف السبب. وربما حدثك في لغة متصوفة عن التجربة الذوقية التي حصّلها إذ أطل من نافذة مرسمه على أوراق الأشجار، وكيف حاول أن يرسم هذه التجربة على صفحة القماش. فصاحبنا –على عكس الرجل العملي– إنما يُعنى بالتأمل أكثر من عنايته بالمنفعة، وتهمه أنظمة خاصة من القِيَم.

ويمكن تتبع مثل هذا الباعث في الشِّعر، ولا سيما في المآسي العظيمة؛ فليس في المأساة تحقيق لرغبات خشنة متخيلة، وليس فيها خواتم سعيدة، ولا عدالة مثالية رخيصة لتُخفي الآلام الواقعية في الحياة. ولكنَّ في المأساة معنى عميقًا تشير إليه عن بعد، فموت «عطيل» وموت

«كورديليا» يخبرانا -في طريقة ما- أن الألم والخذلان ليسا نهائيين كما نظن، وأنهما لا ينتميان إلا إلى جزء صغير من الحقيقة نظنه نحن الحقيقة كلها خطأً؛ إنهما ينتميان إلى جزء فقط من كلٍّ أوسع لا يحيط به علمنا. فلو أننا استطعنا أن ننظر إلى تلك الحقائق المحزنة في ضوئها الحقيقي وفي ميدانها الواسع -وهذا هو ما يساعدنا الشاعر على إنجازه- لوجدنا لها شأنًا آخر؛ إنها بالضرورة لا تختفي، ولكنها تظهر في أشكال مغايرة مُصَفَّاة، فالهدف الذي ترمي إليه المأساة -إذَنْ- ليس أن تعوضنا عن مصاعب الحياة (كما تفعل أحلام اليقظة أو الروايات الرخيصة)، ولكن أن تكشف لنا عن شيء من سرِّ الحياة الخفيّ، وتساعدنا على الرضى به. وهذا هو السر في أن النهاية المحزنة لا تغمرنا -كما نتوقع- في حالة من الضيق العميق، بل على العكس -وهنا تناقض ظاهر- تثير فينا نوعًا من الغبطة الإنسانية العامة، نوعًا من الطرب الذي لا بد أن يكون الشاعر نفسه قد خبره في لحظة قوية من لحظات وجوده.

وليس من شأن عالم النفس أن يبحث هل هذا مجرد خداع أو حيلة يحتال بها على مشاعرنا كاتب قدير؟ فذلك أمر مردّه إلى الفيلسوف، أو مرده إلى المزاج والإيمان الشخصي لا إلى العلم. ولكن بحوث عالم النفس التي تقصر نفسها على الواقع لا تترك مجالًا للشك في أن الفنان الحقيقي -الفنان ذا الروح الحساسة والخيال الشعري- تمر به هزة روحية، لا صلة لها بما تقتضيه مطالب المعيشة المادية الصاخبة. وقد يعتبر الفنان هذه الهزة شيئًا جديرًا في ذاته أن يحصّل، أو قد يعتبرها رسولًا يحمل شعاعًا من النور من عالم القِيم النهائية -ومن مصدر ذي

شأن كبير في أعماق الحياة والوجود. ولكن مهما يحاول الفنان شرح أصل تلك الهزة فإنها هي التي يريد أن يعبر عنها في صورته أو قصيدته.

فالفن -بالاختصار إذَنْ- في أساسه -نوع من التعبير، وكل تعبير- في مخلوق اجتماعي كالإنسان -فهو في الوقت ذاته نوع من التبليغ. فما هو ذلك الذي يوصله أو يبلغه الفن؟ لقد لمحنا الجواب من قبل: إنه التجربة، فالفنان ينقل تجربته إلينا. ونحن بما نعيد خلق تلك التجربة كرة أخرى -بمساعدة الفنان- نحياها مرة ثانية لأنفسنا.. فعلى عالم النفس -إذَنْ- أن يتجه بعدما ما تقدم إلى دراسة تجربة السامع أو المتفرج: ماذا يشعر به عندما يتأمل العمل الفني؟ عندما ينظر إلى صورة (فينص) من عمل «بوتشيلي»، أو يستمع إلى ألحان «باخ» أو يقرأ روايات «شكسبير»؟ وهكذا نصل إلى ثانية المعضلتين الأساسيتين اللتين نصبنا أنفسنا لدراستهما، وهي سيكولوجية الاستمتاع الفني.

-٢-

إن أعظم التجارب المثمرة التي أُجريت على التذوق الفني قد اتبعت في إجرائها طريقة يُسمِّيها السيكولوجيون «طريقة الموازنة الثنائية»: ذلك أن تُوضع أمامك صورتان أو زهريتان أو قصيدتان يُطلب منك أن تقول أيهما تحب أكثر، وتذكر الأسباب التي حملتك على هذا الاختيار.

هذه التجربة تبدو بسيطة، ولكنها أدت إلى نتائج حافلة. ومن المستحيل في فصل قصير أن نلخص تلك البحوث الخصبة، إلا أنها

جميعًا تدل على أن موقفنا العقلي نحو الشيء الذي نعتبره جميلًا موقف في نهاية التعقيد، ويختلف باختلاف الأشخاص. أما أول بحث مهم من هذا الطراز في إنجلترا فقد كان ذلك الذي قام بها «بلو» (**Dr Bullough**) في معمل علم النفس بكمبردج، إذ بدأ أولًا بتجارب على الألوان البسيطة فوجد أن هناك أربع طرائق من الحكم الذوقي، وأن الأشخاص يمكن تقسيمهم حسب هذه الأنواع الأربعة الرئيسة. ومن المعلوم أن اللون الواحد لا يكوّن بمفرده عملًا فنيًّا، فهو ليس إلا عنصرًا في كلٍّ أكبر. غير أن تجارب متشابهة أجريت على مواد من طبائع مختلفة وعلى درجات من التعقيد أكثر كالأصوات والمقاطع الموسيقية والقصائد والألحان والصور. وقد كشفت النتائج على العموم عن أنواع وميول مشابهة لما ذكرنا:

أ- فأعم الأنواع يُسمَّى النوع الربطي (**Associative type**). ذلك أن التفضيل الذي يقوم به الشخص ينبني، لا على اللون أو الموسيقى أو الصورة نفسها، ولكن على ما تثيره فيه -من طريق تداعي المعاني- من ذكريات ومسرات غامضة تعيدها إلى عقله؛ فهذا الشخص يكره اللون الأحمر لأنه -كما يقول- «يذكِّره بالدم». وثان يفضل لونًا أخضر مصفرًّا باهتًا «لأنه يذكره أوراق الأشجار في الخريف»، وثالث يقرر أنه يحب فاصلًا موسيقيًا خاصًّا؛ «لأنه يشبه صوت العندليب في الربيع».

مثل هذه البواعث تبدو أغلب (على أي حال في شكل شعوري واضح) بين النساء منها بين الرجال، وتظهر بمنتهى البساطة في الملاحظات التي يبديها الأطفال؛ فقد حدثتني مرةً بنت صغيرة قائلة:

«إني أحب صورة (آدم وحواء) أكثر لأني أعرف الحكاية»، وقال أخوها الأصغر: «إني أحب صورة (فتوّة «رالي»)، لأنها عندنا في حجرة الأطفال»، على حين فضلت أمهما صورة (جبل القديس ميخائيل) St. Michael's Mount قائلة: «ذلك لأننا ذهبنا هناك في شهر العسل». وهكذا تثير الموسيقى عند بعض الأشخاص ذكرى منظر أو قصة عاطفية؛ فالمارش الجنازي –من تأليف «شوبان»– يجعلك ترى الموكب فتسمع أولًا رنين الأجراس، ثم تسمع وقع أقدام الجنود يتضاءل شيئًا فشيئًا على بعد المسافة.

أما الأثاث وموضوعات الفن الصناعي فإن أهم الأفكار الطبيعية التي ترتبط بها تدور حول الغرض من الشيء أو فائدته؛ فهنا يبني الكثيرون تفضيلهم –لا على الهيئة المنظورة– بل على توقع قيامها بوظيفتها خير قيام. فمن ذلك: الشخص الذي يقول في تفضيل أحد الكراسي – «إن الكرسي الأول أحسن لأن الجلوس عليه يكون مريحًا». حتى الألوان لها منافعها، فمن ذلك ما قالته إحدى النساء: «إني أحب ذلك الصبغ من اللون الأزرق لأنه يناسبني»– أو «لأنه يتفق ولون بشرتي». ولقد ذهب كثير من علماء النفس إلى حد التصريح بأن حاسة الجمال فينا لا تنبعث إلا من مثل هذه الروابط التي تلابس الأشياء السهلة أو السارة؛ فنحن نقول الخدود الحمراء جميلة، لأنها دليل الصحة، ونحن نظن الأيدي الحمراء قبيحة لأنها تذكرنا العمل الشاق، أو طست الغسيل!

ومن الحق أن نقرر هنا أن كثيرًا من النجاح الذي يحرزه الفنان يتوقف على مهارته في إثارة روابط في أذهان الآخرين، وفي تنبيه أصداء

وصور ومشاعر تتفق وصوره ومشاعره هو إلى حدٍّ ما. وأكثر ما يكون ذلك وضوحًا في الأدب؛ على أن هنا تناقضًا ظاهريًّا، ذلك أن الكاتب مضطر أن يبني كتابه على محتويات أدمغتنا أكثر من اعتماده على محتويات دماغه هو؛ وما عقل القارئ إلا كصندوق الأصباغ للمؤلف. ولكن مثل ذلك يصدق على كل الفنون: فالموسيقِيّ المبدع قد يكون أصم -كبيتهوفن مثلًا- غير أن ذلك لا يضير، فالسيمفونية في الحقيقة تتألف من أصوات يسمعها الحاضرون، لا من الأصوات التي سمعها أو تخيلها المؤلف في الأصل فتلك ليست إلا هاديًا له. وإذا صح هذا في الأحاسيس الأولية فإنه يصح من باب أولى في المعاني والأحوال التي يقصد بتلك الأحاسيس إثارتها. فعملية التوصيل في الفن -إذَنْ- على عكس ما يُتوقع -عملية معقدة وغير مباشرة.

ب- إلى حدٍّ ما يمكنك أن تقول إننا جميعًا ننتمي إلى النوع الربطي. غير أن الروابط عند بعضنا تكون في الصف الأول، وعند آخرين تكون أقل وضوحًا، أو تأخذ شكلًا خاصًّا. ومن بين هؤلاء نستطيع أن نميز نوعًا ثانيًا صغيرًا يتألف من أولئك الذين يبنون تفضيلهم -لا على ذكريات أو أفكار ربطية- بل على أساس التأثير السيكولوجي الذي تحدثه الأصوات والألوان فيهم، ذلك التأثير الذي يصفونه في عبارات انفعالية وفيزيولوجية، فيقولون: «إن هذا اللون القرمزي دفيء» و«إن اللون الأصفر يبهر العين» و «اللون الأحمر يُشعر الإنسان بالحرارة من فرعه إلى قدمه». ويقولون في صورة «رفائيل» (العذراء والطفل): «ما أجملها من فتاة! وما أنضره من طفل!»، ويقولون في السيمفونية (.C

Minor): «إن هذا القرع على الباب ليدخل الرعب في قلبك». مثل هؤلاء يُسمَّون عادة النوع الفيزيولوجي أو الذاتي؛ وهم إنما يعجبون بالمقاطع الموسيقية والنغمات والصور أو يحبونها لأنها تهيج فيهم غرائزهم الحسية: فالطفل (Samuel)، و(سيكي) في حمامها، والطبيب بجوار الطفل المحتضر، وميدان المعركة، والعاصفة في البحر، وزواج a la mode (من تصوير هوجارت)، كل هذه تمسُّ في الإنسان انفعالات الأبوة أو الانفعالات الجنسية مسًّا رقيقًا، أو تثير فيه الميل إلى الضحك، أو الإحساس بالخوف، أو المشاركة الوجدانية. ومما يتكرر كثيرًا ذلك الإعجاب المتدفق بمهارة الفنان، من مثل قولهم: «إنها لتكاد تكون صورة شمسية»، «أليس الفرو أو الدرّ يبدوان حقيقيين!»، «إنك لتكاد تستطيع أكل هذه الأعناب». وهذه وما أشبهها تعتبر أحفل العبارات بالثناء.

إن الفن التجاري ليتجه –في الغالب– إلى إثارة هذه الانفعالات؛ فمنظر مدينة البندقية في إعلان سكك الحديد، والكنائس المجللة بالبَردَ على تذاكر عيد الميلاد، ومنظر الفتيات الناضرات على صناديق الشكولاته، كل هذه قد اختارها أرباب الإعلانات لما تثير من رغبات وجدانية، لا لخواص أصيلة في التصوير. وإذا لاحظت الأثمان التي تجلبها الأعمال الفنية وجدت صاحب الملايين –في الغالب– يدفع في الصورة العاطفية لعروس البحر، أو الطفل الساذج –من تصوير «جريتسه» (Greuze) أكثر مما يدفع في صورة شيخ عجوز أشيب اللحية من تصوير «ليوناردو» أو «رمبرانت».

وفي هذا الانفعال نجد مبادئ نظرية أخرى حديثة تذهب إلى أن الفن ليس مرتبطًا بالجمال، وإنما هو مرتبط بالتعبير عن الانفعالات. وأصحاب هذه النظرية لا يعنون بالانفعال مجرد رد فعل للجمال مفرد بسيط، بل يعنون به أي انفعال خاص يمكن أن يصدر عن الطبيعة الإنسانية، وليس هناك شك في أن كثيرًا مما يعتبر فنًّا ليس مرتبطًا في أساسه بالتعبير عن الإحساس الذوقي أو إثارته، بل بالتعبير عن الإحساس الغريزي وإثارته. وربما اعترفنا بأن الإحساس الذوقي نفسه مثل الإحساس المنطقي أو الخلقي. إنما تطور من الانفعالات البسيطة التي تصاحب الغرائز الأولية، وأنه لا يزال مختلطًا بها. ومع ذلك فالفرق بينهما يظل قائمًا؛ فالإحساس الذوقي إنما يرتبط بالقيمة التي تكون للشيء أو للتجربة في حد ذاتها. أما الإحساس الغريزي فإنه يرتبط بالقيمة التي تكون للشيء أو للتجربة في حياتنا الأرضية العملية. فوجهة نظرنا في الحالة الأولى ميتافيزيقية، وفي الثانية بيولوجية. وإذَنْ فهذه النظرية تبدو كأنها تنبهت لعامل سيكولوجي واحد من بين عوامل كثيرة، ومَن يدري فلعل ذلك هو العامل الظاهر في مزاج واضع النظرية نفسه.

جـ- وهناك نوع ثالث إذا أبدوا ملاحظاتهم على الفن نسبوا لكل ما يرون نوعًا من الشخصية، ويسمَّون النوع التشخيصي أو النوع الخلّقي «Character type». يقول أحد الأطفال: «ما أكثر ما يبدو هذا الإبريق سمينًا مرحًا! لكأنه يضحك عليك» وهؤلاء يتكلمون عن الألوان كأن لها صفات إنسانية فيقولون: «إن هذا اللون الأصفر عنيف»، «وهذا اللون الأرجواني صاخب لعوب»، «واللون الأحمر الفاتح حلو رقيق».

ويصف أحد الأشخاص لونًا بقوله: «إنه صُبغ من اللون الأزرق شديد الحياء». وشجرة الصفصاف عند أمثال هذه الطبائع الرومانسية ليست صفصافًا ولكنها عروس غابة باكية؛ والجدول ليس جدولًا ولكنه عروس ماء؛ ولقد يقولون إن البحر ليبدو غضبان، وإن المنظر ليبتسم، وخَط ما ليس عند هؤلاء خطًّا، ولكنه شيء حي له حركة من نفسه؛ وإذا فكروا في المنارات تصوروها سامقة إلى العلا في جلال؛ وهم يغتبطون برؤية طيور الماء طائرة لأنهم يستطيعون أن يحسوا في أنفسهم أحاسيس تدلِّيها الرشيق، أو توازنها الخفيف الرفيق؛ والظاهر أن هؤلاء تبدو لهم الأشياء الواقعة كأنها تتضمن تجربة شخصية يستطيعون هم أن يساهموا فيها بنوع من المشاركة الوجدانية الفعالة؛ فالخيال - «رافلًا في غبطة وجوده الخاص» -كما يقول (رسكن)- «يضع حركة في السحب، وبهجة في الأمواج، وأصواتًا في الصخور».

راقب جماعة من النظارة يشهدون حركة صعبة -يحدقون بأبصارهم في لاعب يتأرجح فوق الحواجز، أو إلى لاعب بلياردو يرسل كرة إلى الجيب- راقب النظارة تجدهم يمسكون بأنفاسهم، ويحركون أجسامهم كأن كل واحد منهم هو القافز نفسه يمرق نحو الحاجز، أو كأنه الكرة المتدحرجة نفسها تحاول أن تنعرج نحو الركن. وإذا عزفت موسيقى الرقص نغمة متساوقة تراهم قد اهتزت لها أكتافهم في حركة موحدة. وتراهم في دور السينما يقومون بحركة فزع إذ يبصرون الشخص الشرير في الرواية ينقضُّ بسوطه على البطلة، أو يعذب أخاها الصغير بحديدة محماة؛ وتسمعهم بعد الانتهاء يشرحون لك كيف خيِّل إليهم أنهم نُقلوا

إلى الشريط السينمائي وأحسوا آلام الضرب والحرق فوق جلودهم الرقيقة. وتراهم حتى في بسائط الأشياء تتكيف نفوسهم بما ينظرون إليه، فالخطّ الرأسيّ المستقيم يجعلهم يقفون وقفة مستقيمة، والخطّ المنحني يجعلهم ينحنون أو يحسون كأنهم على وشك الوقوع، وشكل الحلزونيات يخلق فيهم إحساسًا بالضَّعْف والغثيان، هذه التجربة -التي تزداد عند بعض الناس فتصل إلى حد المرض- مقصورة في الغالب على عدد محدود من الأشخاص، ولكنها قد قام على أساسها نظرية مهمة في الفن تسمى عندهم في الاصطلاح **Ein fuhlung** أو **Empathy** -(الاتحاد الفني)- ومعناها أن تحس نفسك في الصورة أو الموضوع (وهذا غير **Sympathy** -التي معناها أن تحسّ مع...، أو أن تحصل عندك مشاركة وجدانية). فعلى هذا الرأي يكون ما ينتقل إلى نفس من يشاهد العمل الفنيّ ليس تجربة الفنان فحسب، بل تجارب الموضوعات التي تُصورها ريشة الفنان، وهي بالطبع متخيَّلة.

(د) الفريق الأخير -وهو أندر الأنواع- موضوعي قطعًا، فأشخاص هذا الفريق يتخذون نحو الأشياء موقفًا ذهنيًّا نقديًّا أكثر منه انفعاليًّا، وهم يقفون أمام الأشياء الجميلة في صمت وإعجاب، على حين يُغرق غيرهم في إظهار الثناء والإعجاب؛ وهم إذا آثروا لونًا آثروه على أساس خاصيته باعتباره لونًا، لا على أساس ما يبعثه من روابط أو يحدثه من آثار. فهم يحبون زرقة اللازورد «لأنها صافية» وينفرون من لون «الكوبلت» لأنه لون معتم جدًّا. ويبدو -في أوضح الأمثلة- أن لديهم مقياسًا لما ينبغي أن يكون عليه كل لون، وأنهم يحكمون على كل صبغ

يعرض عليهم تبعًا لانطباقه على ذلك المعيار الضمني أو لتقصيره عنه؛ فتسمعهم يقولون: «هذا الأخضر كثير الصفرة إلى درجة تمنع أن يكون أخضر حسنًا»، «أنا أحب هذا الأحمر لأنه يبدو مشبَّعًا ومركزًا، أما الآخر فيكاد يكون أسمر»، وكثيرًا ما تراهم -في الصور- ينصرفون عن الموضوع والعنوان ويتحدثون عن النظام والتأليف والأصباغ، ونواحي الانسجام، والظل والنور. وهذا الفريق أقل الأنواع عددًا وأبعد دائمًا عن الرضى، وليس من الضروري أن يكونوا أصحاب أحسن ذوق جمالي، ولكن ملاحظاتهم تشير إلى قاعدة سيكولوجية واسعة: ذلك أن العقل الذوقي لا يبحث عن الجمال ويرتاح إليه فحسب، ولكنه يشقى أكثر من سواه لمنظر الدمامة الصريحة.

هذه إذَنْ الأنواع الأربعة التي انجلت عنها التجارب الأولى في هذه الناحية، ونستطيع أن نلخص كل نوع كما يلي؛ إن ملاحظات الأشخاص قد تدل على أن عنايتهم الرئيسة: (١) في الشيء الذي يعرض عليهم فعلًا (وهؤلاء هم الفريق الموضوعي)؛ (٢) أو ليست في الشيء المعروض ولكن في آثاره على أنفسهم (وهؤلاء هم الفريق الذاتي)؛ (٣) أو ليست في الشيء المعروض ولكن في الأشياء التي يثيرها ويعيدها إلى العقل (وهؤلاء هم الفريق الربطي)؛ (٤) أو في الشيء -لا مجرد شيء- ولكن باعتباره شخصية حيّة (وهؤلاء هم الفريق التشخيصي). أما التجارب المحدثة التي اعتمدت على مواد أكثر تعقيدًا فهي تُظهر أن هذه الأنواع ليست متمايزة تمامًا، وكل واحد من هذه الاتجاهات الأربعة -في الحقيقة- موجود فينا جميعًا حسب مزاجنا ونوع الشيء

المعروض علينا؛ فالفرق -إذَنْ- فرق صفة غالبة أو درجة، لا فرق أنواع أو طوائف منعزل بعضها عن بعض انعزالًا تامًّا. وليس هناك من شك في أننا سنضطر في النهاية إلى إعادة تنظيم التقسيم الأصلي قي قاعدته وفي تفاصيله. على أن هذا التقسيم في وضعه الحاضر يوضح -في بساطة وفائدة- طرائق البحث وأهم النتائج لهذا الاتجاه السيكولوجي.

-٣-

إن الثمرة الرئيسة لكل هذه البحوث هي نتيجة واحدة لا ريب فيها، تلك هي: أن غالبية الناس إذ يُطلب إليهم أن يحكموا على جمال شيء ما قلما يفكرون -في الواقع- في جماله مطلقًا، وأحكامهم التي تصدر عنهم ليست ذوقية ولكنها شخصية، ويبدو أن كثيرًا من العوامل التي لا شأن لها تؤثر فيهم. وإذا كنا هكذا متأثرين في حياتنا الشعورية بعوامل متنوعة، فما أعظم ما يستهدف له حكمنا من تحيز إذا أثرت فينا هذه العوامل تأثيرًا لا شعوريًّا!

على مثل هذه الأسس -في الغالب- بنى كثير من النقاد وعلماء النفس رأيهم في أن الجمال ذاتي محض، وأن التفضيل الفني ليس إلا مجرد ثمرة لذوق شخص خاص يختلف حسب اختلاف الفرد والعصر. فأزياء السنة الماضية تصبح شيئًا إدًّا في العام الحاضر، والكنائس القوطية التي بُنيت -في حماسة- أيام «رسكن» و«فكتوريا» تعتبر قذى في عين بعض الناس في هذه الأيام، وآباؤنا -الذين درجوا على أن يحسوا الراحة فوق الكراسي اليعقوبية وعلى أن يتناولوا غذاءهم فوق موائد الأرو- قد

يفزعون حين يدعوهم واحد من ناشئة الجيل الحاضر للجلوس على مقاعد من الصلب وتناول الطعام من لوحة مستديرة واسعة من الزجاج. إن الشهوات الذوقية تجيء وتذهب؛ وعند بعضهم أن كل شيء في الفن نسبي، فليس هناك شيء حسن أو قبيح، وإنما التفكير هو الذي يُحسِّن أو يُقبِّح.

ولكن هبنا طرحنا جانبًا هذه الروابط غير الأصيلة في الموضوع -من مثل الأزياء والأوهام واللوازم التي تجلب الغموض إلى حاسة الجمال عندنا؛ هبنا جردنا أنفسنا تمامًا من كل انفعال شخصي ومن كل مصلحة شخصية، ونفضنا أيدينا من كل شاغل عملي ومن كل شؤون ذهنية تستلزمها ضرورات الحياة اليومية من بيولوجية وعملية -فهل يبقى بعد ذلك أي أساس مكين لتفضيل شيء على آخر؟ وهل هناك أي شيء يمكن أن يجده كل شخص جميلًا في ذاته ولِذاته؟ وهل هناك أي شيء يمكن أن يجده كل شخص قبيحًا- لا فرق بيت متمدين أو متوحش، بالغ أو طفل «أثيني قديم» أو «لندني» من جيل ما بعد الحرب العظمى؟

أنا أعتقد أن هذا قد يكون، واعتقادي قائم على أسس من التجريب والنظر. ولقد قمت منذ سنوات مضت بتجربة قصدت منها إلى اختبار التفضيل الفني بين أنواع مختلفة من الناس؛ فجمعت مجموعة من خمسين بطاقة مصورة انتظمت نسخًا من صور مشاهير الأعلام الكلاسيكيين، وصورًا متوسطة -لرسامين ليسوا من الصَّف الأول- وهكذا من كل الأشكال والأنواع المتفاوتة إلى أبسط أنواع بطاقات

الميلاد التي استطعت العثور عليها في دكاكين الأحياء الفقيرة. كان الاختيار منصبًا على ترتيب البطاقات الخمسين حسب نظام التفضيل بينها. وقد قصدت أولًا إلى أن أحصل على معيار للموازنة؛ ذلك بأن عرضت المجموعة على فنانين وخبراء من نقاد الفن. فبدأوا كلهم -تقريبًا- يحتجون بأن مثل هذا المعيار مستحيل: عضو الأكاديمية الملكية يعلن أن رجل المدرسة الحديثة في الفن سيقلب ترتيبه رأسًا على عقب، وكلاهما يؤكد أن محاولة الاتفاق مقضي عليها. ومع ذلك فقد أدهشني أن ترتيبهما كان متطابقًا في معظم الأحوال. إذ بلغ معامل الارتباط تقريبًا ٠,٩، وكل ما هنالك أن عضو الأكاديمية -مثلًا- يضع منظرًا طبيعيًّا من تصوير «ليدر» قريبًا من القمة، على حين يضعه رجل المدرسة الحديثة في المرتبة العاشرة أو الخامسة عشرة، ولكن على أي حال أعلى بمراحل من الصور التجارية الفظيعة التي توجد في دكاكين الورق؛ وبعضهم يضع «رفائيل» أولا، والصور البدائية رابعًا أو خامسًا، على حين يضع آخرون البدائية أولًا؛ ولكنّ أحدًا منهم لم يبعد برفائيل كثيرًا إلى المراتب الدنيا. وقد بدا واضحًا للعيان أن فروق هؤلاء في ذوقهم وحكمهم أقل كثيرًا مما قد يتصوره المرء من خلافاتهم ومناقشاتهم الحادة. والنتيجة التي يجد الباحث نفسه مسوقًا إليها هي -باختصار- أن هناك شيئًا أساسيًّا يُسّير الاختيار العام عند هؤلاء الأشخاص، بالرغم من أن نظرياتهم ووجهات تفكيرهم الخاصة قد تحدث اختلافات صغيرة قليلة.

هذا -في الحقيقة- يتعارض وآراء معظم النقاد الحديثين، ولكن

يمكن اقتباس عدد من الآراء المشهورة التي تؤيد هذا الاتجاه. فلأقتبس هنا فقرة واحدة من «برك» (Burke)، وهي تحتوي نتيجة رائعة موضوعة في قالب رائع، وصل إليها من بحثه في (الفاخر والجميل). إن «برك» - بالرغم من اعترافه بأن أحكام الخبراء على الجمال تختلف كما تختلف أحكامهم على مسائل الفلسفة أو الفضيلة- يصر على القول «بأننا على العموم نلاحظ أن الخلاف الموجود بين الناس في مسائل الذوق أقل من خلافهم على المسائل التي تعتمد على المنطق المجرد، وإن الناس ليتفقون على جودة وصف في كتابة «فرجيل» أكثر مما يتفقون على صحة نظرية من نظريات «أرسطو» أو بطلانها».

وعندما تحولت من الكبار الخبراء إلى الصغار غير المدربين وعرضت عليهم الصور، ووجدت أثر العوامل غير الأساسية (الخارجة عن طبيعة الفن) أوضح وأقوى؛ إذ بدأ موضوع الصورة يلعب دورًا غاية في الأهمية، فالأولاد في سن العاشرة -مثلًا- يضعون صورة الحرس الراكب، أو منظر الواقعة البحرية، أو صورة القاطرة البخارية، قرب أعلى القائمة في الترتيب؛ على حين يضع البنات -في هذه السن- صورة القطة الصغيرة أو براعم الورد في أعلى القائمة. غير أن الموضوعات التي اخترتها كانت متنوعة إلى درجة أن تأثيرها الخاص -في مجموعة من خمسين صورة- وازن بعضه بعضًا. لهذا عمدت إلى حساب التلازم بين الترتيب الذي عمله كل طفل أجريت عليه التجربة، وبين متوسط الترتيب الذي استخلصته من النقاد الفنيين واعتبرته مقياسًا؛ وتوصلت بهذا إلى استخراج معامل الارتباط -أي درجة الذوق- وعلامته عند ذلك الطفل. وقد لاحظت أن ذلك العامل

يزداد -في الغالب- زيادة مضطردة مع زيادة سن الطفل. ولكن الكبار -إلا من توفر لديهم المران الفني الطويل، أو كانت لديهم موهبة خاصة من الحساسية الفنية أو التعلق بالفن- جاؤوا أقل من ذلك المستوى الحقيقي مراحل (إذا صح أن يُسمَّى المقياس الفني حقيقيًّا).

من هذه التجارب التي أجريتها على الأطفال تبرز نتيجتان ذواتا مغزى خاص: أولاهما أن معاملات الارتباط كانت كلها في الغالب موجبة، مما يبدو معه أن هناك عاملًا واحدًا عامًّا تقوم عليه الأحكام الفنية عند الجميع وتتأثر به. والثانية أن بعض صغار الأطفال -أولئك الذين دون الثامنة- قربوا جدًّا في ترتيبهم من ترتيب الفنان والناقد الفني. فلقد يبدو -إذَنْ- أن بصيرتنا الفنية تضمحل كلما كبرنا في السن، فنصبح أقصر نظرًا، وتفقد أعيننا براءتها الفطرية. إننا إذ ننمو نصبح أكثر تصنعًا، وأحرص على العمل المنتج، فتنفذ بأبصارنا إلى ما وراء الظواهر المنظورة، ونبحث عما انطوى تحتها من معان عملية.

هل أطلت النظر مرة إلى منظر بعيد، وقد حنيت رأسك بين ركبتيك في وضع معكوس؟ إنك إن فعلت عجبت من الألوان الفنية التي يعمى عنها النظر في وضعه المستقيم. إنك -وأنت في وضعك المستقيم- تتبين في الحال أين الدخان وأين التلال، وتعرف (أو تظن أنك تعرف) أن الدخان في الحقيقة أسود، ولهذا لا ترى الصبغ الأرجواني الرقيق، وتعرف (أو تظن أنك تعرف) أن تلك القمم الصخرية في الحقيقة رمادية، ولهذا تحرم رؤية ذلك اللون الأزرق اللطيف الذي يبسطه الندى والضباب فوق تلك القمم.

انظر إلى البحر من خلال نافذة مخدعك في السفينة تدهش لمنظر ذلك اللون الأخضر الأزرق العميق، ولو أنك نظرت إليه من فوق سطح السفينة لم يبدُ لك -كما قال أحد المسافرين: «إلا ماء- وماء قذرًا». وهكذا تقود المعرفة والتجربة إلى نوع من الفهم عادي، فنرى ما نعرف نحن أنه هناك -لا ما هو هناك ليرى، ونساق إلى أن نفكر في الحقول والأزهار والغابات- لا على أن لها قيمة لِذاتها وفي ذاتها -بل على أنها نافعة من وجهة الحياة- نافعة لحاجاتنا الأرضية المحدودة. فمثلنا في هذا مثل الولد «الكافري» (من قبائل الزولو) الذي التقط قطع الحصى ليحصب بها رفيقه، ولكنه أغفل أن يلاحظ أنها فصوص من الماس.

هذا المنظر غير الرومانسي ينمو معنا كلما تقدمت بنا السن؛ وكل تلميذ -تقريبًا- ينتهي من المدرسة أضعف في إحساسه الفني منه حين دخلها، والقليل الذي يبقى له تذهب به السنوات الأولى من حياة العمل الثقيل. فكل واحد منا يولد فنانًا صغيرًا، ولكن حاجاتنا العملية -مطالبنا ومشاغلنا وذكريات حياتنا اليومية- تغطي بسحبها بصيرتنا الأولى المنيرة.

ويبدو أن ما يحدث لتلميذ المدرسة حين تحتويه حياة الصناعة والتجارة قد حدث للشعب البريطاني عندما دخل المرحلة الصناعية والتجارية من حياته. لقد جاءت النتيجة عكس ما قصد منها، فالبضائع البريطانية الآن من القبح بحيث لا تجد لها سوقًا[1] -في الخارج على أي حال. إن صاحب المعمل، داخل الوطن، يلوم الذوق الفاسد عند

(١) هذا بالطبع ليس إلا أحد العوامل. ولكن راجع «تقرير عن الفن والصناعة» من وضع اللجنة التي ألفتها وزارة التجارة تحت رئاسة «**Lord Gorell**». (المؤلف).

المستهلك، على حين يصرح دعاة الجمال أن الشعب البريطاني كافة لا بد أن يكون مجردًا تمام التجريد من الحاسة الفنية. ولكن لن يستطيع أي عالم نفس أن يوافق على القول بأن الذوق الوطني الذي ازدهر في القرنين السابع عشر والثامن عشر يمكن أن يكون قد انعدم انعدامًا خلال القرن التاسع عشر، فالمقدرة أو الحساسية لا بد أن تكون باقية هناك مستكنة أو راقدة، وكل ما ينقصها أن تُنمّى أو تُنشأ.

إذا كان إحساس الجمال -إذَنْ- عامًّا، وإذا كان هذا الإحساس - رغم العوامل الأخرى- يحدث نفس التأثير فينا جميعًا، فإنه يلزم من ذلك أن الجمال نفسه ليس متوقفًا كل التوقف على المصلحة أو الهوى الشخصي، بل يبدو -في الواقع- أن الفيلسوف الحديث عائد إلى الرأي القديم الذي كان يقول إن الجمال موضوعي، أو -على الأقل- أن أحكام الجمال يمكن أن تَدَّعي -وهي مُحقة- أنها عامة الصدق. وأظن عالم النفس لا بد متفقًا مع هذا الرأي في النهاية. فنحن نرى الجمال لأنه هناك ليُرى، وليس الجمال شيئًا نخترعه أو نتصوره بأنفسنا؛ إنه شيء نُحسه ونجده، إنه -بالاختصار- يحل في الموضوع الجميل.

على أن هذا لم يكن الرأي المقبول بين النقاد والفلاسفة السابقين الذين كتبوا في الجمال، فإلى عهد قريب كان المنزع الحديث يميل إلى الجهة المعارضة -إلى اعتبار أن الجمال ليس صفة في الأشياء الخارجية، أشجارًا كانت أم أزهارًا، وقصائد أم صورًا[1]، وإنما هو أثر

---

(١) يحسن بالقارئ المعنى بهذا الموضوع أن يراجع بحث ريتشاردز (**I. A. Ritchards**) لهذه النقطة في كتابه (النقد العملي) ولا سيما صفحات ٣٥٨ وما بعدها. ويحسن أن يدرس آراء جروتشي **Groce** البعيدة الأثر، وما وجه إليها من نقد حديث. (المؤلف).

وقتي لحالة من حالات العقل. فكلمة Beautiful (جميل) مثل كلمة lovable (جدير بالحب) تستعمل لتصور صفة أو كيفية نخلعها نحن - في سذاجة- على الموضوع، وهي في الواقع إنما تقرر أثر الموضوع في أنفسنا. فالسكين ليست مؤلمة حتى توجع، وكذلك غروب الشمس لا يكون جميلًا حتى يحس شخص ما نشوة ذوقية عند النظر إليه. ويضيف أصحاب هذا الرأي إلى ما تقدم أن هذا هو السبب في اختلاف الأذواق، فحيث أرى جمالًا قد ترى أنت سوء تكوين، والسبب في ذلك أنني أحس انجذابًا نحو الشيء، على حين تحس أنت نفورًا وابتعادًا.

* * *

والحقيقة أن كل الحجج التي استعملت للبرهنة على أن الجمال ليس إلا حالة عقلية، يمكن أن تُستعمل -وقد استعملت فعلًا- للتدليل على أن العالم الخارجي كله (الموضوعات الطبيعية وخواصها المادية -اللون والصوت والذوق واللمس) أحوال للعقل ولا شيء وراء ذلك. ليس هذا فحسب ولكن اليقين الضروري نفسه - كصحة الاستدلال المنطقي أو صحة جدول الضرب -ليس على هذا الرأي إلا أثرًا ذاتيًّا لطرائقنا في التفكير. هذا اللون من النظر -إذَنْ- يُبالغ في البرهنة حتى ليبرهن على بطلان نفسه، فإن المجادل الذاتي إنما ينشر بمنشاره الغصن الذي هو جالس عليه. أما من حيث الحقيقة والخصائص المادية للأشياء فإن لدى علم النفس الآن جوابًا على درجة لا بأس بها من الإقناع. ويمكن استخدام الجواب نفسه فيما يتعلق بالجمال والخصائص الذوقية. ولن نستطيع أن نفصل هذا الجواب

هنا -لحاجته إلى شيء من التخصص[1] في البحث- ولكني أرى إمكان استخدامه هنا للبرهنة على استقلال هذه الخصائص فعلًا عن العقل، أو على الأقل لإظهار أننا لسنا ملزمين بضرورة قبول المذهب الذاتي المتطرف.

فلنجرِ -إذَنْ- على أن الجمال في الواقع موضوعي، فممَّ يتألف؟ ما هي بالضبط تلك الخاصة التي تمكننا حاسة الجمال من إدراكها؟ أين نضعها، أو تحت أي باب ندخلها بين الموضوعات الأخرى التي يحتويها عقلنا؟

أولًا -هناك شيء واضح: فمع أننا نتكلم عن حاسة الجمال، فالجمال ليس في الاصطلاح الدقيق حسًّا، إذ إننا لا ندركه من طريق عضو حسيّ مخصص لهذا الغرض كما خصصت العين للألوان والأذن للأصوات. كذلك تستطيع أن تقول إن الجمال ليس صورة ذهنية أو

---

(١) المسألة باختصار هي: يحتج الذاتي قائلا: إنني لا أستطيع أن أعرف وجود موضوع ما -كالمائدة مثلًا- إلا بإدراكه، وإذَنْ فليست المائدة في الواقع إلا واحدًا من مدركاتي، فالصلابة التي أحسها ليست صلابة الخشب، ولكنها أحاسيسي اللمسية.

والرد على هذا يكون بالتفرقة بين ما أدركه وعمل الإدراك نفسه، وبعبارة أخرى تمييز الإدراك -بمعنى الشيء المدرّك- من الإدراك -بمعنى عملية الإدراك. فالمائدة شيء مدرك ولا ينبغي أن تخلط بالوسائل الوقتية التي أستخدمها في إدراكها.

فالإدراك -وفي الواقع كل أنواع المعرفة- يجب أن يؤخذ باعتباره علاقة -علاقة بين عقلي والموضوع المستقل- علاقة خاصة متجددة، لا هي تنشئ ولا هي بالضرورة تغير الموضوع نفسه.

وما العلاقة الإدراكية إلا كعلاقة الزواج، فإذا تزوجتُ (س)، فذلك يجعلها زوجتي، ولكنه لا يجعلها المرأة التي هي ما هي. وإذا طلقتها فإنها تستمر في الوجود. وكذلك الحال إذا أدركت (س) فإن ذلك يجعلها موضوعًا لمعرفتي، ولكنها كانت هناك من قبل أن أراها. وستستمر في وجودها من بعد أن أغمض عيني. وبالطريقة نفسها تستطيع أن تقول: إن المائدة وصلابتها -وأنا أضيف المنظر وجماله- تستمر في وجودها حتى حين لا يكون هناك مَن يدركها. (المؤلف).

فكرة أو مجرد حزمة من الروابط. وتسميته شعورًا (أو إحساسًا) إنما يزيد المسألة غموضًا لغموض كلمة **feeling** -إحساس- وعدم تحديد معناها. فلنسأل إذَنْ ما الفُرص أو المناسبات التي ندرك فيها الجمال؟

إنما ينبعث الحس بالجمال عندما ننظر إلى موضوع مركب إلى درجة ما. فالحس البسيط لا يستطيع ولن يستطيع أن يبعث جمالًا. انظر إلى صفحة بيضاء من الورق، أو إلى حقل قد كساه برد الشتاء ثوبًا أبيض رقيقًا. إن مجرد البياض مهما كان صافيًا لا يمكن أن يكون جميلًا. إنه قد يبعث لذة كما تبعثها رائحة سويق البرقوق أو ذوق طبيخ اللحم الهشيم. إلا أن ومضة من اللذة ليست حسًّا بالجمال.

ولكن خذ قطعة من الورق وقسِّمها إلى مربعات وأشكال رباعية فإنك لا تلبث إلا ريثما ترى أن بعض الأشكال جميلة، وأن بعضها أجمل من بعض. اجمع كل الأظرف والأوراق وصفحات الكتب وبطاقات الزيارة التي يمكنك أن تعثر عليها، وسترى من السهل عليك أن تقرر أي الأشكال أكثر أناقة وأيها يبدو ثقيلًا أو مستكرهًا. لقد كانت هذه تجربة قام بها لأول مرة -منذ مائة سنة- الفيلسوف الألماني «فاجنر» (**Fechner**) الذي يُسمَّى أحيانًا أبا علم النفس التجريبي، فقد جاء بمستطيلات متنوعة الأبعاد، وعرضها على أشخاص كثيرين ثم أخذ منها ما فضّله المختبرون، وقاسه قياسًا دقيقًا.

وقد بدا إذ ذاك أن الفرق في الجمال يتوقف، إلى حد ما، على النسبة -النسبة بين الطول والعرض؛ وكانت هناك من بين النسب

نسبة تشرح الصدر دائمًا، وهي التي يحصل عليها مما يعرف «بالقطاع الذهبي» (Golden Cut)، وفي هذه الحالة تكون نسبة البعد القصير إلى البعد الطويل كنسبة الطويل إلى مجموع البعدين. وإن صفحة من ورق (الفولسكاب) -٨ بوصات × ١٣- لتوضح هذه النسبة توضيحًا يقرب أن يكون دقيقًا، فإن $\frac{٨}{١٣} = \frac{١٣}{٨ + ١٣}$، وفي الوضع الطبيعي للصليب في شكله المعهود تستطيع أن تتبين نفس النسبة. فجمال الشكل -إِذَنْ- يتوقف على علاقة، هي العلاقة بين الجانبين أو المقطعين الذين يكيفانه.

إنك -بالطبع- حين تميز عينك شكلًا أو منحنيًا رقيقًا لا تقوم بعملية حسابية ولا تقيس النسب قياسًا دقيقًا. وأنا في الواقع أشك في أن تكون النسبة -أو ينبغي أن تكون- على هذه الدقة الحسابية؛ وكل ما أذهب إليه هو أن هناك نوعًا من النسبة أو نوعًا من العلاقة، ففي كثير من الأحوال -إن لم يكن في شكلها- تبدو النسبة العددية المنطبقة على ضابط معروف آلية عديمة الحياة. وازنْ مثلًا بين قطاع من دائرة مضبوطة كالتي ترسمها بالفرجار، وبين التغيرات الرقيقة التي يحدثها غصن مياس من أغصان «الأناناس»، فالأولى ميتة، والثانية حية حياة طريفة. بل أي منحنًى رياضي يرسمه عالم الهندسة في دقة وحساب يمكن أن يوازن بالخطوط السريعة الشاملة التي تنثرها هنا وهناك -في حركة حرة جريئة- يد فنان دقيق الحس صناع؟ ليس هناك من شك في أن مثل هذه الخطوط لها نسب، ولكنها من الدقة بحيث تخفى علينا، وأن لها لانسجامًا ولكن انسجامها قائم على حركة لا شعورية حرة، ولا يمكن التعبير عنه في نظام من التحليل الجبري معروف.

لننتقل الآن إلى موضوعات أكثر تعقيدًا، ولننظر إن كانت القاعدة السابقة تصدق عليها. طُفْ في أنحاء لندن أو أي مدينة أخرى كبيرة، ثم اسأل نفسك: أي مبانيها أكثر جمالًا! إنها ليست المنازل التي طليت بأزهى الألوان أو أرقها، وليست الزخرفة مهما عظمت وثقل حملها بكافية في أن تخلع على البناء جمالًا، والرسوم البارزة والتماثيل العظيمة التي تعلو بناء الأوبرا في Kingswaity (ويعرفه معظم الناس الآن باسم Stoll Picture Palace) لا تحيل ذلك البناء الشاهق إلى عمل فني. استمر في طوافك فربما وقع اختيارك مثلًا على صالة الحفلات في Whitehall –حيث خطا «شارل الأول» من هناك خطواته الأخيرة إلى الموت؛ وربما وقع اختيارك على واحد من منازل الأطباء البسيطة بجوار Harley street، فأين يكون الجمال؟ إنه يجيء من نسب العرض للارتفاع، من الأشكال والحجوم المتناسبة في النوافذ والأبواب، ومن الطريقة التي تنظم بها تلك على واجهة البناء، يجيء من علاقات مشابهة كل الشبه لتلك التي تبيناها عندما نظرنا إلى صفحة الورق وإلى الصليب. والآن استمع إلى النظرية التي أوحت بمثل هذا البناء: «إن جمال أي بناء يتألف من نسبة مضبوطة –بين أجزائه بعضها وبعض– وبين الجزء والبناء كله، فإن البناء الجميل يجب أن يبدو جسمًا كاملًا تامًّا، يتناسب فيه كل عضو والعضو الآخر، وينسجم فيه العضو والجسم كله، حتى ليبدو وجود ذاك العضو حتمي الضرورة لوجود الجسم». هكذا كتب «بالاديو» في سنة ١٧٥٠. والمبدأ الذي قرره يمكن تطبيقه على كل عمل من أعمال الفن.

لقد أخذت إلى الآن أمثلة -بادية الوضوح. ولكن حتى في الأبنية لا تحتاج النسب إلى أن تكون في هذه البساطة وذلك الوضوح اللذين نراهما ماثلين في فن العصر الكلاسيكي أو عصر الإحياء. فإن كاتدرائية (سالزبري) أو كلية (مودلين) وبرجها لا تقل رقة وجمالًا. ولقد يبدو الفن هنا لأول نظرة أقل انتظامًا وإن بدا أكثر رواء، ومع ذلك فترتيبه مصدر جماله. وإنَّ كون هذا الترتيب لا شعوريًّا أو قريبًا من الصدفة والاتفاق ليستثير إدراكنا له ويزيده قوة. وكل ترتيب إنما يستلزم علاقة بين بعض الأجزاء وبعض، وبينها وبين الكل الشامل.

هناك ألفاظ كثيرة استُعملت لتدل على هذه الحقيقة الأساسية التي أقررها، ومن هذه كلمتا **balance** (توازن) و **harmony** (انسجام). ولكن هذه الكلمات لا توضح نفسها تمامًا؛ إن كلمة «توازن» تشير على العموم إلى مجرد تعادل، فأنت تعرف الطريقة التي ينظّم بها الناس الأشياء فوق المدفأة: الساعة في الوسط، يحفها من الجانبين زهريتان صينيتان، ثم صورتان في إطاريهما -كل واحدة في طرف. هنا تجد العلاقات ظاهرة ظهورًا مزعجًا، فهي ليست سارة ولكنها مؤلمة، والتوازن بهذا المعنى الحرفي خشن فضولي يفرض نفسه فرضًا. وتجد مثل هذا النقص في بعض الموسيقى والشِّعر والنثر حيث التأليف آلي مصنوع طبقًا للقاعدة. العب السلّم الموسيقى من C إلى C ثم العبه عودًا على بدء تجد اتزانًا كاملًا، ولكن لا يستطيع أحد أن يقول إن هنا لحنًا كاملًا. فالتوازن الحقيقي في الموسيقى -إذَنْ- لا يتألف من مجرد نصفين يكون كل منهما صدى للآخر، بل يجب أن يكون هناك طرافة

دائمة، ومع ذلك فالأجزاء الطريفة يجب أن تتناسب والأجزاء التليدة. أو تحول إن شئت إلى فواصل الأدب واقرأ:

«It is the landscape, not of dreams or of fancy, but

of places far withdrawn and hours selected

from a thousand with a miracle of finess».

هنا توازن موسيقي دقيق بين الجملتين اللتين يربطهما حرف العطف (and) وتوازن كذلك بين شبهي الجملة اللتين تتألف منهما كل من الجملتين. ولكنه توازن الشجرة الحية، أو العصفور في طيرانه، لا التوازن الميت الذي تلقاه في أرجوحة مثلًا. كذلك الحال في الشعر فإنك إن تُطع النبرات إطاعة عمياء لم تنتج إلا هراء شبيهًا بنظم تلاميذ المدارس يدق -كالساعة المعلقة- دقات رتيبة. ومع ذلك فإطاعة الوزن أساسية في تعريف الشِّعر، على شريطة أن تكون إطاعة حرة غير شعورية، لا خضوعًا شعوريًّا أو مفروضًا. إن القصيدة يجب أن تكون بحيث يحس قارئها أنه يمكنه تقطيع أبياتها إذا أراد، ولكن هذا التقطيع العروضي يجب ألا يطرق أذنه طرقًا عنيفًا، بل يجب أن يحسه هو ضمنًا كاللحن الخفيّ، من غير أن يعمد إليه ويتنبه له تنبهًا محدودًا. أما كيف يمكن ذلك فسترى بعد لحظات.

الآن نبدأ ندرك مكان الإدراك الذوقي بين الإدراكات الأخرى للعقل؛ فقد اهتدت السيكولوجيا -كما رأينا في أول هذا الكتاب- إلى أن العقل بجانب إدراكه الحسوس والمشاعر والانفعالات وما أشبهها لديه المقدرة على إدراك العلاقات. ونحن نعلم الآن أن إحساس الجمال

عندنا يتوقف في جوهره على إدراك الموضوعات أو الحسوس -من أشكال وألوان وأصوات- بل وحوادث وانفعالات -في علاقات معينة. والحسوس التي لا تسمح بعلاقات ألبتة -أو لا تسمح إلا بالقليل منها- كالشم والذوق مثلًا، تكاد لا تستطيع أن تكون أساسًا لتذوق فني، أو أن تكون موضوعًا لفن من الفنون.

وقد لاحظنا كذلك أن العلاقات نفسها يمكن أن يكون بين بعضها وبعض علاقات، وهذا هو ما يحصل بالضبط في العمل الفني، فإن نسيج العلاقات -التي هي نفسها متعلقات- يؤلف ما يمكن أن نسميه نموذجًا أو هيكلًا. والذي يُكون جوهر الجمال هو وجود هذا النموذج الهيكلي الضمني، أو إن شئت فقل وجود نوع من النظام أو الترتيب ليس سطحيًّا ولا دخيلًا ولكنه طبيعي حيّ كالخصائص التي تقرر نمو النبات.

فوظيفة العلاقات -إذَنْ- هي أن توجد الأجزاء وتجمعها في كتلة أو شيء واحد، وعلى هذا فالفكرة الرئيسة -في بناء أو تصوير أو تمثال ما- تقرر العلاقات العامة للأجزاء؛ وهذه العلاقات بدورها تقرر العلاقات الفرعية، وهكذا إلى القطعة الأخيرة من الإزميل، أو اللمسة النهائية من الفرشة إلى أن يصبح الكل وحدة عضوية حيّة.

لقد أدرك الكتاب السابقون هذه النقطة عندما تكلموا عن التنوع والوحدة واعتبروهما الشرطين الحتميين في الموضوع الجميل؛ فالموضوع يجب أن يؤلف كلًّا واحدًا، أي يجب أن يجري خلاله نوع من الوحدة، ومع ذلك فيجب أن يكون خلال هذه الوحدة تنويع في الأجزاء أو المراحل.

وعلى هذا فالخط المستقيم لا يمكن قط أن يكون بنفسه جميلًا، فله وحدة ولكن ليس به تنويع؛ والخطوط المتناثرة التي ترقمها يد طفل غير نجيب، مجردة كذلك من الجمال، فهي على تنويعها ليست لها وحدة.

وهناك تجارب تُقوي هذه النقطة الرئيسة؛ لقد كان السابقون من علماء النفس يقولون إن المنحنيات أجمل من الخطوط المستقيمة ذات الزوايا، أو النقوش المختلطة المرسومة بلا اكتراث؛ لأن المنحنيات تتطلب في إدراكها حركة سهلة على العين، وكان يقال إن خطوط التأليف في الصورة المحكمة الوضع تقود العين. أما الآن فقد صُورت حركات الأعين وهي تنظر إلى الخطوط أو الصور فوجد أن هذه الحركات نفسها قليلة الصلة أو عديمتها بالمنحنيات التي زعموا أنها تتبعها؛ وإنما تتعرج الحركات هنا وهناك، في حين أننا نكاد لا نشعر بالمرة بهذه الحركات التي تعملها حدقات أعيننا.

فالذي ثبت أنه مُهم كل الأهمية ليس حركة العين، ولكن حركة الانتباه، والانتباه في أساسه يتوقف على مقدرتنا على أن ندرك شتيتًا من العناصر مجموعة في نظام موحّد. وإنما يحب الشخص الصورة أو القصة أو اللحن حينما تكون هذه معقدة ومنوعة لدرجة يبقى بها الانتباه دائم النشاط، ولكنها مع ذلك يجب أن تبقى مظهرًا لوحدة قائمة، تستعين بها جهوده في الفهم الانتباهي، فلا تنهزم أمام التعقيد والتنويع. لهذا السبب تجد العقل البسيط يحب الأسجاع البسيطة، والأوزان البسيطة، والصور الظاهرة البسيطة، وتلك الطريقة المتعادلة البسيطة طريقة حشد أدوات الزينة فوق المدفأة. أما عند العقل اللّبق فلحن الأنشودة الدينية من

السهولة بمكان، والسيمفونية ليست كبيرة الصعوبة، وهو يفضل أوزان «شكسبير» الحرة المعقدة على أهاريج «لونجفلو» السهلة المرحة. وهو يحب من الرسوم ما قام هيكله على نظام مقرر، على شريطة ألا يكون ذلك الهيكل ظاهرًا ظهورًا ثقليًّا. وأن يجيء نتيجة الحس الخالق، لا متكلفًا طبقًا للقواعد التقليدية.

غير أن حركة الانتباه تحليلية، في حين أن وجود الجمال الحقيقي بطرق إحساسنا في لمحة الطرف. فهنا –كما ترى– لغز سيكولوجي آخر، هو: إذا كان حكمنا على صورة ما قائمًا على إدراكنا للكل، وهذا الإدراك تقتنصه العين المدرّبة في طرفة واحدة، فليس لدينا –إذن– الوقت الذي نلاحظ فيه الأجزاء، دع جانبًا كشف العلاقات!

إن المعضلة تحل على أساس حقيقة أخرى لا شك فيها، كشفها علم النفس الحديث وقد يكون فيها شيء من الغرابة؛ ذلك أن العقل يستطيع أن يدرك كلًّا معقدًا، في حركة واحدة من حركات الانتباه، وهذا شأنه على الدوام. وقد أصبح من الممكن في المعمل بالاستعانة بأجهزة ماهرة –أن يُقاس الزمن اللازم لالتقاط الفهم نموذجًا معقدًا –كلمة مثلًا كلفظة «برمنجهام»، والزمن اللازم لتعرف شيء أكثر بساطة –حرف واحد مثلًا كالحرف E أو O. وقد وجد أن الزمن في كلتا الحالتين تقريبًا وهو ١/ ٥ ثانية، وأنت في هذه اللحظة تتعرف الألفاظ والمعاني بنفس هذه الطريقة السريعة.

كانت النظرية القديمة أن الطفل يجب أن يبدأ بالحروف المنفصلة ثم يتدرج إلى جمعها معًا في النظام المناسب فيبدأ مثلًا بالحرفين ,f

a ويكون منهما f a ثم الحروف t, h, e, r فيكون منها ather وبعد ذلك يكوّن من الجميع father. أما الآن فكل معلم يعرف أن هذه ليست الطريقة الطبيعية لتعلم القراءة أو الكلام، وإنما الطبيعي أن يبدأ بالنموذج اللفظي الكامل. وكذلك الشأن في إدراك أي شيء، فلست تقول مثلًا: «إني أرى شعرًا أسمر وأسنانًا قادمة تحملها أربعة أرجل، وأرى ذنبًا في الطرف الآخر»، ولكنك تقول: «إني أرى كلبًا»؛ وعقلك -إذ يدرك الكلب- يلم إلمامًا شبه باطني بالأجزاء المتنوعة والطريقة التي تؤلف بيتها لتجعل منها شكلًا شبيهًا بالكلب.

وشبيه بهذا إدراكك الجمال، فعندما تستمع إلى لحن موسيقي، لا تستطيع أن تتريث حتى تدرس العلاقات بين كل صوت والذي بعده، ومع ذلك فهذه العلاقات نفسها هي التي تخلق اللحن وتخلق جماله. فأنت تفقه العلاقات -في طريقة لا شعورية- أو، كما أفضل أن أُسميها، في طريقة ضمنية، وبهذا تتعرف الطابع العام في كلٍّ محكم النظام ذي مغزى.

هنا يبدو أننا نصل إلى الفرق الجوهري بين الفكر المنطقي والإدراك الجمالي، بين النظر العقلي والذوق الفطري، بين تتبع مناقشة علمية واختطاف لمحة من الشيء الجميل. فأمامنا في كلّ من هذه نظام من العلاقات، وهذه العلاقات نفسها مترابطة بحيث يتألف منها كلٌّ منظم. ولكننا في الأول من كل زوج من الأزواج المذكورة نعمد بانتباهنا إلى العلاقات نفسها نأخذها واحدة بعد أخرى في نظامها المتعاقب، أما في الثاني فإننا نعمد بانتباهنا إلى النموذج العام نمسك به في ومضة واحدة.

وإذَنْ فقد يكون الموضوع واحدًا، ولكن طريقة الإبصار تختلف: فعالم النبات يفصل الزهرة قطعًا وأجزاء؛ ولكن الفنان يريك إياها زهرة حية. وعالم التشريح يشرح لك الجثة الميتة حتى عظامها المترابطة؛ وأما المثّال فيعطيك اللحم النابض محولًا إلى رخام فيه حياة. وعالم النفس يخبرك بكل ما هنالك عن التجربة الانفعالية؛ ولكن الشاعر يعينك على أن تحيا تلك التجربة –وعلى أن تستحوذ عليها وتجعلها ملكًا لك. فالعلم تحليلي والفن تركيبي؛ العلم صريح والفن ضمني؛ العلم مجرد والفن ملموس.

إننا الآن مندفعون اندفاعًا نحو تقرير أحكام عامة شاملة غير متحفظة. ولكن لنخاطر فنخط خطوة أخرى على سبيل المحاولة؛ يبدو أن علم النفس يزداد ميلًا إلى اعتبار العلاقات ذات وجود حقيقي؛ فهي هناك؟ حتى عندما نعجز عن ملاحظتها أو تحليلها، وهي موجودة وجودًا موضوعيًّا –أي أنها مستقلة عن وجود شخص يدركها. والواقع أن العلاقات مهما بدت مجردة وعزيزة المثال، فهي –في رأي الكثيرين– العناصر التي لا شك فيها في هذا العالم، والنقط التي لا يمكن أن يخامرنا فيها أدنى ريب. فنحن قد نختلف في وجود المادة، وقد نناقش، إمكان بقاء اللون أو الضوء أو الصوت؛ ولكن العلاقات بين هذه النواحي –أو بين الأشياء الخفية التي تمثلها– هي التي تكوّن أساس كل اعتقاد. خذ مثلًا بعض العلاقات الأكثر وضوحًا والتي يمكن العقل أن يدركها –كعلاقات المكان أو الزمان– إننا على يقين من أن هذه قائمة، سواء أدركناها أم لم ندركها، «فإدنبرة» باقية شمال «لندن» على حين

ينام كل مخلوق؛ و«ووترلو» تجيء بعد «هيستنجز» رغم أن الموقعتين حدثتا منذ زمان بعيد. وكذلك الحال في العلاقات المستخدمة في المنطق والعلم، كعلاقات «لأنّ» «وحينئذ»، و «من أجل هذا». وقضايا الحساب، من مثل ضعف ٢ = ٤، ومربع ٣ = ٩، تبقى صادقة سواء ألاحظت أنا صدقها أم لم ألاحظ. وإني لميال إلى القول بأن العلاقات الذوقية -كالعلاقات المنطقية- لها وجود موضوعي مستقل، فتمثال «فينوس» من عمل «ميلو» سيبقى أجمل من تمثال (الملكة فيكتوريا)، و«تاج محل» أجمل من نصب «ألبرت» التذكاري، حتى ولو مرّ مذنب فقتل بغازه كل رجل وامرأة في العالم.

وإذَنْ فنحن مسوقون إلى نتيجة بعيدة المدى: لقد يبدو أننا نستطيع بالبداءة الذوقية أن ندرك أنظمة من العلاقات شاملة؛ وهي من التعقيد بحيث لا تستطيع قوة العقل الإنساني المجرد -على ما أُوتيت من صبر وتحليل- أن تفرغ من تفصيلها إلى أجزائها؛ فمقطوعة «ورد زورث» في «قنطرة وستمنستر»، والجزء الأخير من أوبرا «ترستان»، ومجموعة التفاح من رسم «سيزان» -كل هذه تعطينا في خمس دقائق أكثر مما يستطيع الفيلسوف أن يشرحه في محاضرة تستغرق ٦٠ دقيقة. وقد يكون شرح الفيلسوف -على طوله- من التخصص بحيث لا يستطيع تتبعه إلا القليلون. وإذا كان ذلك كذلك فالفكرة الشائعة -من أن الجمال إنما ينشئه منشئه ويستمتع به مجرّبه لا لشيء إلا لأنه يعطي لذة- فكرة قائمة على سيكولوجيا خاطئة تمامًا. ولو صحت هذه لصح قياسًا عليها أن يقال إن برهان «أينشتاين» على النسبية إنما يوجد لأنه

يعطي لذة للمخترع والقارئ. فكما أن بحث الرياضي عن الحقيقة هو مثال سام من ذلك الحق الطبيعي لكل إنسان -وهو البحث عن الحقيقة، كذلك بحث الفنان عن الجمال ليس شهوة أو خيالًا لعبقرية ضالة، وإنما هو مثال خالص من موهبة هي في متناول الجميع- موهبة تمكّن الصغير وبطيء الفهم وغير المتعلم من إدراك القيم الإنسانية، أحسن مما يمكنهم الجدل المنطقي. ونحن كلنا أمام الوجود بطيئو الأفهام صغار غير متعلمين.

-٤-

والآن لنجمع معًا أهم النتائج التي أسفرت عنها هذه البحوث المتنوعة: إن سيكولوجية الفن تكشف لنا أن إدراك الجمال الفني عملية مختلطة عظيمة التعقيد. فأولًا، تثير الصورة أو العمل الفني -بالضرورة- مجموعة من الروابط الشعورية واللا شعورية وبذلك تنقل إلينا معنى. ثانيًا، يظفر الشخص بالمعنى لا في ضوء الفكر الهادئ ولا بالنظر إلى نتيجة عملية ولكن في حالة من الانفعال المعتدل؛ فالفنان يضمّن عمله تجربته الانفعالية ونحن من جانبنا نستجيب، وإذا تحققت هذه الاستجابة انقلبنا نحن فنانين. ثالثًا، الانفعال الذي يوصله العمل الفني هو انفعال إنساني، وعلى هذا فالصور -وحتى الموضوعات الطبيعية من مثل غروب شمس أو قمة جبل -ما دامت تؤخذ من وجهة كونها جميلة- تبدو كأنها تشير إشارة مبهمة إلى شخصية وراءها، وربما كانت هذه الإشارة مجرد وهم. رابعًا، تبين التجربة الانفعالية عن نفسها خلال الصورة التي يخلعها الفنان على المادة المحسوسة، خلال الوزن

أو النموذج، خلال نظام من العلاقات التي توحد المجموع. وإدراك النموذج أو النظام لا يكون في طريقة شعورية أو صريحة -فذلك ليس شأن الفن بل العلم- وإنما يكون في طريقة ضمنية أو لا شعورية، بوساطة ما يُسمَّى -تجوزًا- الذوق أو اللقانة الفطرية. والذي ينتج عن العملية كلها إنما هو قبس من اللذة الراقية التي يمكن أن يُشارَك فيها (لا اللذة البسيطة التي لا تقبل التوصيل والتي يكون مصدرها الذوق أو الشمّ أو الحسوس الجسمية). وتلك اللذة الراقية ليست عديمة الشبه بلذة اللعب، فالفن -من حيث أصله ومن حيث ما يبدو فيه من عدم نفع -تربطه باللعب وشائج كثيرة. وربما كان مبعث هذه اللذة أننا نجدد رغباتنا اللا شعورية محققة خياليًّا في العمل الفني، أو أنه -خلال الفن والتجربة الفنية -يبدو لنا أننا نكشف (في طريقة أسرع من العلم وآكد من الفلسفة) قيمة روحية في الوجود باعتباره وحدة، أو في أجزائه إذ يختارها الفنان، ويعيد خلقها، ويضمنها عمله الفني الذي نتفهمه ونتدبره. أما أي التفسيرين أصدق، فذلك سؤال عويص. والجواب عليه يتوقف في نهاية الأمر على أسس أخرى غير تلك التي يستطيع عالم النفس -بصفة كونه عالم نفس- أن يناقشها أو يجادل فيها.

* * *

الفصل السادس عشر

سيكولوجية الدين

إن علم النفس يجب أن يتضمن عرضًا لكل ناحية أو صورة يمكن أن يأخذها الشعور الإنساني، ومن هنا يقع الشعور الديني في ميدان البحث السيكولوجي. غير أن عالم النفس يدرس الدين لا ليكشف كونه حقًّا أو باطلًا، بل لمجرد أنه معنيٌّ برفاقه من البشر وبأعمال عقولهم. والباحث النفساني قد يكون له -بصفة كونه إنسانًا أو فيلسوفًا- دينه أو فلسفته الخاصة؛ ولكن ذلك لا ينبغي أن يكدر عليه نزاهته في دراسة شعائر الفرق الأخرى، أو عقائد الأجناس الأخرى؛ ولهذا يستوي عنده ضلال الوثني الذي يركع أمام الخشب والأحجار، ورؤى «دانتي» السامية عن الجحيم والمطهرة والنعيم. وهو يتصيد معلوماته من كل عصر وقطر؛ فسيدة «بوسطن» بروحانيتها وشطحاتها في وادي النجوم، ورجل الغابة الأسترالي يصيح حول حيوانه المقدس (طوطمه) الببغاء الأبيض، والسيناتور الروماني وهو يعبد زُمرًا من الأرباب والإلاهات، واليهودي، والمسيحي والمسلم عابدين إلهًا واحدًا -كل ذلك الحشد الزاخر بالعقائد والشعائر يمر أمامه كمجموعة من الحقائق تُلاحَظ وتوازن.

وأول مسألة يواجهها هي: كيف ينشأ الدين وكيف يتطور وينمو. فهو لهذا يحاول أن ينفذ إلى البواكير الأولى للدين، وهناك -في سلوك المتوحش الفطري وفي أوهام الطفل الصغير- يجد ما يشبه أن يكون مقدمة للعبادات الراقية عند الكبير المتحضر. وقد تقدم لمعونته أخيرًا في هذين الميدانين علما الأجناس، والتحليل النفسي.

لقد ظل الباحثون يفترضون أن التصورات الدينية الأولى عند المتوحشين نبتت من اعتقادهم في الأرواح، التي قد يُتخذ الكثير منها (أو واحد منها) آلهة تعبد. ونحن مدينون للعالم «تيلور» (E. B. Taylor) بلفظة أنيميزم (aninism) -ومعناها القول بحيوية الأشياء- وبالرأي المستحسن الذي تعبر عنه، وهو النظرية التي تذهب إلى أن الاعتقاد في الأرواح يعطينا أضيق تعريف ممكن للدين. هذه التصورات الدينية تكاد تبدو عامة في مراحل معينة من تطور الإنسان، ولكن من المعضل أن نقرر كيف بدأت أول ما بدأت. ولعلها نبعت في الغالب من الحقيقة المعروفة وهي أن المتوحشين -كالأطفال والعرافين- ذوو صور ذهنية بصرية واضحة؛ فهم كمثل «هاملت» يرون صورًا غريبة «بأعين عقولهم». ولما لم تكن لديهم كلمة سيكولوجية مناسبة تصف مثل هذه الصور الذهنية، تحدثوا عنها كأنها أطياف. ففي الغابة أو بين القبور -حيث يخيم الظلام فيمنع رؤية الأشياء- يرى الفطري في خياله أولئك الذين غابوا عنه أو ماتوا؛ ويخيّل إليه أن أصدقاءه يجيئون لزيارته وهو نائم ليلًا. حتى إذا صحا وفكر في تلك الرؤى الغريبة بدأ يملأ الدنيا بأطياف وأشباح رقيقة ضعيفة شبه شفافة، وكذلك شأن الصور

الذهنية في العادة. وليست هذه الأشباح في الحقيقة إلا إبرازًا (أو عكسًا) للكائنات الوهمية التي يراها في أحلام نومه ويقظته.

غير أن اطراد الدراسة قد بيّن أن الاعتقاد الواضح في القُوى أو المؤثرات الشخصية إنما هو تطور متأخر نسبيًّا؛ فإن «سير جيمس فريزر» –وقد قَبِل رأي «تيلور» في الدين بالمعنى الضيق –قد فرق تفريقًا بيّنًا بين الدين والسحر؛ إذ يقول: «إن عصر السحر قد سبق عصر الدين في كل مكان». وهو يعتبر السحر نوعًا من العلم البدائي، فالساحر –سائرًا على ضوابط تقليدية متوارثة– يحاول أن يثير الريح بالصفير، أو أن يجلب المطر بأن يلوّح بفرع نخل قد غمس في ماء حار؛ فهو إلى هذه المرحلة لم يبتهل إلى قوة عالية تتدخل بالنيابة عن الإنسان، وليس هناك إلا ثقة ساذجة في العِلّية الآلية المباشرة. إن غلطة الساحر هي أنه يختار العلة الخطأ، فهو يفضّل أن يفترض أن الشبيه يحدث الشبيه على أن يبحث عن القوانين الخفية للطبيعة، في دراسة للحقائق هادئة صبور.

ولكن «فريزر» –مثل «تيلور» يعامل العملية كلها في عقل الهمجي كأنما هي نظر عقلي هادئ مرسوم. وظاهر أن هذه المعاملة خطأ سيكولوجي؛ فالهمجي ليس عالِمًا صغيرًا، وليس كهنوتيًّا ناشئًا؛ إنه ليس مفكرًا منطقيًّا واضحًا، ولكنه شخص غِرٌّ سريع التأثر، حريص على أن يَخبر ما حوله. ودينه –كما تقول دكتورة «مارِت»: «ليس شيئًا يفكّر فيه، ولكن يرقصه». فالاعتقادات الصريحة –عنده كما عند سائر الناس– تجيء متأخرة دائمًا. إن الوعي يشمل الإحساس والعمل كما يشمل الملاحظة والاستنتاج. وفي العادة تندفع الأحاسيس والأعمال إلى الظهور أولًا، أما

الاعتقادات فإنها تنبعث متأخرة لتبرر هذه الأحاسيس والأعمال وتفسرها.

فأول شكل من أشكال الدين -إذَنْ- يجب أن يُتطّلب في الإحساس الديني أكثر مما يتطلب في المذاهب الدينية. إن الدين مدين بميلاده -كما يظهر- إلى بعض غرائز غامضة (ولكنها عامة يشترك فيها الجنس البشري كله)، هي غرائز الخوف والعَجَب والخضوع والإعجاب (بشيء خارج)، أي ما يصح أن نُسميه في كلمة واحدة «الوَرَع» أو «التُّقى». فهذا المعنى -معنى الشيء الرائع- يغمرنا قبل أن نُكوّن لأنفسنا رأيًا واضحًا عما فوق الإنسان أو فوق الطبيعة بأمد طويل. فعندما تهب العاصفة على قرية «كافرية» (من قرى الزولو) يهرع السكان إلى الخارج ويصيحون في وجهها، ولا تبدو صيحاتهم أكثر من صيحات فزع وضيق. أما (الفيجيون) فيخبرونك أن الإعصار «من صنع رجل كبير يعيش في الغابات» -وإذ قتلت البطة المقدسة (فإن الرجل الكبير يغضب ويهيج عاصفة -ضارة- وعندئذ «يسقط المطر وينزل البرّد وتهب الريح، وينفخ هو نفخًا شديدًا، والطريقة الوحيدة لتسكين العاصفة أن تصيح في وجهها وتقذفها بالحجارة. هنا ترى كيف يحس الهمجي أولًا بالفزع من شيء يفجؤه في صورة خطرة أو عادية، ثم يقوده فزعه بعد ذلك إلى أن يحيك نظرية حول الشيء الذي أخافه. وطريقة تفكيره تجعله يعتبر الجو الرديء من عمل كائن مثل نفسه، ولهذا يحاول أن يخيف ذلك الكائن أو الرجل الكبير الذي يهدده أو يتقرب إليه زلفى. وبالتدريج تحل الصلوات محل نفثات السحر.

هناك أنواع كثيرة من الأشياء تؤثر في انفعالاتنا -في طريقة غير مفهومة على ما يظهر، فالرعد والبرق والأجساد الميتة والدم، كل

هذا رائع مخيف. وإذ إن مجرد رؤية هذه الأشياء أو التفكير فيها يحزن الهمجي، فإنه يتوهم أن لها نوعًا من القوة الخفية. وقد اضطره هذا إلى أن يضع كلمة اصطلاحية يعبر بها عن هذه القوة كما تبدو لعقله البسيط. والتعبير المريح الذي يستعمل بكثرة بين سكان جزائر المحيط الهادئ هو «مانا» -هذه الكلمة تشير إلى قوة نفسية لا قوة مادية- تشير إلى خاصية إثارة الانفعالات العميقة، ومن عناصرها الشدة والحيوية والنفوذ والتأثير السحري والقداسة الممجدة وكل ما هو منذر ومخيف. وقد تحل في الأسد الحيّ، أو الجسم الميت، أو عاصفة من الرعد، أو رئيس من رؤساء القبيلة أو ساحر أو سلاح أو خمر. وهي غامضة ومعجزة معًا، قدسية، ولا قدسية، هي مقدسة sacred بالمعنى المزدوج لتلك الكلمة الإفرنكية القديمة، أي أنها موضع التقديس والتحريم معًا.

والهمجي -إذ يؤمن بهذه القوة- قد يحاول في حذر أن يحصلها لنفسه؛ فقد يشرب دم الجاموسة، أو يأكل لحم العدو رجاء أن يحصل على ما بهذه أو ذاك من «مانا» فيرهبه رفاقه، أو أعداؤه؛ وشبيه بذلك ما يعتقده الكثيرون الآن من أن بلع خلاصة اللحم البقري يورث آكله نشاط الثور. وعندما قتلت قبائل أشانتي (ashantees) «سير تشارلز ماكارثي» اجتمع رؤساء الجيش من آكلي لحوم البشر وقطعوا قلبه أجزاء وأكلوه في صمت وجلال تبعًا لعادتهم القبلية. مثل هذه الشعائر والمناسك -من تضحية الأضحية وأكلها أحيانًا، و«شرب ماء الحياة» وتجرع كأس العظمة- تلعب دورًا كبيرًا في الديانات الفطرية، وتتحول

الشعائر في النهاية إلى طقوس، إلى نوع من الحفلات الرمزية؛ ثم تنمو المذاهب المختلفة بعدُ لتفسر الطقوس.

لقد يبدو غريبًا -أول الأمر- أن نجد في الديانات الراقية في هذه الأيام أنواعًا من العادات والمعتقدات مستمرة في وجودها، على ما هو ظاهر من أنها من بقايا العصر الهمجي أو عصر ما قبل التاريخ. وتعليل هذا أن انفعالاتنا الموروثة لم تتغير ذرة واحدة عما كانت عليه عندما فارقنا عهد البربرية، فلا تزال تنبعث فينا الرهبة والروعة، تبعثها نفس الموضوعات والحوادث، من الدم والمرض والخطيئة وأزمات الحياة ومصائبها والميلاد والزواج والموت المفاجئ والقوى الغامضة التي يبدو أن لها أصبعًا في كل ما يحل بنا.

وعندما نتحول من الهمجي إلى الطفل نجد نفس الانفعالات على الدوام منبعثة؛ فالطفل الصغير يحس رهبة مشابهة نحو أبيه وأمه، وموقف الطفل نحو أبيه -كما يبيّن التحليل النفسي- يشبه موقف الكبير من ربه، وهكذا يتصور الهمجي ذلك «الرجل الكبير» الذي يعبده، على صورة الوالد الكبير. أضف إلى ذلك أننا حين ندرس الحياة الأخلاقية عند الطفل نجده مشغولًا انشغالًا خاصًّا بثالوث من الأشخاص -أبويه ونفسه. ومما يبدو ذا مغزى أن كثيرًا من الديانات والأساطير الدينية الأولى، بل معظمها، يتركز حول مجموعة ثلاثية من الأشخاص تشتمل في العادة أبًا وأمًّا وابنًا: فمثلًا أورانوس -أو السماء، و«جايا»- أو الأرض، وابنهما «كرونوس» في الأساطير الإغريقية الأولى؛ و«أوزيريس» و«إيزيس» و «حورس» في الأساطير المصرية؛ و«أدوم»

و«أوكوبا» و«أبريبو» في خرافات القبائل النيجيرية[1]. فالطفل يتجه بفطرته إلى أبيه وأمه ابتغاء الأمن والراحة والوقاية، وهو ميال إلى أن يُنسب لكليهما -أو لأحدهما- المعرفة الكاملة والخير الكامل والقدرة على الخلق وعلى التدبير؛ وهذه هي نفس الصفات التي ينسبها المتدين لأربابه الأعلين. ولقد ذهب «هربرت سبنسر» إلى أن معظم نظريات الدين وشعائره تطورت من عبادة الأسلاف في الزمان البدائي، إذ كان أفراد القبيلة يعبدون سلفهم المقدس الذي تحدروا من صلبه.

إن أولئك الذين أدركوا هذه الأنواع من الأشباه والنظائر قد قفزوا أحيانًا إلى نتيجة ليسوا فيها على صواب؛ فمن افتراض أن الدين بقية من بقايا تفكير الطفولة أو الهمجية راحوا يستنتجون أن الديانات كلها ليست إلا أثرًا خرافيًّا لا يجدر بالكبير المستنير الإبقاء عليه. لقد قابلنا هذا الخطأ من قبل -وأنا ميال إلى تسميته خطأ النشوئيين- عندما بحثنا مصدر الفن. فإذا كان عالم النفس قد كشف كيف تطور الشعور الديني، فليس يلزم على هذا أنه قد حط من شأن الدين أو أبطله أو فسّره بما يذهب بقيمته. وحتى لو صح أن الموقف الديني موقف طفولة، فمن الجائز جدًّا أن يكون هذا أحسن موقف، بل ربما كان الموقف الوحيد الذي يمكننا أن نتخذه عندما تواجهنا معضلات الوجود المجهولة.

إن العالم كثيرًا ما يميل إلى اعتبار السحر والدين كأن كل واحد

(١) يقول «مستر جلادستون» في شرح ذلك إن الديانات الهومبرية وغيرها ليست إلا تحريفًا من الدين الحقيقي الذي يقول بوجود ثالوث مقدس، والذي كان في المبدأ عام القبول. ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا الرأي ظهر في نفس السنة التي ظهر فيها كتاب «دارون» عن (النشوء والارتقاء). وهذا الكتاب كان له بعد تأثير عميق في علم الأديان.(المؤلف).

منهما لون آخر فقير من ألوان العلم. نعم، إن الدين عند الهمجي كثيرًا ما أخذ مكان العلم: لقد كانت معلوماته العلمية عن الزراعة ضئيلة فلجأ إلى الأضاحي والرُّقى، وكلما أراد أن ينمي زرعه أحرق شابًّا مطهرًا، على قربان نار بطيئة الاحتراق؛ والسر في اختيار نار رقيقة على هذه الصورة هو إطالة الوقت حتى تكثر دموع الضحية، فعلى قدر غزارتها يغزر المطر، ولكي تكون التضحية نافذة الأثر وجب أن يختار لها فصل خاص هو أيام الفصح أو أوائل الربيع، وإلا لم يتأثر المحصول بها. وقد كان من واجبات رجال الكهنوت أن يحسبوا الوقت المناسب لهذا الغرض، بانين حسابهم على ارتفاع الشمس. وفي هذا يلتمس بعض الباحثين مبادئ التفكير العلمي والملاحظة العلمية. إن الدين في يد باحث القرون الوسطى كثيرًا ما أصبح علمًا منظمًا للوجود كله؛ ووجهة النظر هذه لا يزال يأخذ بها اللاهوتيون الرسميون. ولكن ديانة الجماهير الغالبة من الناس ليست في أساسها مجموعة من المعتقدات الذهنية؛ فالدين الذي يصبح ذهنيًّا خالصًا سرعان ما يفقد كونه دينًا، إذ يصبح فرعًا من الميتافيزيقا. ومع ذلك فلا العلم ولا الميتافيزيقا في شكلهما الحاضر يستطيعان أن يعطيانا صورة –نهائية أو مقنعة– للوجود وعلاقته بالفرد الإنساني. ولهذا تجد معظم الناس –مهما كانوا حكماء ومستنيرين– يشعرون بالحاجة إلى شيء ما، (وقد يكون هذا الشيء وقتيًّا محضًا) يطمئن أحاسيسهم ويقوي إراداتهم.

فكيف –إذَنْ– يستطيع هؤلاء أن يكسبوا هذه الثقة المنشطة؟ هل يجلسون ويفكرون في المعضلة من أولها، كما كان يفعل «روبنسون

كروزو» لو أنه وجد نفسه في طفولته وحيدًا في جزيرته الصحراوية، وتُرك ليكوّن آراءه الدينية؟ من الغريب أن هؤلاء يتحدثون كما لو كانت تلك حالهم. فهم يدافعون عن معتقداتهم أو عن رفضهم الاعتقاد كما لو كان ذلك لونًا من ألوان النظر العقلي الخاص. ولكن دعني أؤكد مرة أخرى القول بأن الدين ليس مجرد استنتاج منطقي هادئ، ولا مجموعة من النتائج العلمية يخترعها كل شخص أو يثبتها لنفسه؛ فالواقع أننا نأخذ ديانتنا من الجماعة التي نحيا بينها، ونحن نستمدها من آبائنا ومدرسينا، ومن المعابد التي نعتادها في بواكير الشباب، ومن الكتب والمجلات التي تقع صدفة في أيدينا، ومن المعتقدات والأوضاع التي تحيط بنا مجهزة مهيأة –وفي عبارة قصيرة– نحن نستمد ديانتنا أساسيًّا من التقاليد، فنحن نقبلها كما نقبل الزي الوطني، واللسان القومي، بلا تفكير كثير، ومن غير باعث مقرّر صريح، ثم تهاجمنا الشكوك بعد؛ وبراهيننا وحججنا تكاد تكون كلها تبريرًا متأخرًا، أَيْ عللًا نتلمسها لآراء اتخذناها من قبل. وهذه العلل نلصقها إلصاقًا بتلك الآراء التي قبلناها، مثلها في ذلك مثل حاشية تلحق بآخر الكتاب.

ولكن التقاليد دائمة التغيير، فبالرغم من الحروب والحملات الدينية والاضطهادات والجهود العنيفة في سبيل المحافظة بالقوة على المذهب الأصلي – على الرغم من كل هذا، فإن بقاء المعتقدات رَهْن بمناسبتها لمزاج معتنقيها. وهذه المعتقدات تخضع في هدوء للتعديل والتشكيل حتى تناسب –لا المعرفة التي تتزايد كل يوم فحسب– ولكن الرغائب والآمال والأذواق والميول والمثل الأخلاقية للعصر والجماعة.

إذَنْ فنحن أنَّى توجهنا انكشف لنا أن الدين -مثل السياسة والفن- يتوقف على عوامل نحن بها نِصف شاعرين. وقد ألقت الدراسات الحديثة للعقل الباطن أنوارًا كاشفة على هذه العوامل الغامضة وعلى كثير مما كان قبلُ غير مفهوم في الحياة والتجربة الدينية. ولأتناول الآن على سبيل التمثيل واحدة أو اثنتين من المسائل البارزة.

لعل أبرز مثل في العالم الحديث هو الارتداد الديني، وأعني به الانقلاب المفاجئ في الحياة الشخصية لإنسان ما إلى اتجاه ديني جديد. وهو يتميز عادة باضطراب هائل في العقل -بثورة من الهياج الانفعالي، ومن الحماسة الخلقية الشديدة والمعتقدات اللاهوتية القوية. هناك في بلدة (Basingstke) كان يوجد رجل بلغ من استهتاره بالدين وبذاءة لسانه أن سماه الناس «توم السفيه». وقد حدث أن ورد هذه البلدة واعظ ديني جديد، فدفع حب الاستطلاع «توم» إلى أن يدخل الكنيسة -ولم يكن قد دخلها منذ سبعة عشر عامًا، استمع «توم» للموعظة، وقد جاء في ختامها: «لو أن أكثر الناس عصيانًا وتمردًا في هذه الكنيسة جثا على ركبتيه وصلى لربه لبدل الله قلبه». فقال «توم» لنفسه: «إني لأكثر الناس عصيانًا وتمردًا هنا»! وجثا على ركبتيه وصلى. فما قام حتى كان قد خُلق خلقًا جديدًا وصار حتى موته يُعرف بين الناس باسم «توم المُصلِّي». وإذا وجدت نفسك -أيها القارئ- ميالًا إلى أن تضحك من «توم المسكين» فاقرأ حيوات بَنْيَنْ «Bunyan» وفوكس «Fox» ووزلي «Wesley»، أو اقرأ تراجم طائفة «المثوديين» «Methodists» في إنجلترا الجديدة، أو استمتع إلى «كارليل» إذا وقف موقفه تجاه «لا الأبدية» وفي هذا يقول:

«بينما كنت أفكر، اندفع إلى نفسي فجأة إحساس كأنه تيار من النار، ومنذ تلك الساعة بدأتُ أكون رجلًا». إن الكثيرين منا قد حضروا بعض اجتماعات الحركة الإحيائية (revivalists) ورأوا كيف ينفجر الشبان والفتيات يبكون ندمًا وتوبة، أو يضحكون ويصيحون سرورًا وبهجة، وكيف يأخذ السكيرون على أنفسهم العهد، وكيف يُخرج الأغنياء ما في جيوبهم من نقود، وكيف ينزع النساء حليهن ويقذفن بها في طبق التبرعات. وكثيرًا ما تبدأ جمهرة المتعبدين تغني أو ترقص أو تهدر في لسان غير معروف، ثم تندفع لتُحول بقية البلد تحويلًا دينيًّا. ومثل هذه الفورات تحدث بين وقت وآخر، في كل قطر وفي كل شرعة تقريبًا.

كيف نعلل لهذه الظواهر؟ إن أول مَن درسوها من علماء النفس لاحظوا أمرًا عجبًا؛ فقد قاموا باستقصاءات وملاحظات دقيقة في جهات كثيرة –معظمها في أمريكا– استنتجوا منها أن التحول الديني يحدث في الغالب في أوائل البلوغ. وأكثر ما يحدث عند الإناث بين سن الثالثة عشرة والسادسة عشرة، وعند الذكور بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة، وهذا هو الوقت الذي تنضج فيه غريزة الجنس نضجًا مفاجئًا، (أو هكذا يقول علماء النفس). أضف إلى ذلك أن الحادث الذي يشبه التحول الديني شبهًا كبيرًا هو الوقوع في الحب، ولا سيما الحب لأول نظرة؛ وهذه في الغالب تجربة من تجارب البلوغ. من كل هذه الحقائق استنتج الباحثون أن التحول الديني نتيجة –ورد فعل معًا– لانفعالات الحب الجنسي الجديدة التي تواجه الشاب أو الفتاة لأول مرة في حياتهما.

ليس هناك من شك في أن هذا عامل مهم أحيانًا؛ ولكنَّ هناك على ما

أظن تطابقًا آخر بين أوائل النزعات الجنسية والتحولات الدينية في عهد البلوغ. لقد بيّن لنا علماء التحليل النفسي أن بعض الميول الانفعالية قد تُكبت كبتًا لا شعوريًّا، ومع ذلك تظل تنمو تحت المستوى الشعوري للعقل. أفليس من الجائز أن يحصل مثل ذلك للميول الدينية؟ لعل البذور كانت هناك طول الوقت تنبت وتنمو تحت غشاء الشعور. إنه لمن المعروف أن الوقوع في الحب -رغم ما يبدو في الظاهر- قلّما يحدث مفاجئًا، فالشباب في خلواته المزاجية، وفي أحلامه المطوية، وفي شطحاته الخيالية يظل -دون قصد- يبني صورة مثاله الكامل؛ وعندما يَخْفق قلبه أخيرًا بالحب، إنما يحدث ذلك لأن شخصًا محققًا لأحلامه مطابقًا لمثاله قد دخل دائرة حياته -فكان كمفتاح الشخص الغريب ناسب القفل القديم وفتحه فجاءة.

كذلك التحول الديني يظهر أنه يُسبق دائمًا بمرحلة طويلة متجمعة من الإفراخ الصامت. أعد -إذا شئت- قراءة تاريخ العظماء ممن تحولوا تحولًا دينيًّا، تجد أنهم حتى في أيام لهوهم واستهتارهم كانوا مشغولين بالدين، وكانوا في الغالب يحاربونه؛ القديس «بولس» اضطهد المسيحيين، و «توم المصلي» كان «توم اللّعان»، ويحدثنا «بَنْيَنْ Bunyan» أنه كان حتى في صباه يسخر ويشتم، وأن كابوس الشيطان كان يزوره في أحلام مزعجة. فالفحص الدقيق في كل حالة يكشف أن الشخص المتحول لم يكن قبل تحوله غير عابئ بالدين كما يظن، بل على العكس كان يحس بالدين إحساسًا قويًّا. فإذا اعتبرنا التحول الديني -إذَنْ- هدفًا لا يوصل إليه إلا التفكير الذهني كانت فجاءيته لغزًا محيرًا

لعقولنا؛ أما إذا اعتبرناه ظهورًا مفاجئًا لعقدة انفعالية ظلت تحت السطح أشهرًا وسنين تقوى وتنمو، فإنه يصبح أمرًا مفهومًا لنا.

ولكن التحول الديني في أيام البلوغ -على انتشاره- ليس النوع الوحيد المهم، فإن بعض العظماء من الزعماء الدينيين -من أمثال «القديس بولس» و«القديس أوغسطين» و«تولستوي»- لم يتحولوا في أيام حداثتهم، بل في عهود من حياتهم متأخرة نسبيًّا. وآثار التحول الديني المبكر كثيرًا ما تكون عارضة قصيرة الأمد. وهناك نوع أكثر طرافة من هذا يتنزل على شخص مؤمن متدين، ويحوله إلى ما أُسميه -لعدم وجود كلمة مناسبة- صوفيًّا **mystic**؛ وأخص صفات المتصوف أنه ينشئ أو يكشف في نفسه تجربة -تبدو لأول نظرة دينية خاصة- لا تحدث مرة واحدة، ولكنها تحدث باستمرار خلال حياته؛ تلك هي حالة عقلية معينة، إذا لابسته لم يفكر في الله فحسب، ولكن يحس به ويدركه إدراكًا قاطعًا. وهذه الظاهرة خاصة غريبة، تصادفها في كثير من الديانات المختلفة خلال العصور؛ وأوصافها تتشابه تشابهًا عجيبًا، والكتّاب الدينيون أنفسهم يشيرون إلى هذه الأحوال باعتبارها أحوال صلاة. وإذَنْ فلعل من الخير أن نستخدمها لنوضح مسألة ثانية مقارنة هي: سيكولوجية الصلاة.

الصلاة (**prayer**) كلمة يستعملها الكتاب الدينيون في معنى اصطلاحي واسع؛ فهي لا تعني مجرد دعاء لفظي، ولا مجرد تعبير عن الحمد والثناء، فتلك ليست إلا أمثلة محدودة من الحالة العقلية العامة، التي تفسرها كلمة «صلاة». أما الخاصة الحقيقية فهي إحساس بهيج من الإشراق الروحي. ولعل كلّنا -تقريبًا- قد مرّ يومًا ما بشيء من هذه

التجربة؛ لعله مرّ بها عندما رأى لأول مرة –وهو وحيد– شروق الشمس فوق قمة مجللة بالبَردَ، أو عندما اشترك في صلاة دينية على ملك راحل. هذه التجربة تأتي للكثيرين في شكل شخصيٍّ قوي، فيخيل إليهم أن الله –أو روحًا لا جسد له– يتجلى لهم مباشرة، فيخاطبه الواحد منهم دون وساطة، ويحس أنه مُتَّحِدٌ معه، في جو من الغبطة لا يُستطاع التعبير عنه.

ولقد لاحظ عالم النفس أن أحوالًا من الوجد شبيهة بما تقدم تحدث لأشخاص يقعون تحت تأثير مخدرات الإحساس؛ وبعض المتعبدين يعمد إلى إثارة هذه الأحوال بتناول العقاقير كالحشيش والكحول والأفيون، وتوصف التجارب الناتجة من هذا بأنها «إلهامات تخديرية». والغريب في أمر هذه الإلهامات أن العقل إذ يعود إلى رشده لا يعدّها شيئًا ذا قيمة. ولقد جرّب «وليم جيمس» هذه التجربة على نفسه بأوكسيد النيتروس –غاز طبيب الأسنان– وأَمَلى وهو تحت تأثيره ما ظنه إذ ذاك خواطر من الاتحاد العجيب، هاك بعضًا منها:

Good and evil reconciled in a laugh
What's mistake but a kind of take?
What's nausea but a kind of ausea?
Sober, drunk –all the same!
It fades for ever and for ever as we move.

وربما كان أشهر مثال من هذا النوع ذلك الذي سجله «سيموندز»(**John Addington Symonds**) الشاعر الناقد المشهور في القرن الماضي، إذ يقول: «ما أعجبه من أمر! أن أحس بهجة رؤية الله، تلك الرؤية الطويلة غير المحدودة بالزمان –الرؤية التي يغمرها

الحق والحب المطلق- ثم أجد بعد ذلك أنّه لم يوحَ إليَّ، وأنني إنما خُدعت بذلك التأثير غير العادي في دماغي».

وتحدث أحوال شبيهة بهذه في الأزمات العصبية -أثناء الغيبوبات أو النوبات الهستيرية أو الصرعية. ولعلنا نذكر كيف يصف «دوستويفسكي» **Dostoievsky** -في قصة «الأبله- خواطر الأمير المصروع»؛ لقد كان «دوستويفسكي» نفسه مصابًا الصرع، ولا شك في أنه -في قصته- يصف أحاسيسه الشخصية، فهو يتكلم عن: «لحظة من الحس العميق تفيض بالوجد والإخلاص... لحظة من الانسجام والجمال في أرقى درجاتهما... وإني لأجود بحياتي كلها في سبيل هذه اللحظة». وهو يذكر كيف أن «محمدًا» الذي يُقال إنه كانت تغشاه حالات شبيهة بالصرع(١) -أكد أنه زار معارج الله كلها في أقل مما يستغرقه إفراغ قدح من الماء.

---

(١) عندما يتعرض العلماء الغربيون لبحث الأحاسيس والتجارب الدينية من وجهاتها الشخصية والنفسانية لا يفرقون بين أشخاص الأنبياء وغيرهم من مؤسسي الحركات الدينية وكبار دعاة الصفاء الروحي. على أن معظم هؤلاء الباحثين حريصون على أن ينبهوا أن دراسة هذه الظواهر شيء وبحث صدق رسالات الرسل وقيمتها للإنسانية شيء آخر. وليس يلزم من تشابه بعض التجارب الدينية عند الأنبياء وغيرهم من المتدينين أن يكون الأنبياء كاذبين في دعواهم النبوة وفي تلقي الوحي من الله. وعلى هذا النحو يمكن أن نفهم تعبير الباحثين بالنوبات الصرعية عن الحالات التي كانت تعتاد بعض الأنبياء، والتي يصف الرسول شيئًا منها في حديث البخاري: (عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس -وهو أشده عليَّ- فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا).(المؤلف).

وتلاحظون أن كثيرين من هؤلاء الكتاب -من أمثال «سيموندز» يميلون- كما يميل كثير من علماء النفس -إلى القول بأن الرؤى التي يثيرها العقّار أو المرض رؤى لا قيمة لها، لهذا السبب. إن عالم النفس في صفته العلمية النفسانية لا شأن له بصدق التجربة أو قيمتها. ولكن يجب أن نحتاط من القول بأن هذه الرؤى لا بد أن تكون أوهامًا أو خيالات خادعة، فربما كان الدماغ قد هُيِّئَ بالفطرة ليستجيب -لهذه المؤثرات الدقيقة التي تحيط بنا -في حالة واحدة فحسب، وهي ما نسميه من وجهة نظر الحياة الدنيا ظرفًا غير طبيعي. إن الدماغ الطبيعي قد نُشِّئ للمطالب العملية لحياة أرضية، ولم يُنَشَّأ لتذوق الموسيقى أو الشِّعر أو التصوير أو القوانين الأساسية للوجود. وكما قلنا من قبل -في بحثنا للفن وللتجربة الذوقية- إن الرجل العملي لا يرى إلا القيمة العملية فيما يحيط به من الأشياء، وينسى أنها قد تحتوي في ذاتها ولنفسها قيمًا خفية عميقة.

وأنا شخصيًّا أفضل أن أشبه التجارب الدينية عند الصوفي -لا بالخيالات التي تحدث تحت تأثير الأفيون أو الغاز- ولكن بأحوال البصيرة الكشفية التي تحدث عنها الشعراء والفنانون كثيرًا، كما يقول ورد زورث:

«تلك الحال الصافية الهانئة التي تخف فيها
أعباء هذا العالم الثقيل وألغازه.
والتي يكاد يتوقف فيها نفس هذا الهيكل
الجسمي، فننام وننفذ بعين بصيرتنا
إلى حياة الأشياء».

إن المتصوفين الشرقيين يفضلون أن يستثيروا هذه الأحوال بأن يغمضوا أعينهم عن هذه الدنيا الدَّنية وأشيائها الزهيدة، وينظروا إلى داخل نفوسهم. أما مسيحيو القرون الوسطى فكانوا يستجلبونها بإخماد الجسم وتركيز الأفكار على رمز ديني. وكلتا الطائفتين كثيرًا ما تُعِدان أنفسهما بالصوم واتخاذ مواقف جسمية خاصة، والقيام بتمرينات تنفسية وتكرار كلمات من نوع خاص رتيب. ويفضل الشعراء المحدثون في العالم الغربي -من أمثال «ورد زورث» و«كينس» و«شيلي» و«برواننج» و«ريتشارد جفرِزْ» -ولنكتفِ بهؤلاء فهم أشهرهم- يفضلون أن ينظروا إلى الخارج، وأن يجدوا غبطة منبعثة من وراء العالم الحسي يثيرها في نفس الواحد منهم تأمله الطبيعة على انفراد، أو تجارب الحياة والحب الإنساني. وقد ذكر واحد أو اثنان منهم في هذا طرقًا عجيبة: فإن «تينسون» -مثلًا- كان يستطيع أن يجلب على نفسه نوبة ذهول وغيبوبة، بأن يكرر اسمه، وبعد هذا -كما يقول- «تذوب فرديته في الحال»، والحالة التي توسطت بين هاتين «لم تكن مختلطة، بل كانت أوضح الوضوح وآكد اليقين، يبدو فيها الموت استحالة مضحكة، ويصبح انعدام الشخصية الحياة الصادقة الوحيدة». وهو يشير إلى هذه الرؤى أكثر من مرة في قصائده:

هذا، وكم من هاجس خفيّ،
يلمسني بنوره الصوفي،
كقبس من حُلُم منسيّ،
لا يجد القول له تعبيرًا.

ومهما يكن فنحن نستطيع أن نتبين -بين الأحوال الصوفية للصلاة وأحوال مدمن المخدرات- فارقًا عمليًّا واحدًا؛ فالأولى في العادة مساعدة والثانية ضارة، «ومن قام مِن صلاته خيرًا مما كان، فقد استجيبت صلاته»؛ والثمرة الرئيسة للصلاة -كما يؤكد المتعبدون أنفسهم- ليست في أن الدعوة الخاصة قد حققت بمعجزة، ولكن في أن المُصلِّي نفسه يحس عزاء وقوة بعد تجربته؛ فالصلاة -ولو لم تنتج أثرًا ماديًّا- قد تحدث تغييرًا روحيًّا.

هنا معضلة أخرى لعالم النفس، تلك هي تأثير الصلاة؛ وهو في العادة ميال إلى حلها على أساس ما يسميه الإيحاء؛ والإيحاء كلمة يقصد بها أن الأفكار -ولا سيما الأفكار الانفعالية- تميل في صورة آلية إلى أن تتحقق في معتقدات وأعمال معينة، بصرف النظر عما قد يكون هناك من إغراء أو برهان منطقي. وأكثر ما يحدث الإيحاء في تلك الحالات التي تكون وسطًا بين النوم واليقظة. أدم النظر إلى نقطة من الضوء أو عُدَّ عدًّا آليًّا فمن واحد إلى الألف تجد أنك تستطيع أن تجلب نوعًا من غيبوبة الحلم أشبه بحالة السِّنة التي تسبق ذهابك إلى النوم. ولعلك تلاحظ -وعقلك على هذه الحال- أن صورك العقلية تكاد تقرب من الأحلام في واقعيتها. وكثيرًا ما يحدث أن تنقل إليك وأنت في هذه الحالة أفكار العلاج -وأفكار الخوف والخطر أحيانًا- نقلًا نافذًا. إن «كويه» (M. Coue) يطلب إلى مرضاه -في هذه الحالات النائمة- أن يكرروا لأنفسهم تكرارًا ميكانيكيًّا قولهم: «يومًا بعد يوم، في جميع النواحي، صحتي آخذة في التحسن». ولشد ما يدهشون

ويفرحون حين يستيقظون في صباح اليوم التالي فيجدون صحتهم -في كثير من الحالات- قد رُدَّتْ إليهم.

وما التنويم المغناطيسي -وهو عمل معروف لرجال الطب في كل مصر- إلا خطة منظمة لاستغلال هذه الحساسيات الإنسانية، فليس فيه شيء مغناطيسي وليس فيه من الشعوذة أو السحر أكثر مما في الحيل الخادعة التي يلجأ إليها صاحب الإعلانات. وكثير من الحالات الصوفية -كما عرفها مسيحيو القرون الوسطى، أو كما يعرفها طوائف «اليوجي» في الهند الحديثة- كثيرة الشبه في أغراضها وفي طريقة إحداثها بهذه الأحوال القريبة من التنويم المغناطيسي. ومن هنا نجد عالم النفس ميالًا إلى أن يشرح التجارب الصوفية والأحوال التي تُجاب فيها الصلاة على أساس من الإيحاء الذاتي.

هذا لا يلزم منه بالضرورة هدم صحة هذه التجارب أو نتائج الصلاة، فلعل الله قدّر في نظامه أن يستجيب عن طريق الوسائط الطبيعية لا الوسائط الخارجة عن دائرة الطبيعة. هذا إلى أنه مما يستطاع تصوره (ولا أقول من الراجح) أننا في هذه الأحوال الغريبة من التغير نستطيع أن نلج باب ذخيرة كبيرة من النشاط العقلي لا نستطيع إليها وصولًا في الظروف العادية ولقد كانت هذه فكرة واحد من أشهر علماء النفس «وليم جيمس».

كان فرضًا من هذا النوع ذلك الذي جرّ «جيمس» وكثيرين غيره من الباحثين العلميين إلى الاهتمام بالبحوث الروحية. أما نتائج هذه البحوث فلعلها جاءت مقنعة لعلماء الطبيعة أكثر منها لعلماء النفس.

حقيقة أن علماء النفس الآن مستعدون أن يقبلوا حقائق التنويم المغناطيسي والشخصية المتعددة. وقليلون منهم يميلون إلى قبول فكرة «التليبائي» (الاتصال النَّفسي الأثيري). ولكن أغلبيتهم إذا تطلبت الدليل على خلود الروح، طلبته -لا في ظواهر المذهب الروحي- بل في الخطوات العقلية، كما تدرس في ظواهرها اليومية أو كما تحلّل في تجارب المعمل. وفي رأي إحدى المدارس المهمة أن كل هذه العمليات يمكن رَجْعها في النهاية إلى حدود فسيولوجية؛ غير أن معظم علماء النفس -على الأقل في بريطانيا- يحسون أنه حتى الحقائق التي تقررت من قبل لا يمكن قط أن تشرح شرحًا كافيًا على أساس الفعل الطبيعي أو الكيميائي أو وظائف الأعضاء. ولقد جهر واحد على الأقل من مشاهير معاصرينا بأن افتراض وجود نفس (soul) أو شيء مشابه لها يعطينا أحسن حل للمعضلة. ولعل الرأي الغالب في أيامنا هذه هو الذي يميل إلى فصل الجسم من العقل كما تعودنا أن نفصلهما منذ أيام «ديكارت». وعند أصحاب هذا الرأي أن الإنسان ليس مجرد جسد هامد ضمَّ إليه طيف أو خيال أو روح ضمّا غير وثيق؛ فربما كانت المادة أكثر روحية، وربما كانت الروح أكثر مادية مما نظن نحن في الغالب.

غير أن هذا كله ليس الآن إلا تأملات فكرية جذابة. وإن سيكولوجية الدين لم تصل -وليس من المحتمل أن تصل بنا- إلى نتيجة نهائية في شأن ما وراء الستار الطبيعي. ومع ذلك فمما لا شك فيه أن هناك بعض نتائج إيجابية قليلة قد برزت أمامنا: وأولى هذه النتائج على ما أرى أن بعض حقائق -ظل العلماء زمنًا ينكرونها إنكارًا تحكميًّا-

أصبحت مقبولة الآن، وإن لم يكن ذلك القبول دائمًا حسب قيمتها الظاهرة. فكثير من العجائب التي أذاعتها لنا صفحات التاريخ من الرؤى والأشباح والأدوية المعجزة، والمس الشيطاني، وغيبوبة التنويم المغناطيسي وما إلى ذلك مما كان يرفض في الزمان القديم باعتباره غير جدير بالبحث -أصبحنا نعرف الآن أن لها أساسًا من الحق، وإن كان هذا الحق كثيرًا ما أُسيء فهمه. إن الرحالة ليعود من رحلته في «الهند» أو «سيبيريا» وجعبته حافلة بقصص وأعاجيب رآها، ولقد يدهشه أن يسمع أن أضعاف هذه القصص والأعاجيب يمكن أن تحدث في جلسة روحية في «لندن» أو «نيويورك». وقد يملأ نفس الروحي العجب من ظواهر الجلسة الروحية، ولكنه يدهش إذ يعلم أن هذه الظواهر مألوفة عند رجال الطب والمشعوذين ورجال الدين منذ عصر ما قبل التاريخ. فكم من هذا يقوم على الوهم؟ وكم فيه يعتمد على حقائق لم تفهم بعد؟ هذا سؤال لا يستطيع العلم بعدُ أن يجيب عنه.

ثانيًا -نستطيع أن نقول: إن خصائص الحياة الدينية لم تَعُدْ تبدو بعيدة كل البعد عن خصائص نشاطنا العقلي العادي، إذا دققنا النظر فيه. وإذا كانت الظواهر الروحية قد شرحت أحيانًا شرحًا ماديًّا، فإن الظواهر المألوفة في وجودنا اليومي الآن تتطلب شرحًا روحيًّا.

ثالثًا -(وربما كانت هذه النقطة هي أحفل النقط بالمغزى والدلالة)- إن دراستنا تتجه إلى البرهنة على وحدة الشعور الديني؛ فعند الهمجي والمتمدن، وعند الإغريقي القديم أو المسيحي المحدث، وعند المسلم والبوذي والمتصوف الإشراقي **Theosphist** -عند كل

هؤلاء نجد انفعالات متشابهة وتجارب متشابهة لا ينقطع عملها. وقد تتعدد المذاهب والأساطير الدينية، ولكن الدين واحد. وهو -كسائر منتجات العقل الواعي -يترقى ويتطور، وقد تتغير مذاهبه في مادتها أو درجة يقينها، وقد تبدِّل شعائره أثوابها الظاهرة، ولكن تعابيره في أحسن صورها تتضمن أرقى أفكار الإنسان وأحاسيسه عما يحيط به من ألغاز الوجود، وتبين أسمى موقف له نحو معضلات الفناء. وإذَنْ فمهما يكن رأي عالم النفس في التفاصيل فإنه مضطر أن يعترف أن الدين -رغم كثرة ارتباطه بالحركات الرجعية- من أكثر العوامل الاجتماعية بقاءً، ومن أقوى الوسائل الفعالة للسمو بحياة الفرد وحياة النوع البشري.

* * *

الفهرس

الجزء الأول

مقدمة المعرب ٧

كيف يعمل عقل الراشد؟

الشعور – بقلم الأستاذ سيرل بيرت ٩

الفصل الأول: ١١

الفصل الثاني: دراسة الشخص لعقله ٢٩

اللا شعور – بقلم: إرنست جونز ٥٣

الفصل الثالث: ما التحليل النفسي؟ ٥٥

الفصل الرّابع: قوة اللا شعور ٦٧

الفصل الخامِس: الأحلام ٨١

كيف يعمل عقل الطفل؟

مشاكل نمو الأطفال– بقلم: إيمانويل ميلر ٩٥

الفصل السادس: ما يبدأ به الطفل ٩٧

الفصل السّابع: الحظيرة العائلية ١١٣

الفصل الثامن: مخاوف الأطفال ١٢٧

الفصل التاسع: الغريزة والعادة ١٤١

الفصل العاشر: الطفل في لعبه ١٥٣

الجزء الثاني

كيف يعمل العقل في المجتمع؟ – سيرل بيرت ١٦١

الفصل الحادي عشر : سيكولوجية الجنسين ١٦٣

الفصل الثاني عشر: سيكولوجية الشعوب ١٨٣

(١) الشعور الجمعي ١٨٤

(٢) وراثة الأجناس ١٩٢

(٣) التقاليد الاجتماعية ٢٠٣

الفصل الثالث عشر: سيكولوجية السياسة ٢٠٩

الفصل الرابع عشر: سيكولوجية الفراغ ٢٣١

الفصل الخامس عشر: سيكولوجية الفن ٢٥١

الفصل السادس عشر: سيكولوجية الدين ٢٩٥